الإمام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء السادس

تأليف

عَبد الفتّاح عَبد المقصُود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت

١

ثقل على الناس الانتظار . . أينما راح منهم رائح أو غدا غاد ، بحاضرتى النزاع ، لمس قلقا ولهفة ، وسمع ضجرا فى همس ، وضجرا فى علن . . فى الكوفة كما فى دمشق ، وفى دومة أيضا . . والناس ، حيثما كانوا ، ما برحوا على قدم ، يعدون الأعين ، ويتلعون الأعناق تطلعا إلى الثمرة التى تهيأت لقطفها يد التحكيم .

ولم يبال الحكمان — فيما بدا — تلك اللهفة ، ولا حاولا أن يهدئا من ثائرة ذلك الفضول الذى غلب على نفوس الجمهور . بل لعلهما كانا أدنى إلى تقليب جمره وتأريث ناره بما انتهجا من استخفاء وتكتم كلما فاءا إلى المفاوضة واجتمعا بمستقرهما لبحث الأمر وتبادل الآراء .

كانا ، إذ ذاك ، ينحازان بعيدا عن الجموع . عن الخاصة والعامة . عن الأعين والألسن . . أياما عدة أمضيا بهذا الجانب من الأرض الجرداء فى دومة الجندل ، فى مسرى الريح ، بخيمة من وبر لم تكن تكف عنهما زمهرير الشتاء . صبحهما موصول بليله ، وليلهما موصول بفجره . فى النور حوار ، وفى الظلمة تدبر وادكار .

ولكنهما لحكمة انحازا . أو لعلة ، فما أفصح الزمن عما أضمرت قلوب !.. لحكمة ، أو لعلة تمهلا إلى رمضان إلى نهاية المدة ، وشدا وثاق الليالى الطويلة بقيد التريث الثقيل . . إن يكن أبو موسى الأشعرى استأنى بالأمر عن تردد ، أو تحرج ، أو محاذرة حتى يعرف موضعا لقدمه ، فما بال عمرو بن العاص ينزع أيضا إلى نفس هذا الإبطاء المرذول وهو العالم بما أقبل فيه ، المستوثق بما فى يده ، البانى فى أمسه لغده ؟ . .

فلعله إذن بعض دهاء ابن النابغة أن يرجىء لحظة الحسم ما وسع جهده وحيلته إرجاء . . وأن يبطىء كرفيقه ، ويملى للوقت فى المهل والتريث ، وأن يفسح لهذا الرفيق فى المحاورة والمداورة وهو ، فى الحق ، إنما يدور بالناس فى تيه من الفروض والأحداس ، ومن الريب والشكوك ، ومن النظرات

والآراء . . كأنى به يعظ فى التريث ليشد أعصاب الجمهور ، ويزيد فى قلقهم ، وينزع قلوبهم توجسا وخوفا من مجهول مرهوب ، حتى إذا اشتبهت على الأشعرى المسالك ، وكثف حوله ضباب الظنون ، تهاوى بما بقى من إيمانه المصدوع المهزوز — إن كان لديه من قبل إيمان — بهذه القضية التى اختير لنصرتها وهو منها ، منذ نشوئها ، بموقف شبهة واتهام ! . . كأنى بالناس ، إذ طال بهم الانتظار ، وضجوا منه ، ونفد صبرهم عليه ، قد تاقوا إلى تكشف الغيب ، سريعا سريعا — اليوم ! الساعة ! اللحظة ! — عن غدهم المرتقب وإن طلع عليهم بشر الخطوب . فما أشق على النفس من ترقب البلاء ! . . وما أعنى وأشد من بلاء مجهول ! . . فإذا انجابت إذن لحظة الحسم ، من بعد ، عن حكم هو أهون شرا من ذلك الخطب الذى حزرته الأوهام دون الأفهام ، وقدرته الأخيلة المريضة المكدودة ، وخالته الأعصاب المهيضة المشدودة ، فذاك عندئذ هو الشر المأمول المقبول ! . .

على الأعصاب لعب إبطاء رفيق دومة الجندل بالحكم ، تلك الأيام الطويلة الثقيلة التى امتزجت فيها قرة الشتاء بنهكة الص[illegible] ، فجرى بردها فى الأوصال بالقشعريرة ، وسغبها فى الجسوم بالإعياء . . ما من امرئ طلع عليه هلال رمضان ، ذلك العام ، وهو هناك ، إلا ود — ببعض عمره — لو تعجل الخاتمة المجهولة . . الذين كانوا بمقام عزلة ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من فريق العراق والشام ، شاقهم شهود النهاية التى تشبع الفضول ، وتطبق الغلاف على قصة الخلاف ! . . والذين عرفوا حقهم وآمنوا به ، ودوا لو جاءتهم هذه النهاية معجلة : انتصارا كانت لهذا الحق أم كفاحا جديدا فى سبيله ، بالحديد والدم ، حتى يرتفع علمه ويتهاوى خصمه . . والذين هزتهم الشكوك أو استعبدتهم أهواء الأنفس وعروض الحياة ، رجوا أن تكون العاقبة خاتمة ، سواء أقبلت فى موكب سلام أم شدت إلى عجلة استسلام ! . .

رغبات الجموع كانت ، حيال النتيجة المنتظرة ، على تفاوت ، وإن كانت مشاعرهم ، حيال الإبطاء بها ، على اتفاق . . لكن فئة من الناس هى التى صارحت الحكمين حينذاك بما ضمت الخواطر وأجنت الضمائر . قلة منهم . بضعة نفر ، خرجوا من الهمس إلى الجهر ، ومن اللغط المبهم إلى الإفصاح المبين . .

وما كشفوا ، حين لفظوا عباراتهم القصيرة الموجزة ، إلا عن شق الأحاسيس التى خالطت السرائر فى مختلف أرجاء الوطن الإسلامى الكبير . .

من الأولى عرفوا حقهم ، ولم تراودهم عنه شبهة : سعيد بن قيس ، أحد أصفياء على . . جاء يحمل إلى الحكمين ضيق الناس بإبطائهما المريب ، ولا يكتمهما إيمانه بحق إمامه ، وتحرقه إلى بلوغه وإن على طريق تفرشه العواسج ، وتحده الأسنة ، وتظله السيوف . . قال :

« أيها الرجلان ! . . إنى أراكما أبطأتما بهذا الأمر حتى أيس القوم . . فإن كنتما قد اجتمعتما على خير ، فأظهراه نسمعه ونشهد عليه . وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب . . »

وعدى بن حاتم أيضا ضاق بهما ، وكان أشد عليهما من زميله . . طالعهما غير مداور ولا مجامل ، برأيه سافرا ، ظاهرا ، بادى الخشونة والتسعر كما انتفضت ، عن جمرة متقدة غبرة الرماد . . قال :

« أما والله إنك يا عمرو لغير مأمون الغناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا . فوالله ما لكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر ! . . »

فأى المشاعر والانفعالات أثارت هذه الأحاديث وأمثالها فى نفس الحكمين ، وبأى كلام تحركت شفاههما جوابا على ما انتقل إلى سمعيهما من تململ الجمهور ؟ . .

الأشعرى كان أظهر برما ، وأشد دفعة ، وأعجل من رفيق حكومته الماكر الختال إلى الرد المتهور الذى يكشف السريرة . فلم يكد يسمع حتى تغير وجهه ، وبان السأم فى ملامحه ، ثم طوح بيديه ملالة وهو يهتف ، فى أنفة البرم المنكر ، وصلف الواثق المدل بمقداره ، المزدرى رأى ناقديه :

« كفوا عنا ، فإنما نقول فيما بقى ، ولسنا نقول فيما مضى » .

فكان جوابه أشبه شىء بخيال انعكس من أمسه القريب الذاهب على مرآة يومه المقبل الجديد . كان — فى الحق — رأيا أخلق به ، وأدنى إلى مزاجه . ولعل عبارة لم تفصح قط عن دخيلة صاحبها ، ولا كشفت من رأيه الخبىء المستتر

ما كشفت هذه العبارة من رأى الشيخ وهو يقولها إذ ذاك بلهجة إدلال لا بمنطق تدليل ! . .

فهل هى زلة لسان ؟ . .

هل هى خطرة سجية ، ودفعة ولا روية ؟ . .

عن وعى منه ، أو عفو الخاطر ، حسر الرجل اللثام عن دوره فى التحكيم — كما يرتأيه — فإذا هو يجاوز به ما ندب له ، ويخالف فيه ما اجتمعت عليه أفهام حزبه ، وشطحت إليه أحداس معارضيه ! . . لكأنه شاء أن يدع أمس ويعرض لغد . أن يغفل ما كان ويعدل عنه إلى ما يريد أن يكون . أن ينأى بنظره وفكره عن الخلاف الذى شجر بين على ومعاوية وهو — بغير جدال — لب القضية التى يتقاضى عليها اليوم ، فى رحابه ورحاب زميله ، ذانك الزعيمان ومن وراءهما من أبناء الأمة الإسلامية الذين وقع بأسهم بينهم شديدا ، دفاعا عن الوحدة ، أو تطلعا إلى السلطان . .

وعلى سنن الأشعرى ، أو فى سبيل قريب ، سار آخر من رجال الإمام ، قد طوح به حب الحياة ، والشغف بالجاه ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار حتى لأوشك — وهو من قادة العراق — أن يكون ذيلا لأهل الشام ! . على نفس هذا السنن الملتوى الدوار كان انطلاق الأشعث بن قيس ، والحكمان عندئذ يتشاوران أو يتداوران . . فلقد أقبل عليهما ، واللهفة تأكله ، والخشية على السلم — وليده الشائه الذى أنجبته له المزاوجة بين الوهن والخيانة — تكاد تتخطف ثباته واتزانه ، فقال :

« يا هذان ! إنا قد كرهنا هذه الحرب فلا ترداها إلينا . . إنها مرة الرضاع والفطام ، فكفاها بما شئتما . . »

بما شاءا ! . .

بأى ثمن ! . .

بالوسيلة التى تحفظ الدم ، وتمسك العظم على العظم ، وتقتل المثل والقيم ! تقيم السلام على استسلام . تكف الحرب على ما يشتهى داعية التخاذل الأول يوم صفين حين آثر الارتداد عن ولائه وأعلام النصر تخفق إذ ذاك على معسكر الإمام ، كما آثر ، عقيب موت الرسول ، الارتداد عن الإسلام ! . .

٢

جاوز الحكمان كل معالم الحدود التي رسمتها ظنون الأعداء وأماني الأصفياء .

أبو موسى الأشعري طفرت به « غفلته » — أم هي فكرته ؟ — بعيدا بعيدا عن مواطن الثقة ، غائرا غائرا في مهاوى التشكك فيه !

عندما خرج للحكومة تصايحت فئة له ، إيمانا به ، أو اطمئنانا إلى حكمته . . وتصايحت فئة عليه ، ريبة فيه ، وتوجسا منه . ولكنه أتاهما من بعد جميعا — بخلاف كل منتظر — بأقصى نقائض الإيمان ، وأدنى مناقص الشكوك . .

قيل له :

« . . اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده . . . إنك إن أضعت العراق فلا عراق ، فاتق الله . . . . وإذا لقيت عمرا فلا تبدأه بالسلام فإنها — وإن كانت سنة — إلا أنه ليس من أهلها . ولا تعطه يدك فإنها أمانة . وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة . ولا تلقه وحده ، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود . »

فسمع بأذن ، ولفظ بأخرى ، وآثر المحذور المحظور ! . .

وقيل عنه :

« . . لقد تعجلت رجال مساءتنا في أبي موسى ، وطعنوا عليه بسوء الظن ، وما الله عاصمه منه . . »

فلم ينصف دفاعهم عنه ، بل اعتصم منه بسوء الظن ، وظاهر — بفعله — كل طاعن عليه ، مستريب فيه . .

* * *

وعمرو بن العاص طفا في لجيج خبثه على قمة الخدع والأباطيل ، تطفو الزبد والنفاية ، حتى بلغ في انحرافه عن الجادة أبعد ما رجت له أحلام أصحابه ، وعما خشيت منه مخاوف مناوئيه . .

قيل له :

« . . إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك . . وإنك لن

تؤتى من عجز ولا مكيدة ، فكن عند ظننا بك . . »

فأتى من المكر بما أعيي المكر ! . .

وقيل عنه :

« . . إن عمرا ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى ! . . »

وكان له ، بلا جدال ، هوى وأهواء . فى سطوة فى إمرة . فى دنيا تعود عليه بسلطان أمسه الذى تركه هناك ، ذات يوم مضى ، إلى جانب النيل على ثرى الوادى الأخضر .. السنون السوالف لم تنسه جاهه الذاهب، ولا تخلت عليه بحلمه الحلو الذى ظل طويلا يخالط صحوه ونومه ، شهرا شهرا،يوما يوما،ساعة ساعة . .

حتى والمنايا تتربص به ، وتوشك أن تسد عليه مسالك النجاة فى عنفوان الصراع بصفين ، برقت له مصر فى خياله كما يبرق الشهاب الهاوى فى الليل الأسحم .. عندئذ استضاءت على البرق ألمعيته التى أخمدها، إلى حين ، غبار الهزيمة ، وتوهجت جمرتها ، واشتعلت تلهب نفسه بسورة كأنها الحميا تهيج المخمور . فما أسرع ما اندفع، غير وان ، على بقايا القيم المشروعة لينتزع حياة رخيصة كالتراب ، كريهة كالصاب ، من أنياب الموت . . بالحيلة انتزعها . باللعبة الغادرة . بهذا التحكيم الذى مده حبالة محبوكة الخيوط ، دقيقة النسيج ، صادت العقول المخدوعة . .

ولم ينس أبدا ذاته وهو يحاور رفيقه فى قضية الخلاف . . مرات عدة حام بحديثه حول نفسه ، وحول ابنه ، وحول أيما امرىء شام فى استخلافه تحقيق أطماعه الطويلة العريضة . . بل قد حاول ذات مرة أن يرشد أبا موسى على الرأى، إحساسا منه — فى أعماقه — بأن لكل رأى ثمنا ، وأن المعنويات — كالماديات — توزن أيضا بالدرهم وتشترى بالدينار ! . .

فياترى تجنى ؟ . .

على طبعه لم يفعل !.. إنما كان وفيا لنفسه الوفاء الذى يدفعه دائما إلى امتثال رأيها، واحتذاء نزعها — بالشبر وبالفتر — كأنه يسير إلى آرابها على صراط ! . .

وإذا كان قد راود الأشعرى عن ولائه للقضية ، فإنما مراودته صدى خليقته ، وظل شيمه وسجاياه . فالإناء ينضح بما فيه . والمرء يقيس الأمور بمعاييره الخاصة ثم يحسب الناس وإياه فى الهوى سواء ! ..

هكذا كان . وهكذا انطلق بصاحب مفاوضته يلف ويدور فى تيه من الأمانى والفروض . حتى إذا حسب أنه أعياه رأيا وحيلة ، قذفه باسم سيده ، رفيق خدعته : معاوية ، أميرا للمؤمنين . .

معاوية ؟ . .

لم لا وبيته فى قريش رفيع ، وهو أحد الصحابة ، وأخته أم حبيبة ؟ . .

وبدا الأشعرى هنيهة كالحائر . .

وراح عمرو يشد عليه ، ويوسوس له :

« . . إنه إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . . »

عندئذ أصابت دعوة الغدر المثمن ضمير الشيخ بوخزة موجعة فانبعث مغضبا يجيب :

« والله لو خرج لى من سلطانه ما وليته ، ولا كنت أرتشى فى الله . . »

فلمن هذه الغضبة الهادرة ، وفيم الإباء ؟ . .

لغير على بطبيعة الحال ! . . لا للوفاء ولا للولاء . بعيدا بعيدا عن النية السليمة ، والطوية الخالصة المستقيمة التى من أجلها اختاره أهل العراق ليكون وكيلهم ، صاحب رأيهم ، الذائد عن قضيتهم ، وإنها فى رأى الواقع لقضية التمرد على الإمام والخروج على النظام العام .

لغير هـذا كله صاح الأشعرى فى وجه ابن العاص ، تلك الليلة من ليالى التحكيم ، نافضا تلويحه بالسلطان ومخايلته إياه بالجاه . أم لا فكيف نفهم تصرفه وهو يتبع ثورته الغاضبة بآخر ما كان ينتظر من وكيل أمين ؟ . .

لا يلبث قليلا على استنكار الرشوة المعروضة حتى تهدأ نفسه ، ويخرج طائعا مما ندب له وجاء فيه ليعرض من لدنه بضاعة جديدة ! . . بلا تحرز ، ولا شعور بتبعة نحو أهون ما يطالب من مبعوث مثله من أمانة العرض والأداء — دع عنك واجب الدفاع — نسمعه يردف إباءه بشر استخذاء . . يقول :

« . . إن شئت ، أحيينا سنة عمر بن الخطاب . . »

فإذا لم تكن عبارته هذه تنكرا للمبدأ ، ونقضا للولاء ، وخيانة خبيثة فاحشة

للذين أوفدوه ، فعلى أية صورة من الصور يمكن أن يصاغ النكث أو تصور الخيانات ؟ . .

لكأنى بالأشعرى عندئذ قد لبس إهابه ، ورد على نفسه ثيابه كيوم تخذيله فى الكوفة عن الإمام . . لكأنما عاد ثانية لأمسه يثبط عن نصرة على ، ويجمد فى أفئدة المسلمين ، وفوق شفاههم ، وبين قبضات أيديهم ما كان حقا عليه أن يرسله من طاعة لولى أمرهم الشرعى تتمثل فى خفق القلوب بالولاء ، وهتاف الألسنة بالدعوة وبالدعاء ، واهتزاز الكفوف بالسيوف تحش عدوه كحش المناجل السنابل ! . .

بل كان أشد على أمير المؤمنين هذه المرة وأعق . لم يعتزله . ولا وقف منه موقف حيدة . ولا حث القوم حوله على التلبث والريث حتى تتكشف لهم غوامض الأمور وتتبدى ، من خلال الأحداث المتلاحقة كموج البحر فى اليوم العاصف ، لحات آية تهديهم سبيلا إلى تأييد على ، أو اعتزاله ، أو قتاله . . . إنما بسط ما طوت الشهور السوالف من كفره بحق الإمام فى الإمرة ، ثم انطلق قدما ، مشدود العزم ، ثابت الخطو ، على درب خطيئته ، لعله يبلغ الآن ما فاته بلوغه منذ حين . .

بالنية المعقودة لا بالهفوة العارضة ، وبالإصرار ، عن اختيار ، وقف الأشعرى موقفه وما هو فى الواقع بملوم حين تقاس النتائج بعللها ، وترد الفروع إلى أصولها ، وينظر من خلال الطبائع الفطرية والسلائق الأولية إلى الأعمال والأقوال . فنفس وما تهوى ، ونفس وما تميل . . إن نظرك ليقع على امرىء فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا النفور منه والميل عنه . وإن نظرك ليقع على آخر فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا الإقبال عليه والميل إليه ، ثم لا تدرى ، فى كلتا حالتيك هاتين ، أى دافع دفعك إلى شعورين متباينين هما نقيض ونقيض . .

ومع ذلك فليس طيش العاطفة وحده ما طوح بالحكم الشيخ إلى أقصى نهاية اليسار سمعنا به فى النأى عن نصرة موكليه ، خائنا أمانتهم ، ناقضا عهدهم الذى عليه عاقدوه . من النصفة له أن نقول إنهم أخطأوا الخطأ كله فى حقه وفى حق أنفسهم على السواء . . أخطأوا فى حقه وهم يحملونه من أمرهم ما هو غير أهل

لحمله غير كفء للنهوض به . وأخطأوا فى حق أنفسهم وهم يدركون طبعه ويعرفون غابره ثم يكادون يلمسون لمس الحس — فى لحظة بعثه للحكومة — ما يقطع الشك باليقين ويومئ بالشواهد الناطقة والأدلة المبينة أنه خليق بخذلانهم والانتقاض على قضيتهم انتقاض الصابئ المرتد عن عقيدة أكره على اعتناقها ولما يجاوز إيمانه بها حدود شفتيه ! . . فلقد كان لأبى موسى فيمن جانبوا فريق الإمام ومعاوية ، واعتزلوا محنة الجماعة الإسلامية آنذاك ، رأى معلوم يظاهرهم ، ويضع الحق كله فى جانبهم ، ثم لا يدع لسواهم إلا الباطل والشر والخطيئة . . فى تثبيطه بالكوفة دليل . وفى قعوده عن على دليل . وفى أحاديثه المرسلة هنا وهناك ، قبيل اجتماعه بعد التحكيم — مرة مع الأحنف ، وثانية مع المغيرة ، وأخريات مع عدى وشريح وأضرابهما من فريق العراق — دليل ودليل ودليل ! . .

لا نلوم الشيخ الأشعرى ، حين نحاسبه كصاحب رأى ، وإنما نلومه ونؤنبه إذ هو وكيل . فعلى رأيه ثبت وأقام الأيام تلو الأيام . ومن أجل إنفاذ هذا الرأى ذهب إلى أبعد الحدود حتى هانت عنده الأمانة فخان . وفى سبيله ضحى بفرصة العمر فأبى الرشوة وكانت حرية أن تجيئه بصولجان ! . .

أفكان حقا ذا غفلة ؟ . .

كلا ، ما كان ، إنما الذين عيروه بالغفلة من قبل ومن بعد كانت الغفلة بهم ألصق وأليق ، لأنهم أغفلوا أمسه وحاضره ، ولم يبالوا مشاعره ، واعين أو مخدوعين . .

٣

طاش ، فيما أحسب ، تقدير عمرو بن العاص حين استخلص لنفسه سانحة ظفر ذاتى من حديث الأشعرى الشيخ . . ظنه ، وهو يرشح عبد الله بن عمر للخلافة ، إنما صدر فى ترشيحه عن ميل له ، أو لعمر ، أو لكليهما لله فى غلالة من تقوى الابن قد تبهر أبصار الناس إن لم يعطفهم إلى تأييده ذكر ابن الخطاب . . لكأنى ببسمة خابية اللون رفت عندئذ على شفتى الداهية ، عن طمأنينة ، حتى لقد

أوشك أن يفرك كفيه ، ويبهج شدقيه ، ويهتز فرحا وهو يعقب على رأى نده بلهجة من ذلت الحجة له ودان فصل الخطاب . .

قال عمرو :

« . . إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فما يمنعك من ابنى عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ . . »

فجبهه الشيخ بالجواب الحاضر الذى لم يغير من خلاصة مغزاه ، وإن غير من مبناه ، دوران الأيام :

« إن ابنك لرجل صدق ، ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة » .

وهوت على الأثر فرصة ابن العاص ! . .

هوت فرصة الظفر الذاتى التى صورها وهمه، وجسدتها أمانيه، بهذا الجواب الثابت الهادىء الرصين فإذا هو قد ابتعد به تدبيره وتقديره عن المألوف المعروف من ذكائه ودهائه بقدر ما أبعد الأشعرى عن الشائع الذائع من غفلته وغرته !..

إنها لعثرة لابن العاص تضاف إلى عثرات دهائه، وتظهر — فى حساب مكره — عليه ! . . ثانية عثرتين فى يوم واحد ! فى جلسة ! فى نقاش قصير لم يكد يمتد إلا سويعة من زمان غفل خلالها الغريم الداهية عن حقيقة الغريم الساذج الذى طالما تبدى — له وللناس — فى هيئة غر تلعب به براعة اللفظ فتوقع به براعة الحيلة . .

هذه المرة الحاضرة : لم يستطع بصر عمرو أن يخترق على الأشعرى جلد بلهه ليكشف خلفه عن صاحب فكرة قرت دائما فى ضميره قرار الإيمان فعقد العزم ، منذ زمان، على نصرتها، وإن هو ضحى لها ، من قبل ومن بعد ، بالسطوة والسمعة ، واكتوى فى سبيلها بالزراية والامتهان بل بالتحريم والتأثيم . . .

وتلك المرة السالفة : غاب عنه من طبيعة أبى موسى أنه صاحب تقوى ترهف فيه من الحساسية الدينية والتحرج النفسى ما يشحذ ذهنه ، ويوشك أن يميل به عن تقبل المتاع والعروض المألوفة، فما بالك بالرضائخ الصارخة المفضوحة والرشا المزفوفة المكشوفة ! ؟ . .

* * *

ومع ذلك فليس عمرو وحده من كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن المحظور الممنوع مقبول مشروع ! . . عبد الله بن الزبير — على ما عرف من تقواه وروعه — لف أيضا لف ابن العاص فى هذه الناحية ، وكان يؤثر ، حين الحاجة ، الوسائل الملتوية على النهوج المستوية ما دام الانحراف ينتهى إلى الغاية . . فلم يكد إغراء عمرو ، وتلويحه بتلك الرشوة ، يصك سمعه ، حتى مشى — بمكر الثعلب الختال — إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يوسوس له ، ويدفعه إلى القبول :

« اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه ! . . »

فلصالح من هذه الوسوسة الملبسة بالإرشاء ؟ . .

ليس ابتغاء وجه الإنصاف بطبيعة الحال ! .. لا للقضية ، ولا للأمة ، ولا لابن عمر نفسه كانت هذه النصيحة الزبيرية التى تطوع بها صاحبها آنذاك وأنه لأول عالم أنها دعوة لا تجد صدى فى نفس المرشح لها ، وخدعة لا تجوز على المدعو إليها ، ورأى إن وجد له مكانا فى عداد الآراء فإنه موقع الذيل المبتور الذى تهمد حركته ، وتثبت سكنته ، وتخرس نأمته إذا ما جاشت بالحلول المرتقبة لأزمة الحكم مكامن الخواطر ومقار الأفكار . . .

ومع ذلك قال . .

أفكان هدفه ومرماه أن ينأى بقضية على إلى غير المسلك الطبيعى الذى وجب أن تسلكه وتمضى فيه ، انحرافا براعيها ، الناضح عنها ، إلى مايخالف ماندب له ، وتثبيتا له على رأيه المشبه الخبيط ؟ . . ليوشك الأمر هكذا أن يكون ففى طبيعة ابن الزبير ختل ثعلب يدفع به إلى تجنب المصارحة ، وإلى التزام المسالك الخلفية ، والدروب التحتية ، بلوغا إلى ما يريد . . وفى ماضيه أيضا سلوك ، شهده الجمل ، وقاسته البصرة ، ينضح الآن بأن قصاراه ، فى سره ونجواه ، أن يكون ذهاب ريح الإمام مسك الختام ! . .

أم لا فكانت ياترى عاطفته « الحجازية » هى التى أملت عليه حث ابن عمر على ركوب ما يكره ، أو ما تصدف عنه فطرته ، بغية العود بالخلافة — فى شخص هذا العازف الصادف — إلى أرضها الأصلية : الحجاز ، وإلى حاضرتها الأولى : مدينة الرسول ؟ . .

فى هذه التملة ، بغير تحرج ، شطر الجواب . . كثيرون ارتأوا آنذاك ، وإلى اليوم يرتأى أكثرون ، أن عصبية البيئة — إلى جوار الطموح — كانت دائما تدفع خطوات الثعاب إلى امتطاء أمداد المغامرات سعيا للحكم من أقصر سبله ، أو تدبيرا — فى القليل — لتقريب أوان هذا الحكم بتقريب قاعدته من متناول براثنه وأنيابه . وما كان شىء يدنيه إليه ، بطبيعة الحال ، مثل غدوه بقلب قطر ، وبين ظهرانى أمة ظلت تتطلع — منذ انسلاخه عن المدينة فى مستهل عهد على — إلى لمحات برق فى سماء الأحداث قد تصحبها ، حين فرصة موانية ، صاعقة واهمة، خليقة بأن تنقض على هيكل البناء السياسى القائم لتقضى على « اغتراب » الخلافة : مشرقة فى بلاد العراق أو شاملة فى أرض الشام . .

وكان ابن الزبير واحدا من أوائل أولئك الذين عاشت فى أمانيهم هذه اللمحات ، ثم غدا هو نفسه ، على الأيام ، الشرارة الباعثة للصاعقة المرتقبة ! . .

كان ثم غدا ، إذ سبقته ، وتلته إلى الأمنية ، صفوف .

فما ننسى كيف أن الأنصار ، حين تبينوا عزم الإمام على الخروج إلى الكوفة ، عندما فاءت الإمرة إليه ، قد أشفقوا أن ينسلخ سلطان الإسلام من مهده ليعيش كالغريب المشرد فى غير موطنه ، بديار لم تشهد مولده ، ولم تتعهد عوده ، وبين أقوام لم يتمرسوا برعايته وافتدائه التمرس الذى يرفعهم إلى مستوى من الحرص عليه كمستوى الذين عاصروه سنوات محنه وأزماته ، وبوأوه فوق الأرواح . .

إن منهم من سعى إليه بالإغراء ، يحثه على البقاء :

« . . يا أمير المؤمنين . . إن الذى يفوتك من الصلاة فى مسجد الرسول ، والسعى بين قبره ومنبره ، أعظم مما ترجوه من العراق . . » .

وإن منهم من شق عليه خروجه من المدينة ، وإن لكفاح متمردة طلحة وعائشة والزبير ، فحاول رده عن مسيره ، بالتحذير والرجاء :

« . . لا تخرج منها . . لا تخرج ! . . فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا » .

ما ننسى أيضا أن بؤرة المعارضة للدولة الأموية ، صدر نشأتها ، كانت دائما تتركز فى الحجاز ، وتجد أنصارها بين أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين اتخذوه

عند ذلك ملاذا ، يأبون أن يعدلوا غيرة به طوال حكم معاوية ، ومفتتح ولاية ولده يزيد . . .

أن منهم من وقف ثائرا فى وجه مروان حين أرادهم معاوية على البيعة لابنه ، يصيح به :

« تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ! » .

وإن منهم من ود لو حال بين الحسين وبين الخروج إلى الكوفة ليتخذها مستقرا لدعوته ، وموثبا على الحكم الأموى بالشام . ودوا لو حالوا بينه وبين منتجعه الجديد وفى أخلادهم الضياع والهلكة والاسترقاق قرين ذلك الخروج :

« . . الزم الحرم فإنك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى إليك الناس من كل جانب . . لا تفارق الحرم ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك ! . . »

بل ابن الزبير نفسه قد لاذ بالبيت لا يفارقه وهو يعصى دولة الأمويين ويكتوى من بأسها نظير عصيانه . ثم قد لاذ بالحجاز لا يرضى فراقه وهو يكاد يظهر عليهم ، وتأتيه من قائد جيوشهم مصالحة على البيعة له . .

نادى ابن الزبير عندئذ على جيش يزيد :

« علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ . . »

فالتقى به بعدها الحصين بن نمير ، قائد الماهل المالك ، يعرض عليه :

« أنت أحق بهذا الأمر .. هلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . . »

لكنه أبى :

« لست فاعلا ، وأكره الخروج من مكة . . ولكن بايعوا لى هنا ، فإنى مؤمنكم ، وعادل فيكم . . »

أجل ، إنها لعاطفته الحجازية ، من قبل ومن بعد ، التى حركت لسانه إبان التحكيم ، كما حركته عقب الحسرة وهو يوشك أن يقبض ببراثنه وأنيابه على صولجان السلطان . . وإنها أيضا لطبيعة الثعلب الرواغ فيه قد دفعته إلى الوسوسة لابن عمر ليرشو ابن العاص عسى أن تعود الرشوة بقاعدة الحكم إلى مكان ،

وبين ظهرانى أمة من الناس ، تجعل كليهما فى متناول البراثن والأنياب حين يحين الحين ، وتتهيأ الظروف والأسباب ! . .

غير أن ابن عمر فوت على الثعلب غرضه :

« لا والله ما أرشو عليها أبدا ، ما عشت » .

ولم يكفه هذا الردع ، بل انطلق أيضا إلى ابن العاص يحذره مغبة شرارة يوشك أن يقدحها فتتسعر نارا مدمرة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، بل تصيب الجماعة الإسلامية كافة : الغائب والحاضر ، البرىء والمسىء ، البر والفاجر إلى أجيـال . . .

قال :

« ويلك يا ابن العاص !.. إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتطاعنت بالرماح ، فلا تردهم فى فتنة ، واتق الله . . » .

* * *

. . . وليس عمرو وحده من أخطأ فهم ماهية العوامل التى سيطرت على الأشعرى إبان التحكيم ، ودفعت به إلى موقفه المعلوم . . . عبد الله بن عمر نفسه أخطأ الفهم ، وحمله الوهم على الاعتقاد بأن الأشعرى رشحه لمقعد على ، تقربا وزلفى من وجه ، وإيثارا وتفضيلا من وجه آخر . . وقد عبر ابن عمر عن خاطريه هذين فى كتاب بعث به بعد حين إلى الشيخ ، كان مما فيه :

« . . إنك تقربت إلى بأمر لم تعلم هواى فيه . . أكنت تظن أنى أبسط يدا إلى أمر نهانى عنه عمر ؟.. أو كنت ترانى أتقدم على على وهو خير منى ؟ .» .

ليس عمرو وحده ، ولا ابن عمر ، ولا غيرهما ممن جروا آنذاك هذا المجرى فى فهم أبى موسى أصابوا النظرة وأحسنوا الحساب . جم كثير أخطأوا الخطأ نفسه . أضلهم وهمهم عن بواعث الشيخ . خدعهم منه مظهر سذاجته عن تعمق دخيلته واكتناه حقيقة تقديره للمشكل حتى صدمهم من لدنه الحل الذى طالعهم به فى التحكيم على ذلك النحو الغريب المريب . . . إلى اليوم أيضا ، وعلى امتداد القرون الطويلة ، يحسب الناس الأشعرى فريسة خدعة أعدها دهاء ابن العاص واستدرجه إليها ، وهو غافل ، بالملق والحيلة حتى أوقعه فيها كما تستدرج وحش الغاب إلى حفرة أخفتها الأعشاب ! . .

لكن الأشعرى لم يكن قط ذلك المغفل الأبله الذى يثير السخرية والرثاء . فى حسبانى أنه لعب دور الخادع وهو يلبس ثوب المخدوع . بمهارة لعب دوره ، وبقدرة خارقة على الأداء لم تخنه ولم تتعثر به منذ البدء إلى لحظة إسدال الستارة على الرواية الحزينة . . ولقد أسفر ، فى نتيجة التحكيم ، عن الرأى الذى اعتنقه فإذا هو الرأى الأليق بما أومأت إليه أقواله وأفعاله ، حركاته وسكناته ، دائما دائما قبل التحكيم ، من بعيد ومن قريب ، وإن استقبله بالعجب فريق ، وبالأسف فريق ، وبالإنكار فريق ، وانطمست بين تباين هذه العواطف ملامح المثير الأصيل للرأى المنكود ثم ظلت إلى اليوم مطموسة عن عين كل ناقد لموقف الشيخ ، متناول محنة التحكيم بالاستقراء ، مقابل ظروفها وصروفها بالتحليل أو بالتعليل . .

كالأعشاب التى تخدع الوحش عن الحفرة ظل باعث أبى موسى ، الذى أفهمه حكمه ، خافيا على الناس ، آنا وراء غفلة الأشعرى ، ودائما وراء خدعة ابن العاص . ومع ذلك فكلتا العلتين مغلولة ، وكلا الرجلين مظلوم . وإذا لم يكن بد من تقويم سلوك الأشعرى فلا ضير عليه فى حساب الرأى لا فى حساب الأمانة . فالأمانة هاهنا تضعه بمنزلة خائن ، أما الرأى فيبوئه مكانة شهيد ! . .

أبو موسى كان مؤمنا أشد الإيمان بجدوى العزلة ، راغبا كل الرغبة عن ممالأة أى طرفى الخلاف ، عاملا غاية قصاراه ، لحمل الناس على رأيه ، اليوم كأمس ، وحين قدرته تكين عجزه وتقطع الوسائل به دون بلوغ مأربه المنشود . . ولقد ظل أبدا ثابتا عند رأيه لا يحيد وإن تنقلت نظرات معاصريه إلى موقفه فى مراتب المخالفة والزراية من هبوط إلى علو ومن علو إلى هبوط ، وتذبذبت آراؤهم فيه بمدارج النعوت من الضعف ، إلى الغفلة ، إلى الخيانة . . ظل هكذا وليس من معاصريه ، ولا تابعيهم ، ولا اللاحقين بأولئك وهؤلاء انحدارا مع الزمن إلى هذا الجيل من رد حكم الشيخ إلى منبعه الأول : الإيمان . .

وأى إيمان ! . .

إيمان الذى يرنو بعينيه فى خضمة الليل على خفقة فتيلة ذابلة ثم يحسب أنه وحده يبصر ما لا تدرك النواظر السابحة إلى مراميها على أفياض النور . . . إيمان النعامة الحمقاء بأن لا خطر هنا ولا خطر هناك لأنها لوت رقبتها عن مواطن الخطر

ومواقعه ، ودفنت رأسها الفارغ فى ثنايا الرمال ... إيمان جاهل ، ضيق الأفق ، قريب القاع كإيمان فئة القراء ومعتزلة حروراء سواء بسواء . .

قشرة إيمان ! . .

ليوشك المرء أن يتهم الأشعرى فى هذا المقام أى اتهام إلا أن يلصق به أنه اغتر بأخاديع عمرو ، إذ أنه صدر فى حكمه الجائر العاثر عن عدوى من الرأى أعداه بها سواه وليس عن اقتناع ذاتى وإيمان — أى إيمان .. ولئن كانت صحائف التاريخ تكاد تمتلئ بغير هذا فالتاريخ هاهنا مطفف ، كال ابن العاص فطفف له الكيل ، ووزن أبا موسى فأخسر الميزان ! . . وبحسبنا أن ثمة سطورا وكلمات يستطيع من شاء أن يلتقطها فإذا هى معول يسعه أن يهدم به ، فى غير عناء ، تلك الخرافة الثنائية التى اقترنت فيها غفلة الأشعرى بمكر عمرو وظن أنها مفتاح نتيجة التحكيم . .

عن اقتناع ذاتى ، بلا ريب ، وإيمان كتب أبو موسى إلى ابن عمر — إذ لامه على ترشيحه إياه للخلافة — يقول :

« . . . وإنى والله ما أردت بتوليتى إياك . . . . ربيعى لك ، القربة إليك . . . ما أردت بذلك إلا الله . . »

وعن اقتناع ذاتى ، بلا ريب ، وإيمان كان أيضا جوابه إلى ابن أبى سفيان بعد التحكيم ، حين حسب عاهل الشام أنه يستطيع استمالة الشيخ إلى جانبه ، واستفاءته إلى ظله ، فبعث إليه يدعوه أن يقيم لدنه ، ويقول فى الكتاب :

« . . أما بعد ، فاكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام فإنى خير لك من على . . »

عندئذ أجاب :

« . . . إنه لم يكن منى فى على إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردت بما صنعت وجه الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك . . »

عن اقتناع ذاتى بجدوى سلوكه ، وصحة فعله ، كان تصرف أبى موسى ثم كان حكمه الذى أدلى به على ملأ الناس بعد اجتماعات التحكيم . . اقتناع بفكرة قرت فى نفسه كالعقيدة ، ورسخت رسوخ الإيمان . . وهل كانت مواقف القراء ومعتزلة حروراء التى أصابت الأمة الإسلامية بأقسى النكسات إلا صادرة عن نوع كهذا من أنواع الإيمان ؟

٤

جرت قصة التحكيم ، فيما أرى ، على سنن واضح مرسوم لكلا الحكمين دون محاولة من الأشعرى لإقناع عمرو ، ولا مكايدة من عمرو لطى الأشعرى .. والمحاولات الكثيرة التى توالت طوال المناقشة لم تقترب بأى الرجلين من الغرض الذى عرف الناس أنهما تداعيا إليه وجاءا فيه حسبما نصت وثيقة التحكيم .

كلا الرجلين لم يدانيا لب القضية التى أقبلا للحكم فيها وهى : قضية الخلاف بين معاوية وعلى ، أو قضية تنكر عامل من عمال الدولة لواجب الولاء لهذه الدولة بتمرده على ولى الأمر الشرعى . . كلاهما أغفلا ماندبا له ، وراحا يحومان حول جزيئات لا سبيل معها إلى بلوغ الغاية من التحكيم بل — فى نظر الحق — هى السبيل إلى البعد عن هذه الغاية المرتجاة والإمعان بهما ، وبالأمة وراءهما ، فى تيه من خلاف جديد .

ومع ذلك فقد مضيا على سنن مرسوم . . عمرو بن العاص يداور ويطاول ، ويعط فى مدة النقاش إفساحا للوقت أمام صاحبه معاوية حتى يلعق جراحه النازفة فى صفين ، ثم يعيد تنظيم جيشه ، ويكتب كتائبه ، ويعد نفسه — هذه المرة — إعدادا أمثل يكون به فى غد أقدر منه بالأمس على لقاء غريمه العنيد ... وأبو موسى الأشعرى يتأنى ويتمهل ، ويصابر الحديث الجارى حتى تحين له ثغرة فيه ينفذ منها إلى تحقيق رأيه ، الذى ملأ ضميره ، وملك عليه تفكيره وتدبيره ، وإنه — فى حسبانه — للرأى الذى لا رأى بعده لحل هذه الأزمة الطاحنة من أهون سبيل . وهل شىء أهون عليه وأدنى إليه من كلمة يلفظها تجرد ابن أبى طالب من سلطانه فتوصد أبواب الحرب والعداء وتفتح أبواب السلام والصفاء ؟ . .

لقد شاء ابن العاص — مكرا وخديعة — أن يختار لنفسه أسلوب حديث يجتذب به ثقة الأشعرى ، ليستلب إرادته ، ويجعل منه أداة طيعة فى يديه ، فعمد إلى الثناء ، واللفظ الناعم ، وحركات الانحناء . . كان يقدم الشيخ . إعطاء صدر المجلس ، وإمامة الصلاة ، وبدء الكلام والطعام . وكان يدعوه بأحسن النعوت ، ويخاطبه بأجمل الأسماء . . لكنها كلها وسائل جرت إلى غير طائل ، لأنها لم تأته

بجديد غير ما أضمر أبو موسى وطوى عليه دخيلته وعقد عزمه قبل أول اجتماع ..

على هذا النهج سار الحكمان ..

يبدأ عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنك صحبت رسول الله قبلي ، وأنت أكبر مني سنا ، فتكلم أنت ثم أتكلم أنا » .

ويبدأ أبو موسى فيقول :

« يا عمرو ، هل لك في أمر هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضا ؟ .. »

« نعم ، يا صاحب رسول الله » .

« نولي هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ، ولا في هذه الفرقة » .

ويقول عمرو :

« فأين أنت عن معاوية ؟ .. »

فيرمقه الأشعري بنظره إباء ، ويلوى عنه [illegible]ره وعينيه ..

ويمضى الحديث سجالا بين الرجلين . هينا حينا . فاترا أحيانا عديدة . أحدهما يحاور ويداور وهو لا يكف أبدا عن إبداء الرقة مقرونة بالتوقير في اللفظ والإشارة . والثاني يصارح ويكاشف وهو لايدع كلمة تند عن شفتيه إلا تحمل رأيه ، واضحا بلا غموض ، عاريا بلا غطاء من شعار أو دثار ! .. ولقد حرص عمرو ، دائما ، على أن يوغل بنقاشه نأيا عن موضوع الخلاف الذي جاءا ليقضيا فيه . ولكن نظيره — وإن مضى معه شوطا في الحديث — كان لا يلبث أن يرتد إلى نقطة البدء من جديد .. ولقد حرص أبو موسى ، دائما ، على أن يثبت على رأيه ، ويشد نظيره معه إلى هذا الرأى ما وسعته إلى ذلك عبارة . ومن هنا كانت المفاوضة بينهما كلاما مرسلا واستطرادا لا يحددها إطار . فلم تخل من معاودة وتكرار إن لم تكن كلها تكرارا وإعادة لبضع جمل تتغير فيها الألفاظ ولا يتغير المفهوم .. كانت كأنها قطعة مطاط ، تدور بين الأشداق ، يمضغانها ولكن لايبلعانها لأنها عصية على الابتلاع ! ..

ويداهن عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام ، لغضبك لعثمان ، وبغضك للفرقة » .

ثم لعله يتمهل هنيهة يرقب فى أثنائها أثر كلامك على وجه صاحبه ، حتى إذا اطمأن أو استشعر ظل طمأنينة أكمل يقول :

« . . وقد عرفت حال معاوية فى قريش ، وشرفه فى عبد مناف ، فما ترى ؟ . . »

فيوافقه الشيخ :

« أرى خيرا . . »

ثم لعله يتمهل هو الآخر هنيهة يستجمع فيها شوارد منطقة يستأنف بعدها الحديث :

« . . أما ثقة أهل الشام بى فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع على ؟ . .
وأما غضبى لعثمان فلو شهدته لنصرته . . وأما بغضى للفتن فقبح الله الفتن . .
وأما معاوية فليس بأشرف من على . . »

فينقطع الحوار ! . .

وكرة أخرى يرتد الرجلان إلى البداية . إلى قطعة المطاط التى تمضغ ولا تبلع ، يلوكانها بين أشداقهما من جديد .

. . ويدور ابن العاص فى مرة بالحديث دورة ذات التواء وانثناء ، حتى إذا رأى أنه قد بلغ من أحداث الماضى نقطة تصلح للانطلاق الظافر أسرع يواجه الأشعرى بسؤال :

« ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . »

فيجيب الشيخ :

« بلى » .

فيستضىء للجواب وجه عمرو ؛ وهل نصر عنده أعظم قوة من هذا الاعتراف ؟ . .

ويتلفت يشهد من حوله :

« اشهدوا ! » .

غير أن ابتهاجه لا يكاد يحرك شيئا فى نفس أبى موسى ، لا من قلق ولا من حيرة . . فلقد قتل ثالث الخلفاء — فيما آمن الأشعرى — وليد غضبة جمهور ثائر ، نطقه عنف ، وعقله سيف ، وحكمه حيف ! . .

ويمضى عمرو يكمل نسج ما كان فيه :

« . . فما يمنعك من معاوية وهو ولى عثمان وقد قال الله تعالى : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ؟ . . »

عندئذ يباغته الشيخ :

« اتق الله يا ابن العاص ! . . فإنى لم أكن أوليه لنسبه من عثمان وادع المهاجرين الأولين » .

فيرد عمرو ، مثابرا على إصراره :

« . . إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت » .

« هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله ، إنما هو لأهل الدين والفضل . . »

وطويلا طويلا تجادلا على هذا النحو . . يتبدى عمرو كمن يتصيد الكلمات لينفذ منها إلى غرضه ، فيتصدى له أبو موسى يعارضه ، كلما حرك رأيا جمده ، أو فتح بابا أوصده . . طويلا طويلا سارا أشواطا من النقاش ، منذ ضمتهما اجتماعات ودية عقيب وقف القتال فى صفين إلى ذلك اليوم من رمضان الذى ختم مهزلة التحكيم . . لكنها أشواط ، وإن امتدت ، لم تبعد بهما — كما أسلفنا — خطوة واحدة عن بداية الحديث ، ولا هى أيضا انتهت آخر الأمر إلى لقاء كحقيقة ما يكون اللقاء . لا إلى اتفاق ووفاق ، ولا إلى خلاف وفراق كان مؤدى نقاش الرجلين ، وإنما ظلا يسيران ويسيران كأنما على محيط دائرة ، فى نفس الاتجاه ، وعلى بعد بينهما ثابت ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه طول الدوران ! . .

فإن نعجب فلقضية تعيش فى تصور قاضيها بغير جسم ولا رسم ، ولمحاجة يطرد الحجاج فيها بغير حجة ولا برهان ، ولحكمين يجتمعان وينفضان لوجه ثرثرة جوفاء — ومن أجل سباق إلى غير هدف — بعبارات بتراء تضطرب وتتدافع كالأفراس العمياء ! . . أم لا ، فأين دليل فى حديثهما ، فرد ، يظهر لنا عدوان الظالم ، أو يؤكد براءة المظلوم ؟ . . وكيف نفسر تناولهما البت فى الاستخلاف قبل بحث الخلاف ؟ . . وبأى مبدأ ، وبأى معيار ، عايرا الاختيار والمختار ؟ . .

٥

على خلاف اتفقا ، من قبل ومن بعد — إن كان ثمة مع تنافر لقاء — كما يلتقى ومض النار ووبل الماء فى العاصفة الهوجاء ! . .

فاعتزال ما نشب من خلاف ، وكره الدماء ، والجمود حيال الفريقين المتناجزين دون إنكار لباطل أولئك أو تأييد لحق هؤلاء كانت وحدها جواز المرور إلى نفس الأشعرى ، والمزية التى ليس قبلها ولا بعدها مزية ترفع صاحبها فى عينيه وتضعه على رقاب الناس .

وقصة المصرع ، وولاية الدم ، والثأر الذى انقلب من قصاص إلى إمرة كانت محجة عمرو التى لا محجة له غيرها إلى مطمع ، ولا لمعاوية بن أبى سفيان إلى سلطان . . .

من ثمن الجمود إلى ثمن الدم تذبذب نقاش الحكمين إلى هنا مرة ، وإلى هناك مرة ، بغير محاولة منهما لتدبر القضية الأصيلة ، ولا لذكرها — مجرد ذكر — بعبارة أو إشارة . فلقد شاء أحدهما لخيالاته وأوهامه ، وشاء الآخر لأطماعه وأحلامه أن تكون — دون وقائع الحال — سبيل الوصول الجدلى إلى أمير المؤمنين الموعود . فرتب كل منهما الخاتمة قبل المقدمة ، واختار سلفا اسم الخليفة المنتظر ثم أخضع منطق الحوار للاختيار ! . .

ومع ذلك فلا غرابة ، فى مقام كهذا لا إطار فيه الموضوع ولا اصطلاح على منهج الاجتماع — أو بلغة اليوم : جدول الأعمال — أن تؤخذ النتائج غصبا ، وتعتسف الخواتيم اعتسافا على نحو ما سمعنا من حكم الشام وحكم العراق . . لا غرابة أن تسلك الأسباب المأفوكة ، وتصاغ العلل الزائفة لتطفف الكيل أو لتخسر الميزان . فأحاديث دومة ، التى شاركت فى ابتداعها خيالات واهم وأطماع نهاز ، لم تزد على تراشق لفظى هازل ، وسباق كلامى عابث بين نظرة شخصية ومأرب ذاتى ، ولم تكن قط صراعا جادا بين مبدأين تتأخر فيه الرغبات الخاصة وتتقدم نظرة الحق جنبا لجنب إلى جوار مصلحة المجموع .

كل هذا وغيره من مناقص التحكيم وسقطاته ليس بغريب ما دمنا نقف حيث وقف الحكمان على حافة الحق لا يقدمان ، وننظر مثلهما إلى الأمور نظرة مغرض

أو موتور يركب إلى أوطاره كل محظور . . لكن الغريب العجيب حقا هو أن يمتد عمر التعلات الموهومة فلا تذوب فى الأحداث التالية عبر الزمن ولو على مدى السنين والقرون ، بل تظل عالقة أبداً بنفوس من اصطنعوها لا تفلتهم ولا يفلتونها وإن طال بها العهد ، واستنفدوا جدواها ، ولم يعودوا بحاجة بعد إلى التعلل بعلة أو التوسل بوسيلة . .

فما بالهم ؟ . .

أقد أوهموا فمن فرط ما أوهموا وهموا ، وتخيلوا فمن طول ما تخيلوا خالوا ؟ . .

إنهم لكذلك ! . .

أبو موسى — مثلا — لم يقلع عن وهمه وإن غلبته صروف الوقائع عليه ولم تدع له سوى القدرة على اجتراره ! . . فر بإثمه ، مهزوما مذموما ، إلى مكة ، بعد وقوع الواقعة وفساد الأمر — بما كان من قضائه المشئوم فى التحكيم — على الإمام وأصحابه ، فإذا على يبعث إليـه يذكره جرمه لعله ينتفع بالاذكار ويرشد للتوبة ، ولكنه لا يرعوى ولا يركن إلى الصواب . .

كان فيما كتب على إليه فى هذا المجال :

« . . أضلك الهوى ، واستدرجك الغرور . . فاستقل الله يقلك عثرتك ، فإنه من استقال الله أقاله . . »

فأى تصرف عندئذ كان مسلكه حيال هذه الدعوة الكريمة ؟ .

ما كان منه إلا أن اشتد ، وصلب ، ونأى بجانبه عن الرشاد كأنما وهمه القديم قد تجسد فى ضميره حقيقة لا معدى معها عن إيمانه بأنه وحده على الصراط ! . .

رد يقول :

« . . لولا أنى خشيت أن يؤول منع الجواب إلى أعظم مما فى نفسك لم أجبك ، لأنه ليس عذر ينفعنى عندك ، ولا عذر يمنعنى منك . . وإنى أصبت أقواما صغروا من ذنبى ما عظمتم ، وعظموا من حقى ما صغرتم فأقمت بين أظهرهم . . »

بل قد جاوز الرجل بعد حين حد التوهم والادعاء إلى علياء الاعتزاز والكبرياء كأنما أوتى الحكمة وحده ، يضعها حيث شاء ، وينزعها ممن شاء ! . .

سمع أن الإمام ناقم عليه ، لاعن له ما سلف من قضائه الجائر ، فأرسل كتابا إليه كان فيه :

« . . فإنى قد بلغنى أنك تلعننى فى الصلاة ، ويؤمن خلفك الجاهلون . وإنى أقول كما قال موسى : رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . »

وعمرو — مثلا . .

إلى نهاية حياته كان ابن النابغة يدعى الحق لتملاته . . . يدعيه وهو يعلم أنه يكذب على نفسه ليغرر بمن عمى اشتبهت عليهم الأمور فوقفوا فى الصراع بين معاوية وعلى بمكان ريبة ، يتذبذبون ، تارة إلى يسار ، وتارة إلى يمين . . فلقد كان لا ريب أعرف امرئ بخرافة الطلب بدم عثمان ، التى ادعاها ، ولقنها صاحبه ، وألصقها وإياه بالإمام تجنيا بالاتهام ومغالاة فى اللدد والخصام . . . كان أعرف الناس بها حين ابتكرها ، وحين أشاعها ، وحين جاءته من بعد بملك النيل ومطت لأميره وسيده ملك الشام حتى احتوى فى ديباجته ملك الإسلام . ولقد ظل عارفا بها عرفانه — طوال السنوات القلائل التى تبقت له ، غب النصر ، من عمره المديد الطويل — كعرفان الجانى جنايته لا يفتأ ، وإن تناسى ، يجترها فى خياله فى لحظة ندم أو لحظة مباهاة . وقليلا أقل القليل كان الندم ، وكثيرا كثيرا كان الحقد هو الذى يحرك شهوته للاجترار ! . .

وكم اجتر حتى أتخم ! . .

قال يوما لعائشة ، والدنيا بعزها فى يديه ، والدولة لسيده ، وعلى حينذاك ذكرى ذاكر وأحدوثة خاطر :

« لوددت أنك قتلت يوم الجمل . . »

فهتفت به كالمذعورة :

« ولم ، لا أبالك ! . . »

قال :

« كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على على ابن أبى طالب ! . . »

لكن حقده كان يتوارى أحيانا ليفسح الطريق لكامنة حقد تند من بين

شفتيه كيدا لمعاوية ، ونزوعا عن ملاحقته بالرياء المداجى إلى مجابهته بالصراحة الصارمة ، كلما رأى منه تغافلا عن مطلب ، أو خشى جورا على ما فى يديه . .

دخل مرة عليه يسأله حاجة ، فكره معاوية قضاءها وتشاغل عنه . فما كان من عمرو إلا أن نزع عن وجهه نقاب الرياء ، وأطلق لسانا كالحية يقول :

« يا معاوية ! . . إن السخاء فطنة ، واللؤم تغافل ، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين . . »

فلم يباله العاهل ، وإنما زاد جفاء ، وجبهه بغير اكتراث :

« وبماذا تستحق منا يا عمرو قضاء الحاجات ؟ . . »

عندئذ أفسح ابن العاص السبيل لكلمة حق حبيسة وراء جدران أحقاده لتتسلل إلى حيث وجب أن تكون من بضع سنين . . .

رد فى صلف وخيلاء :

« بأعظم حق وأوجبه ! كنت فى بحر عجاج فلولا عمرو لغرقت فى أقل مائه وأرقه . . لكننى دفعتك فيه دفعة فصرت فى وسطه . ثم دفعتك فيه أخرى فصرت فى أعلى المواضع منه . فمضى حكمك ، ونفذ أمرك ، وانطلق لسانك بعد تلجلجه ، وأضاء وجهك بعد ظلمته . طمست لك الشمس بالعهن المنفوش ، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمة ! . . »

فهل عقب معاوية ؟ . . وما غناؤه من تعقيب قد يثير وخزا آخر ، أعق وأشد ، من لسان رفيق جمعته وإياه المنفعة الضالة ولم تجمعهما القيم الشماء ؟ حسبه فى هذا المقام أن يتناوم ويطبق جفنيه مليا مطأطئا رأسه للعاصفة . حتى إذا رحل ابن العاص من لدنه ، اعتدل يزفر ، ويقول لجلسائه وهو مغيظ :

« أرأيتم ما خرج من فم الرجل ؟ .. ما عليه لو عرض وفى التعريض ما يكفى ؟ لكنه جبهنى بكلامه ، ورمانى بسموم سهامه .. »

ولقد كان كثيراً ما يجلس إلى معاوية مجلس الصفى من صفيه فإذا هما ، بعد لحظات ، بمجلس غريم وغريمه لا يكاد الحديث يسير بهما حتى يحلو لأحدهما أن يكايد صاحبه ثم لا تخلو المكايدة ، آخر الأمر ، من لحة جد تضعهما كليهما حيث يكرهان وإن لم تنكره شواهد الواقع ولا حقائق الحال . . . انبرى معاوية له ،

فى جلسة من تلك الجلسات ، التى تراشقا فيها بالحوار ، يسأله فى تخابث :

« . . فما أعجب الأشياء ؟ . . »

فكان الجواب الهادئ ، الذى لفظته — ربما — نزعة لاشعورية ، وأبطن من سموم التعريض ما يشد الأعصاب :

« أعجب الأشياء غلبة المبطل ذا الحق على حقه . . »

فلم يتركها له ابن أبى سفيان ، وإنما ردها عليه صاعا بصاع :

« بل أعجب من هذا أن تعطى من لاحق له ما ليس له بحق ، من غير غلبة ! . . »

ومعاوية — مثلا . . .

هو أيضا كان يستطيب التوهم ! . . . لم يغن عنه سلطانه . العرش الذى اقتعده لم ينسه إنه جهد — عمره كله — ليتلقف الراحة النفسية من خلال تبرير عدوانه على حق الإمام ، والإلحاح بهذا التبرير على الأسماع ، أينما وجد سامعا بين الخصوم والأعداء ، أو بين الرفاق والأتباع . . بل قد كان أقدر من صاحبه على افتعال هذا التبرير ، فذهب أبعد المذاهب فى اصطناع الزمر التى تؤيده فيه وفى خلق المشاهد التى تجسمه أمام حواسه ، وتجعل من أوهامه الذاتية شخوصاً تتحرك قبالته كما تتحرك على المسارح شخوص التمثيل ! . .

ومع ذلك فكم فشل ! . . كم طالما انقلبت عليه مهازله فأخذت منه ولم تأخذ له ! . .

جمع مرة زمرة ، فيها عمرو ، وفيها مروان ، وفيها المغيرة ثم أطلقهم على ابن عباس — وهو عندئذ ضيف بمجلسه — يهرون حوله ، وينبحونه أخبث نباح . . فماذا أصاب إذ ذاك ، وأصابت له كلابه وإنه ليجمعد شيطان غالب حيال حق مغلوب ؟ . .

قال أحدهم يتوعد :

« لولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، يا ابن عباس ، لتناولكم بأقصر أنامله فأوردكم منهلا بعيداً صدره . . »

وقال ثان يزيد من لهب النار :

« أروع — يا أمير المؤمنين ـ بالتنكيل به غيره ، وشرد به من خلفه .. »
وقال ثالث . وقال رابع وهم ماضون فى تعاور الضيف بأنياب ناهشة شرهة والضيف يترفق صابراً فى الجواب ، ويحاول وسعه اتقاء هجماتهم الباغية عليه بالهوادة ، كما يفعل الفارس المتمرس حين يتقى بدرعه ضربات خصم منهار ، متعففا أن يصرعه ، متفضلا عليه — دون الإرداء — بالازدراء ! . .

ثم قال آخر من بين الزمرة الضارية ، وهو يتلمظ تلذذا بمصرع الإمام :
« لله در ابن ملجم ! . . فقد بلغ الأمل ، وأمن الوجل ، وأحد الشفرة . . وأدرك الثار ، ونفى العار . . »
هنا هزت هذه الشماتة الفاجرة ما كان خامداً من غضب ابن عباس . فلم يملك حلمه ، وإنما صاح بالشامت ، وبسيده ، وبالجمع الباغى ، يلهبهم بسياط لسانه اللاذع الإزعيل :
« ويحك ! . . لقد كرع ابن ملجم كأس حتفه بيده ، وعجل الله إلى النار بروحه . أما والله لو كان أبدى لأمير المؤمنين صفحته ، لألمقه صابا ، وسقاه سماً ، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة ! . كلهم كان أشد شكيمة ، وأمضى عزيمة . ففرى بالسيف هامهم ، مسبلهم بدمائهم ، وقرى الذئاب أشلاءهم ، وفرق بينهم وبين أحبائهم . أولئك حصب جهنم هم لها واردون ! . . »
ثم تخلى الضيف عن بقية التفضل والهوادة ، وجاهرهم بالصراحة الصارمة التى تهتك النقب ، وتزيل الأصباغ عن شخوص التمثيل ، عندما سمع المغيرة بن شعبة يقول فى خيلاء :
« أما والله لقد أشرت على على بالنصيحة ، فآثر رأيه ، ومضى على غلوائه ، فكانت العاقبة عليه لا له » .
النصيحة ؟ . .

وفيم إذن كانت ثورة الثوار بمصر ، والكوفة ، والبصرة ، والمدينة نفسها لو أبقى الإمام معاوية على عمله ، وابن أبى سرح على عمله ، وابن عامر على عمله ، وغيرهم من عمال انعزل بهم طاغوت الحكم عن مشاعر شعوبهم ومصالحها حتى كرههم الناس وأشعلوا فى عروشهم النار ؟ . .

وأجاب ابن عباس بفصل الخطاب :

« . . كان — والله — أمير المؤمنين أعلم بوجوه الرأى ، ومعاقد الحزم ، وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنـه ! . . قال سبحانه : لا تجد قوما يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم . . . . . »

وتمهل قليلا ليكمل :

« . . ولقد وقفك على ذكر مبين ، وآية متلوة قوله تعالى : وما كنت متخذ المضلين عضدا . . »

ثم مال ببصره إلي معاوية ، وقال وصوته يقطر سخرية :

« . . وهل كان يسوغ له أن يحكم فى دماء المسلمين وفىء المؤمنين من ليس بمأمون عنده ، ولا بموثوق به فى نفسه ؟ . . هيهات هيهات ! . . هو أعلم بفرض الله ، وسنة نبيه أن يبطن غير ما يظهر » .

وكما انقلبت عليه مهزلته هذه ، انقلبت عليه ، من قبلها ومن بعد ، أخرى وأخريات . ولعله فى مرة منها جميعاً لم ينكس الرأس خزيا كتنكيسها ذلك اليوم أمام فرد من رعيته أعزل إلا من سلاح الإيمان . .

تلك المرة دخل عليه أبو الطفيل الكنانى ، وقد غاب ابن أبى طالب عن دنيا الناس ، وخلف بعده دموعاً تجهد لتتوارى وراء الجفون نجاة بأصحابها من بطش السلطان المتجبر . . ولم يكن ثمة ما يحمل معاوية — إلا صلفه — على إهاجة شجن زائره المحزون غير رغبة — فيما يلوح — تواقة إلى التلذذ برؤية الألم على محيا الزائر تلذذ الوحش بفزعة فريسته حين يدغدغها بالظفر والمخلب قبل أن يجهز أو يضرب . . فباللفظ الناعم ، واللهجة الرائية ، قال ابن أبى سفيان :

« يا أبا الطفيل . . كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟ . . »

« كوجد أم موسى على موسى وأشكو إلى الله التقصير » .

فتخابث معاوية :

« أكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ . . »

« لا . . ولكننى كنت فيمن حضره فلم ينصره » .

عندئذ أثاره هدوء الرجل ، فصاح مغضبا .

« فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ . . »

فإذا الجواب الحاسم ينطلق كالقذيفة :

« منعني ما منعك إذ تتربص به ريب المنون وأنت بالشام ! . . »

هنا استخزى الطاغية ، ونكس رأسه ، ولم يجد كلمة يسوقها لعلها تخفى إثمه غير أن قال :

« أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له ؟ . . »

لكن الرجل الحزين العنيد لم يتزحزح شعرة ، وإنما مرة أخرى عاجل الماهل المكابر :

« بلى . ولكنك وإياه كما قال الجعدي :

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا ! . .

٦

ثم نضجت الثمرة ! . .

على غير ما حسب كثيرون ، آثر ابن العاص العدول عن قيادة الحديث ، وعمد إلى وضع الأعنة كلها في يد زميله . وما يضيره ؟ . لقد وضح له من نية الأشعرى أنه مؤمن أوثق إيمان بألا مناص من استخلاف « معتزل » لم يقارف الخلاف ، ولم يشارك في الفتنة بين قطبي الصراع . وإنها لنية — فيما خبر — لا تكف عن الفوران في ضمير الشيخ ، والاضطرام في خلده ثم لا تنتظر لتسفر عن وجهها أمام الملأ غير لحظة يتاح فيها للأشعرى أن يفتح شفتيه ! . .

واجتمع الناس . وبدأ الحديث هينا خفيفا ولكنه أشبه بالنسائم الرخية التي تسبق هبوب الزوابع وثورة العواصف الهوج . وأحس ابن عباس الخطر المتخلق على طرف الأفق فانخرط في المجلس ، إلى جوار أبي موسى ، ينشر أذنيه حتى ليكاد يبصر بهما حسيس المشاعر ، ويفتح عينيه حتى ليوشك أن يسمع بهما اختلاج الأفكار . . ولم تكن حاله خافية على عمرو ، ففيها تربص وتحفز إن خلى بينهما وبين الطريق فلربما ملآه عليه بالعراقيل ، وأفسدا كل ما رسم وأعد للحظة الفصل الدانية . . وعندئذ مال ابن النابغة إلى من حوله من أحلاف وخلان ،

وفيهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعتبة بن أبي سفيان ، وبضعة من قادة الشام ، ثم همس بصوت كأنه الحسيس :

« أما ترى ابن عباس ؟ . . »

فتخالست الأعين النظر صوب ابن عم الرسول ، ونفث عتبة من بين أسنانه :

« ما به ؟ . . »

« قد فتح عينيه ، ونشر أذنيه ، ولو قدر أن يتكلم بهما فعل ! . . وإن غفلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهي ساعتنا الطولى ، فاكفينه . . »

قال عتبة :

« بجهدي . . »

ثم قام ، وقام معه ابن خالد ، إلى حيث جلس ابن عباس فزاحماه مجلسه ، وأقبل أحدهما عليه يحاول أن يلوى التفاته بقول غث من فارغ الحديث وسقط الـكلام . .

وبرم ابن عباس بوسوسة جليسه ، نفرع له يده ، يستفيئه إلى السكوت :

« ليست ساعة حديث » .

وانتقلت المحاولة من عتبة إلى عبد الرحمن ، يجهد جهده كصاحبه أو أشد ، ليشد انتباه ابن عباس بعيدا عن مجال الحـكمين في نطاق من التيه . . كلمة كلمة استطعمه جوابها فلم يجب ، وكلمة وكلمة فإذا هو يشيح . وكلمة كلمة فلا تنفتح شفتاه ، وإن عبست عيناه ، إلا عن سكوت .

وتـكررت المحاولة . مرة من هنا ومرة من هناك ، وابن عباس يصابرهما ما وسعته مصابرة وانفسحت أناة . أحيانا باللفظة الزاهدة في الحوار ، وأحيانا أخرى بالإيماءة الخرساء . حتى إذا برم بهما ، اندفع بلهجة الزاجر يكف محدثه الملحف عن الإلحاح :

« إني لفي شغل عن حديثك الآن . . »

وكانت هذه لحظة الفصل ، فاصطنع الغريم المدبر غضبة تلون لها وجهه ، وصاح بانفعال :

« يابني هاشم ، لا تتركون بأوكم وكبركم أبدا . . »

وأردف رفيقه :

« أما والله لولا مكان النبوة منكم لكان لى ولك شأن ! . . »

وكأنما أعدت ابن عباس الغضبة فتلهب غيظه لهذا العدوان الذى يستبطن الامتهان ، فرأى ألا سبيل إلى ردعهما عما أسرفا فيه إلا أن يكيل لهما الصاع بالصاع .

عندئذ احتدم الجدل بينهم مسعرا ، هو يرد ، وهما يتصيدان من ألفاظه ما ينزلقان به فى حواره إلى مزيد من ثورته عليهما ، وعلى عبثهما المقصود .

وانبرى عتبة يتحداه :

« حسبك يا ابن عباس ! . . إن ثقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا . وقد والله تقدم منا من قبل العذر ، وكثر الصبر . . »

ثم أقذعاه . .

وحمى هو وجاش مرجله ، فأسمعهما من الكلام ما يسوء . . واضطرب فكره . واشتغل باله بما غدا فيه . فلما صخب المكان بهم ، جاء قوم فحاجزوا بينهم ، ينحونه عنهما ، وينحونهما عنه وإنه عندئذ لمسحور بغيظه ، ذاهل عما يدور بين أبى موسى وابن العاص من نقاش التحكيم . . وإن ابن العاص لراض الرضا كله عن مؤامرته ، يرمى بمؤخر عينيه صاحبيه ، كأنما يسأل كليهما : « ما صنعت ؟ » حتى يجيئه الجواب ، هامسا كفحيح الأفعى ، من لدن عبد الرحمن :

« قد كفيتك التقوالة . . فأحكم أنت أمرك ! . »

وأحكم أمره .

قال بهدوء الواثق ، العارف بمواقع خطاه ، وهو يضع أعنة الحديث وفصل خطابه فى يد الأشعرى :

« خبرنى ما رأيك ؟ . . »

فتمهل الشيخ كأنما يستلهم حكمة الأيام الرأى الراجح السليم :

. . « رأيى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . . »

شورى ؟ . .

يا بشرى إذن لصاحب الشام ! . . فبحسبه أن يمد على عن الطريق ، وأما البقية فعلى الأيام . . .

وسارع عمرو يؤمن على قول زميله :

« الرأى والله ما رأيت » .

كانت هذه لحظة الفصل التى حلم عمرو ، ومن حضره ، ومن تخلف ذلك اليوم عن مجلسه من أحلافه ، بأنها آتية بخير ما يشتهون : بعزل على بلسان وكيله فى التحكيم . . كانت لحظة الدحرة الفاجعة على من شهدها ، ومن غاب عنها ، ومن جرت فى أخلادهم قبل من شاهد وغائب من أشياع على وأتباعه الذين كالحوا طويلا فإذا هم الآن أمام عبارة كأنها سيف القدر ، تجهز على حقهم ، وتسلم أمتهم كلها جارية مسترقة إلى يد الحيف والباطل والبهتان . .

بهذه العبارة القصيرة اختتم عهد وبدأ عهد . ولا عبرة قط بما جرى بعدها من صراع أريد به استخلاص الأرض المسلوبة . . فلقد غدا على ومعاوية على سواء فى كفتى الميزان . . وأصبح صاحب الحق الشرعى فى الإمرة كالمتمرد عليه وعلى سلطان الإسلام . وانتقلت القضية كلها فى أعين الناس ، وفى عين التاريخ ، إلى نزاع على السلطة ، وليس نزاعا على توطيد القيم أو تحقيق المثل التى يجب أن تسود .

وأقبل الحكمان على الناس ، وهم مجتمعون . فدفع عمرو بصاحبه أبى موسى إلى مكان الصدارة ، ليعلن القرار :

« يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . . »

فاستجاب الشيخ :

« إن رأيى ورأى عمرو بن العاص قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . . »

فأيده عمرو :

« صدق وبر . . تقدم وتكلم . . »

وكأنما أفاق ابن عباس إذ ذاك من غشيته ، فاندفع إلى الشيخ يحاول أن يبصره بما فوته عليه عتبة وعبد الرحمن ، وأن يجمد فى حلقه حديث كارثة وشيكة الوقوع :

« ويحك ! . . والله إنى لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده ، فإن عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك و بينه فإذا قمت فى الناس خالفك . . »

لكن الشيخ نفض النصح والتحذير ، وزجره فى ملالة :

« إيها عنك ! . . إنا قد اتفقنا » .

ثم تقدم يواجه الجمهور :

« أيها الناس .. إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها ، والم لشعثها من ألا تتباين أمورها . وقد أجمع رأيى ورأى عمرو على أن نخلع عليا ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمرهم من أحبوا . . . »

وأتبع بلهجة تأكيد :

« . . وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه بهذا الأمر أهلا » .

وتنحى عن مقامه ، فقام عمرو مكانه ، يعلن بصوت جهير :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، لأنه ولى عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

فبهت الناس :

لبرهة ساد بينهم صمت أوشك أن تدوى خلاله خفقات القلوب الواجفة فى الفضاء كأنها ضربات عصى على أديم مشدود . . لبرهة دارت عيونهم حيرى فى محاجرها ، وبين صحائف الوجوه ، فى وجوم وذهول . . لبرهة التصقت الألسنة بالأفواه المفغورة . وخرست الأنفاس . لكن مرارة الهزيمة التى ولدتها الخيانة ، وحلاوة النصر الذى أنجبه الغدر ، ما لبثا أن اختلطا واضطربا معا فى صياح عارم كأنه الهزيم . . .

وماجت الجموع . .

وانبعث أبو موسى ، وهو مقهور ، يعنف قرين التحكيم الغادر ، ويهتف به فى إنكار :

« مالك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ؟ . . إنما مثلك (كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) . . . »

فاحترق لون ابن العاص . . . يا ويل الشيخ ! . . أويرميه — تعريضا — لأنه قهره ، بالكفر والمروق ، كنص الآية التي اجتزأ منها بهذه العبارة :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون » .

وردها على الأشعري كيلا وافيا :

« وإنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . . »

ثم تركه يستعيد نص الآية ليستشعر مثله مرارة التعريض .

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وكذلك تراشقا بالقرآن على ملأ ، والناس بينهما فى ذهول . وإذا كانت ثمة فكرة تسربت عندئذ لبال منتبه — قد ثاب لوعى — من خلال ضباب المفاجأة . فإنها الفكرة التى تستيقن مروق الرجلين جميعا وانحرافهما عن صراط التنزيل . فلقد جاءا ليقضيا بالقرآن ، ويحكما فى نبراسه ، فحاد بهما الهوى — كليهما — عن محكم آياته ، وغلب عليهما الغرض الشخصى ، أو الرأى الذاتى ، إن لم نقل آثرا الالتواء و « السياسة » على استقامة الإيمان ! . .

٧

لا هو خب ، ولا هو ختل ، ولا هو خداع ذلك الذى تفتقت عنه نفس ابن العاص فى قضية التحكيم ، بل الغدر والفجر والكفر كان . . ولمن شاء أن يسند فعلته إلى « مناورات » السياسة ، وما يستباح فى شرعتها من ركوب الخصم بالحيلة — دحرا له وتفوقا عليه — أن يعلم ، أولا ، أن السياسة ، فى معناها المستقيم ، مصاولة بالذكاء والخبرة واقتناص السوانح ، وليست تحيفا على مثل

الأخلاق أو هدما للشرائع والقوانين . . وأن يعلم ، ثانيا ، أن ركيزة المساجلة بين الحكمين كانت حكم الله لا اجتهاد الناس وتفرقهم مع الآراء الشخصية والأهواء الذاتية أيما افتراق . . وأن يعلم ثالثا أن الطريق فيها إلى الحكم المتوقع السليم قد خطه نص قرآني ما ينبغي أن يحيد عنه أحد الطريق إلا أن يشاء مناقضة محكم التنزيل واقتحام محرم من المحارم يفضي به إلى الضلال . . .

في صلب الصحيفة ، بيانا لمبادئ التحكيم في علم جمهور المتقاتلين الذين فاءوا إلى هذه المبادئ خلاصا من محنة الحرب والخلاف :

« رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر . . وأنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته . . . »

وفيها كذلك ، بيانا لما ألزم الناس به الحكمين المتفاوضين من عهد ، وربطوهما به من ميثاق :

« . . أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعثا له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافا ، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى ، ولا يدخلان في شبهة . . »

فالقضية إذن واضحة ، هي : الخلاف الناشب بين طائفة من الناس شقت — عامدة أو مخدوعة — وحدة الأمة الإسلامية ، وبين بقية ناضلت لدفع غائلة الانقسام . أو هي ، في واقعها ، بين متمرد على سلطان الدولة وبين القائم الشرعي على حماية هذا السلطان . . والوسيلة إلى الحكم في النزاع أيضا واضحة ، هي : كتاب الله وسنة الرسول بلا ترخص فيهما ، ولا عدول عنهما إلى سواهما من الوسائل والأسباب . .

ومع ذلك فقد انحرف الحكمان . أطفآ النبراس . قضيا بغير القانون . فإذا كان انحرافهما هذا ، عن محكم الكتاب ، ليس كفراً وغدراً فأي شيء إذن يكون ؟ . .

أهو رأي ارتأياه ؟ . . لا حاجة بنا إلى دحض ما قد يقال في هذا إن اعتذر عنهما معتذر بأنهما اجتهدا الرأي للقضاء — بخلع علي — على ما شجر في الأمة من تنازع بحكمهما الاجتهادي المردود . . . فما حسما به النزاع ، ولاهدآ ثائرته

ولا ردا على البلاد وحدتها ، وإنما زادا من حدة الانقسام ، وتعاونا معا على النفخ في النار . .

أجل ، صبا الزيت على النار .. ودفعا ألسنتها مشبوبة الأوار لتحرق كل بوادر السلام . . . وإنهما ، من اللحظة الأولى ، ليريان ثمار غرسهما الخبيث ، تفرع وتطول ، ولما يغيبا بعد عن مسرح التحكيم . .

من اللحظة الأولى حمى الصراع بين طائفتى المحتكمين . أولئك الذين سخطوا الحكم جأروا بسخطهم حتى تسرب إلى أسنة أسياف تكاد تتبرقش بالدم ثأرا من الذين أبرموه وأولئك الذين فرحوا به اضطربت منهم الأنفس جزعا فتقبضت أكفهم على السلاح . الساخط من الفريقين كالحذر . جميعاً امتلأوا بخشية المغبة المرتقبة . ما من امرئ منهم شام فيه الخلاص ، ولا السلم الموقوتة ، ولا الطمأنينة . إنما ، وهم لا يزالون في ميدان الخدعة ، تصايحوا ، وتشادوا ، وتنابذوا بالألقاب حتى لم يعد في مجال الصراع النفسى فسحة لغير فتنة جديدة . وإذا كان ثمة شيء قد ردهم عن مهاوى القتال وأقدامهم إذ ذاك تستبق الانزلاق فإنه لا ريب ذهول البغتة الذى صدمهم به الحكم الناجم على حين غرة كأنه حمة بركان دابه الخمود . ومع هذا كله فقد كان حريا أن يستقبل أبو موسى مصرعه في تلك الآونة لولا أن فر بعمره ، على ظهر دابة عجول ، عبر الصحراء ، نحو مكة ، بدار أمان . وأوشك عمرو أن ينال الجزاء المعجل لفجره على ظبة سيف كان أولى بأن تمسك يد شريح . لكن شريحا — وقد أعجلته المفاجأة — ركبه عما هو أدنى إلى عينه : بسوط معه ، قنعه به ، وفاته — لذهوله — أن يتحدث بعقال الحسام وإنه ، عندئذ ، لأبلغ مقال في أنسب مقام ! . .

حتى الذين لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، في حيدة عن النزاع ، أثارهم غدر ابن العاص ، وأهاج فيهم المشاعر كما أحرج الضمائر . ولم يكن ابن عمر إلا مثلا لمن لم تطاوعهم نفوسهم على شهود مأساة الحكم دون أن يدلى بما يعبر عن استنكاره ، فحمل — وهو المحايد الهادئ المستكين — على عمرو يهم أن ينال منه . .

وإذن فقد ماج الناس . واختلطوا اختلاطا شديداً يتناجزون بالقول والإشارة في أخش هيئة ، وبأقذع عبارة . . وغدا الزمن ، عندئذ ومن بعد ، مسرحاً

تصطرع عليه العواطف التي كانت حبيسة إلى حين . . .

الطائفتان تتجالدان وتتنابذان . ولكم حملت إلينا الأخبار في هذه الحقبة ، من شأنهم أكثر الكثير . . . فهذا امرؤ — مثلا — من أنصار معاوية ، يتغنى بأميره ، والنصر ، فيقول في اعتزاز :

« ... ... نمت بابن هند في قريش مضاربه
سمى بابن عفان ليدرك ثأره وأولى عباد الله بالثأر طالبه
وقد غشيتنا في الزبير غضاضة وطلحة إذ قامت عليه نوادبه
فرد ابن هند ملكه في نصابه ومن غالب الأقدار فالله غالبه
وما لابن هند في لؤى بن غالب نظير وإن جاشت عليه أقاربه
فهذاك ملك الشام واف سنامه وهذاك ملك القوم قد جب غاربه ! »

وهذا آخر من رجال الإمام ينبرى للرد عليه :

« غدرتم وكان الغدر منكم سجية فما ضرنا غدر اللئيم وصاحبه
وسميتم شر البرية مؤمنا كذبتم فشر الناس للناس كاذبه »

وثمة ثالث ورابع وخامس ، ومثون عديدة من أولئك وهؤلاء جروا في هذه الأنحاء . . حتى الراسبي ، عبدالله بن وهب ، ذلك الخارجي صاحب حروراء ، لم يخل حلقه من غصة ، ولا قلبه من ندم ، حين تبين الحكم فوجده ثمرة من ثمار مشاقته ورجال فرقته أمير المؤمنين وخلافهم عليه . أفما أكرهوه ذيل صفين على التحكيم والنصر آنئذ تكاد تخفق أعلامه وتلتمع نجومه في حلبة القتال ؟ . . أما لووا رغبته عنوة ، تهديداً بالسيف ، ليرتضى لطائفته أبا موسى حكما وقد كان قليل الثقة فيه ، عارفا بضعفه عن الصمود لابن العاص ، وبافتقاره للقدرة على الطفو إلى مستوى الحدث الكبير حدث التحكيم ؟ . . لقد عانى الراسبي جريرة رأيه ، وطعم منها حسرة دفعته — في لحظة من لحظات استفاقة الضمير — إلى الجهر بذنبه وذنب أصحابه ، فقال :

« ندمنا على ما كان منا ومن يرد سوى الحق لا يدرك هواه ويندم
خرجنا على أمر فلم يك بيننا وبين على غير غاب مقوم
فجاء على باق ليس بعدها مقال لذى حلم ولا متحلم
رمانا بمر الحق إذ قال جئتم إلى بشيخ للأشاعر قشعم

فقلتم رضينا بابن قيس وما انا رضا غير شيخ ناصح الجيب مسلم
وقال : ابن عباس يكون مكانه فقالوا له : لا لا ألا بالتهجم
فما ذنبه فيه ، وأنتم دعوتم إليه عليا بالهوى والتقحم ؟ »

وأيما عبارة من أمثال هذه العبارات ، وكيفما انتقلت بها إلينا الأخبار عبر العصور ، فقد ثبت أن ميدان الوقمة اضطرب بالملاحاة أشد اضطراب وأعنفه . بل قد ربا هذا الاضطراب إلى ذروة الغليان حتى أوشك أن ينقلب إلى انفجار تتلون بالدماء أطرافه وحواشيه . . فابن عباس يهدد ويثور ثم ينقض ، فى غضبته العامرة ، على أبى موسى يسبه ويلعنه حتى ليبدو كأنه يهم أن يبطش به . والشيخ ، فى لحظة خزيه ، يهتز ويتلعثم ، ولا يجد لنفسه عذرا إلا أن يهمهم بذلة المقهور :

« غرر بى . . إنما كان غدرا من عمرو . . »

وشريح بن هانئ ، الذى دافع بدء التحكيم عن الأشعرى ، تملكه الحسرة على خيبة ظنه فى صاحبه ، فتمتلئ نفسه — مع الخيبة — بثورة عارمة يجرفه تيارها إلى موضع الحكمين اللذين خانا الأمانة وخذلا الله . لكنه — فيما بدا — يلقى ابن العاص منفوخ الصدر مصعر الخدين من خيلاء ، فلا يمهله أن يستمتع بخيلائه ويقنعه بسوط فى عينه إذ هو أعتى الخائنين وأحقهما بالحساب العسير . . ويلمح ابن لعمرو هذه النزوة فيخف إلى نجدة أبيه ، ثم توشك حلقة الشجار أن تتسع لولا أن يكفها بعض الناس . .

فإذا سكنت الحدة هونا ، انكفأ سعيد بن قيس الهمدانى ، إلى الحكمين يجبههما برأيه فيما أتيا به — بعد تلك الليالى الطويلة من المفاوضة والحوار — وإنه للرأى الذى يكنه آنذاك الجمهور الصاخب ، المنكر لما نضحت عنه مهزلة التحكيم . . يقول الرجل لهما فى طمأنينة راسخة مبطنة بالازدراء :

« والله لو اجتمعتما على الهدى ما زدتمانا على ما نحن عليه . وما ضلالكما بلازمنا . وما رجعتما إلا بما بدأتما . وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس » .

وأنصف فيما قال . فالحكم الذى قضيا به لم يأت بجديد . إنما قد جمد الزمن ثم لوى عنقه كما تلوى عنق الناقة لتحملها على العودة إلى الوراء ، كرة ثانية ، إلى أول الطريق ! . . إنهما ارتدا القهقرى . رجعا بالفتنة إلى حيث كانت قبل التحكيم . .

وتشاتم عمرو وأبو موسى . . .

وصاح كردوس بن هانئ مغضبا هادر النبرة والأحاسيس :

« ألا ليت من يرضى من الناس كلهم	بعمرو وعبد الله فى لجة البحر !
رضينا بحكم الله لا حكم غيره	وبالله ربا والنبى وبالذكر
وبالأصلع الهادى على إمامنا	رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا وإنه	إمام هدى فى الحكم والنهى والأمر
فمن قال : لا ، قلنا : بلى إن أمره	لأفضل ما نعطاه فى ليلة القدر
وما لابن هند بيعة فى رقابنا	وما بيننا غير المثقفة السمر . »

وكذلك انطلق الأمر ، ومضى الوقت ثقيلا بطيئا ، والجو آنذاك ملىء بصراع جدلى ، مشحون بشرارات الالتحام ، فالفريقان يتناولان الحكم من حيث يحب كل منهما أن يراه . بالحجة الساندة المؤيدة ، أو بالحجة القاصمة الهادمة . والنقاش بينهما يحتدم حتى لينذر بقتال ... وعندئذ يقف يزيد بن أسد القسرى ، القائد الأموى، وقد خشى المغبة، يخاطب مناوئى فريقه ، بلفظ رطيب ، كأنما ليستفيئهم إلى الرضا بما كان :

« يا أهل العراق ، اتقوا الله ، فإن أهون ما تردنا وإياكم إليه الحرب ما كنا عليه بالأمس وهو الفناء . وقد شخصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس على الفناء ، وأصبح كل امرئ يبكى على قتيل . ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره ؟ . . إنه ليس لكم وحدكم الرضا . . »

وصدق الرجل إذا قيس كلامه بمنطق الأحداث وإن لم يصدق بمقياس شريعة الحق والضمير . . فالعراق ارتضى التحكيم ، وارتضى مبعوثه إليه . لكن الحكم قد جاء على خلاف الصحيفة فأهدر المبدأ المرتضى الذى لا سبيل إلى إهداره أو تنتفى صحة الحكم ولا تصبح له ولاية على الناس . .

وكذلك انفض القوم وفى القلوب سخط أو حذر ، وأمام البصائر والأبصار سحائب خطر تنذر بانبعاث الفتنة كرة أخرى كحالها عند وقف القتال . ومع ذلك فلم يسكن اللفظ ، ولم تقر الألسنة خلف الشفاه . إنما استعرت حرب لفظية ، هنا وهناك بين الفريقين لم يغب عن الانخراط فيها امرؤ له لسان ورأى من هذا

الصف أو من ذاك . . واحد فقط بين الجمعين بلع لسانه وزم فمه خشية أن تشى به ألفاظه وتفصح عما يخفيه . ذلك هو الأشعث بن قيس الذى أرادها منذ البدء سلما مخزية وإن اشتراها بالقيم القوية ، وبإمامه وبنخوة الرجال ! . .

وانطلق أصحاب على ، من ميدان الخدعة ، صوب الكوفة ، فى ركب الخيبة ، وإنهم ليجترون الندم واللوعة ، وعلى رأسهم شريح بن هانئ يكاد يشرق بحسرته وهو يشد بيمينه على سيفه ويقول :

« ما ندمت على شىء ندامتى على ضرب عمرو بالسوط . ألا أكون ضربته بالسيف ، آتيا به الدهر ما أتى ! . . »

١

فى رحاب الكوفة استشعر أصحاب على الراحة . .

كانت راحة على تفاوت ، تصنف بمستوياتها أولئكم الرجال ، وتفرقهم فرقا لا يكادون يلتقون إلا فى الصحبة ، ثم إذا هم جميعا أمامها طوائف شتى يفترقون فى طوابع النفس ومثيراتها كما يفترقون من بعد فى الاتجاه والسلوك . .

فالأولى خلصوا له — لوجه ربهم — وجردوا نفوسهم من هواها دخلوا البلدة خفاف المؤونة ، قد انزاح عن قلوبهم ثقل العهد الذى التزموه — حتف أنوفهم — عندما فرض عليهم التحكيم . فعلى كره كانوا قد ارتضوه . وعلى مضض صبروا الليالى الطويلة ينتظرون عقباه . وعلى أسف وموجدة سمعوا الحكم . ولكنهم الآن وقد جبهتهم المكيدة ارتدوا مرة أخرى أشد ما يكونون تعلقا بإمامهم ، وثقة فيه ، وإيمانا بالنظرة الصائبة التى رمى بها عبر المستقبل إلى هذا الكيد الذى حذرهم إياه يوم استجابت كثرة أنصاره إلى خدعة المصاحف وحملته على قبول دعوة الأمويين .

والأولى لم تخل قلوبهم من دخل ، فصاحبوه على حرف ، وأحيوا بسيرتهم حياله — فى سرهم أو علنهم — سنة النفاق كعهد طغمة مثلهم فى فترة الرسالة الإلهية وحياة الرسول ، استشعروا الراحة فى تحقق رغبتهم ، وانتهاء التحكيم بما أكنت ضمائرهم الغاشة ، وما اشتهت نفوسهم الموروبة . فما كانت ميولهم وصبواتهم — التى كتمتها الشغاف دائما ووشت بها الألسن أحيانا على حين غرة منهم — إلا سلما ترد عنهم نهكة الحرب وغوائلها ، وترد عليهم الأمن ، وإن كانت سلما مخزية ، وأمنا فى حساب الأجسام الصماء والضمائر المسترخية لا فى حساب شرعة المروءة الأبية والأفهام المستضيئة الواعية . .

والجمهرة ، بعد أولئك وهؤلاء ، من الناس ، طعموا أيضا الراحة . ولكنهم طعموها كما يبلع المرء — وهو غافل — قطعة حنظل خالطت طعامه ، فلا يفيده أن يلفظ بقايا مالاكه وقد تسرب المر إلى جوفه ، وبطن بمذاقه الكريه فمه ولسانه إلى البلعوم وما وراء البلعوم . . إنها إذن راحة اليأس والاستسلام .

ولم تخل النفوس ، مع هذا ، من ألم ، ولا الوجوه من وجوم إذا ما تصفحت الصفوف العديدة التى تجمعت هنا وهناك من ميدان الحكم ، ومن أرجاء البلدة ومشارفها ، وراحت تحث المطى والأقدام إلى مستقر الإمام كلهم واجم وكلهم حزين . حتى أولئك المدخولون من زمرة النفاق ، طلوا وجوههم بالأسى ، ولونوا شفاههم بالاكتئاب رياء الناس .

على الوجوم عاشت الكوفة ، وعلى البشر — فيما تراءى لأهلها — كانت دمشق ، ومالاذ بها من مدائن ، ذلك اليوم العصيب المشهور ، حرية بأن تعيش . . فلقد ترامت الأخبار حينذاك فى جنبات القصبة العراقية ، على ألسن العائدين ، بما انطلقت به الرسل من أهازيج النصر المشبوه إلى صاحب الشام . . كثيرون من أنصار معاوية تلقوا الخدعة الضالة — وما كان الحكم إلا ضلالة — بالهتاف والتهليل . . وكثيرون أفصحوا عن خلجاتهم بالنثير والنظيم . . وكثيرون خفوا إلى مطاياهم يرمون بها قبلة أغراضهم ومنتجع مطامعهم حيث يقبع معاوية ، يرومون عنده دنياهم . . حتى ابن العاص لم يصبر نفسه إلى حين اللقاء المنتظر وتعجل الزمن فى كتاب مع رسول طوى الصحراء فور الخدعة ، ليزف بشراه إلى مولاه . . .

قيل إنه كتب إليه :

« أتتك الخلافة مزفوفة   هنيئا مريئا تقر العيونا
تزف إليك زفاف العروس   بأهون من طعنك الدارعينا
نخذها ابن هند على بعدها   فقد دافع الله ما تحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم   عدوا مبينا وحربا زبونا »

ولقد افترى عمرو — لا شك — على منطق الحقيقة فى كتابه وحمل خدعته مالا تطيق . فما أبرمت لصاحبه بحكمه بيعة ، ولا دانت له خلافة إلا أن يقال إن ابن العاص قد ارتضاه المسلمون عامة ، فى كل جوانب الدولة ، ليقضى لهم برغبتهم ، فملك عنهم حق تقرير المصير .

ومع ذلك فلا ينكرن أحد أن معاوية بعد الحكم لم يظل فى نظر كثيرين نفس معاوية قبله : مجرد عامل متمرد على السلطان الشرعى قد اجتمعت قوى الدولة — خارج إمارته — لرده إلى سواء السبيل . كلا . بل تغيرت الحال واختلفت

الظروف . وفى حساب الأرباح والخسائر نستطيع أن نضعه فى الجانب الأول ثم نضع السلطة الشرعية فى الجانب الثانى ونحن بهذا لا نجانب الصواب . . .

لا شك ولا مراء . فالرجل بالحكم المأفوك — ومنذ خدعة المصاحف كذلك — قد سمن واستنطار . . . كفته النكسة ، التى أصابت جيش على عندئذ بوقف القتال ، شر هزيمة كان يمكن أن تحيق به وبفلول أجناده المنسحقين بين رحى القوات العلوية فى صفين ساعة الهجوم الأخير . . . وكفته مرارة الاستسلام وذل التسليم . . وكفته عاقبة الخارجين المتمردين . ثم هى قد ردته إلى شامه موفور السلامة ، يسعه بمنجاة عن الصراع أن يلعق جراحه ويستعيد طمأنينة عارضه يستروح منها شيئا من ثقة بنفسه ، وبرجاله ، وبأمله الطويل العريض الذى أوشك أن ينسكب جميعا فى حلبة القتال .

فإذا نحن رقبنا وضعه بالنظرة الشعبية العامة ، التى لا تستبطن الأمور ، ولا تغوص منها إلى الأغوار ، فهو حيالها وعلى بمنزلة سواء ، كفتان فى كفتى ميزان . . كلاهما خصيم وخصيم . وكلاهما يلوذ بالتحكيم . وفى ظل هذا الاستواء خليق بالإدراك السطحى الذى يفرزه جمهور الناس أن ينسى البون الشاسع بين وضعه ووضع الإمام فى القضية ، وما وراء هذا وذاك من اختلاف الأهداف ، وتفاوت الأقدار ، وتباين الآراء . . .

وإذن فقد كان حريا أن تهتز — قليلا أو كثيرا — « معنويات » أهل العراق لتماسك — بنفس المقدار — « معنويات » أهل الشام . وأن تصبح الشحنة النفسية التى تظاهر هدف معاوية أنشط وأقوى من غريمتها التى تظاهر هدف الإمام . وأن يغدو العزم ، فى الأرض الأموية ، أقوى وأصلب منه قبل التحكيم ، بينما مثيله ، فيما عداها — من أرض الدولة — قد تراخى وأخذ فى الانهيار . . .

« الروح المعنوية » إذن فى صفوف أهل الشام راحت ترتفع وتعز ، والروح المعنوية فى صفوف أهل العراق راحت تخبو وتهيض . ولقد رأى بعض الناس — وبحق رأوا — فى الحكم خيانة لأمانة العهد ونقضا سافرا للميثاق ، ولكنك مع هذا ما كنت قادرا على أن تمنع أنهام كثيرين — من معتزلة النزاع ، ومن الذين تناءت بهم الأبعاد، ومن ذوى الإدراك السطحى فى الجبهة العراقية أيضا — من

الوقوع فريسة اضطراب فكرى يوشك أن ينحاز بهم عن قضية الإمام . وما كانوا ملومين إذ وقعوا وهذا مبعوث على نفسه ، الذى عاهده على الانتصاف ، يقرر خلعه سبيلا لا معدى عنه إلى لم شعث الأمة وقضاء على عوامل الخلاف . .

إلى هذا كله نستطيع أن نقول إن إطار الصورة الماثلة كان يضم — فى الجانب الأموى من اللوحة — خطوطا من أضواء عدة أضفت على وضع معاوية كثيرا من البريق . فالعاهل الشامى قد أملى له زمنه فى فسحة من الوقت ، منذ وقف القتال إلى ساعة الحكم ، استطاع فيها إعادة تنظيم جيشه ، وتكتيب كتائبه وألويته ، والاستزادة من الأنصار . ولم يكن عسيرا عليه عندئذ أن يجتذب المخدوعين أو يشترى بدنياه كل طامح إلى منصب ، راغب فى جاه ، متطلع إلى ثراء . . فإذا نقلنا النظرة إلى الجانب العلوى بداخل الإطار ، طالعتنا أطياف ظلال قد أخذت تكثف وتتراكم لتطمس بعض ملامح هذا الجزء وتنشر فوقه سواد الضياع . فالخلاف قد نشب فى صفوفه ثم حمى وشاع . والناس غدوا فى جدل « سفسطائى » عابث — لنصرة هذا الرأى أو نصرة ذاك — نسوا معه جوهر القضية ، وهدفها ، وتشيعوا شيعا مع الفروع . . فرفع المصاحف حيلة غادرة أو احتكام مشروع . والتحكيم خطأ أو صواب . والحكم نفسه باطل مردود لذاته أو مرفوض لأنه استند إلى غير أساس شرعته الصحيفة طريقا إلى القضاء السليم . والقتال بعده مفروض لازم أو هو مشروط برجوع من ارتضوا التحكيم عن نظرتهم الأولى إليه وإقرارهم على أنفسهم — وفيهم على — بالكفر إذ قبلوه ، ثم نزوعهم إلى التوبة لتحق لهم استجابة الأمة لمعاودة الحرب المقدسة وهم أطهار خلصاء أو يفرض قتالهم — إن لم ينزعوا — على كل مؤمن لأنهم مارقون كفار !

عديد من هذه المناقشات ملأ الأفهام والأفواه . وعديد وراءه من شراذم الأنصار أنبته الجدال والحوار . ومع ما نشأ من اضطراب الأفكار ، وكثرة الشيع الفكرية المتناجزة من خطر يهدد القضية ، فإن الخطر الأكبر عليها — ثم على الأمة الإسلامية ووحدتها إلى حقبة طويلة — كان يجثم فى فرقة الخوارج التى نجم قرنها ولما يبرح الجيشان ميدان صفين . فإذا نحن مسحنا ، ولو بالنظرة الخاطفة، مواقع أقدام رجال الإمام ، لوقعنا فى كل ناحية منها ، على عراقيل وعقبات يوشك

معها أكثر القوم إيثار استسلام يغلفونه بالسلام ! . . ففي كل بيت دمعة على قتيل. وفي أغلب الأنفس استطابة لمذاق الدعة بعد نهكة الحرب ومرارة القتال . وفي الأكثر الأعم من الجمهرة ، وبعض القادة ، ميل إلى الدنيا ، التي حبس عنهم على زخارفها بقيمه الخلقية ومثله الرفيعة ، وخلى معاوية عنها نهبا مستباحا لمن اتبعوه أو هادنوه . .

ونشفق أن نسيح في تيه بلا انتهاء لو حرصنا على تقصى كل أولئك الذين صبأوا إلى معاوية — في هذه الفترة وما تلاها — من رجال الإمام . فما كان أكثر المرتدين أو الذين شغفهم إغراء عروض الحياة فتحينوا الفرصة للارتداد . وما كان أقوى سلطان الدنيا وزخرفها على أولئك وهؤلاء . وإذا كان ثمة فريق من همل الناس دفعتهم الغفلة إلى الصبوء ، فليس يعتذر بالغفلة لمن انشقوا عليه من خلصائه وأصحابه الأدنين وأساطين دولته الذين اجتباهم لمعاونته في سياسة الحكم وضبط الأمور . إنما يفسر سلوكهم إذن بأنهم مغامرون ، أو عبيد منفعة ، يشمون الريح ثم يتجهون إلى حيث جيفة المتاع ! . .

من أمثال أولئك الخائنين يزيد بن حجة التيمي : كان عاملا لعلي على الري ودستبى ، وشهد معه الجمل وصفين والنهروان . ولئن كان صبوؤه قد جاء بعد فترة من الحكم ولم يجئ نتيجة مباشرة له فيما يلوح ، فإنه مع ذلك مثل من الحفنة الضالة التي كانت تراودها أطماع الذات عن ولائها ، وتتحين السوانح للخروج على هذا الولاء . إنه أحد الذين شغفهم الإغراء . وواحد من شرذمة تتمثر فيها أقدام عابري التاريخ — طوال عهد الإمام من بدء سلطانه إلى ساعة أفول شمس هذا السلطان — قد استبدت بأفرادها الأشقياء نزغات الأنفس المريضة ، الكافرة في كل مكان وآن بقيم الأخلاق ، المؤمنة دائما بالأثرة ، المنهومة أبدا إلى مزيد وإن كان من حرام . . .

فكذلك كان يزيد لم يغن عنه جاهه ، ولم يغن عنه منصبه ، فامتدت يده الجشعة إلى مال المسلمين في عمالته ، يقتنص منه ما شاء ، ثم ينطلق بالغنيمة إلى رحاب معاوية لائذا لديه ، كأشباهه ، بملاذ يعصمه من عاقبة شرهه ، ناعما عنده بما ينعم به كل غر مفتون لا تكلفه النعمى سوى الغلو في مدح عاهل الشام

والإغراق فى هجو الإمام . . ولقد دفع الهارب الطريد الثمن ، فمدح وقدح ، ثم مدح وقدح ، ثم مدح وقدح ، فلما عاتبه ابن عم له بشعر كتبه إليه ، منكرا فعله مقبحا ردته ، لم يجد لنفسه حجة تستطيع مواجهة إنكار صاحبه ، وآثر أن يسند صبوءه إلى الأحداث التى جرت فى الجانب العراقى ، كأنما لم يشارك هو فيها ، ولا كان أحد صانعيها بالقول والسلوك والسلاح ! . .

قال يجيب :

« لو كنت أقول شعرا لأجبتك . ولكن قد كان منكم خلال ثلاث لا ترون معهن شيئا مما تحبون : أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ، حتى إذا دخلتم بلادهم ، وطعنتموهم بالرماح . وأذقتموهم ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فسخروا منكم ، وردوكم عنهم ، فوالله ووالله لادخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبدا . والثانية أن القوم بعثوا حكما ، وبعثتم حكما ، فأما حكمهم فأثبتهم ، وأما حكمهم فخلعكم ، ورجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين ، ورجعتم متضاغنين . . والثالثة أن قراءكم وفقهاءكم وفرسانكم خالفوكم فعدوتم عليهم فقتلتموهم . .

« أحببت أهل الشام من بين الملا وبكيت من أسف على عثمان
أرضــا مقدســة وقوما منهم أهل اليقين وتابعو الفرقان »

فأين إذن كان أسفه ، من قبل ، إذ رفع سيفه ينصر عليا فى المعارك الثلاث ؟ . . وبأية حجة حارب بصفين أولئك الذين سماهم أهل اليقين والفرقان ؟ . . وفيم إزراؤه على الإمام وأصحابه « العدوان » على الخوارج وقد كان هو من رءوس أولئك « العادين » فى النهروان ؟ . .

على أى حال يطول بنا المدى كل مطال لو أخذنا أنفسنا باستقصاء كل الظلال الداكنة فى الجانب العلوى من الصورة . فالسواد لا ينحسر ، وبقعه لا تسكن ، بل تسرح فتتسع كما تسرح قطرة الزيت فى النسيج . وإذا كان ثمة جمال يغنى عن الإفاضة ، فإن صفوف الإمام بعد الحكم راحت تعتورها عوامل للتفكك والانحلال يقر بها لسان الحال ولا ينكرها لسان المقال . فيها تفرق الرأى ، وفيها تبيط الهمة ، وفيها تلويح الدنيا لأخدانها بسطوة الجاه وزبرج المال ، ثم فيها قبل هذا وبعده كله ميلاد قوة جديدة ، غالية فى اللدد والخصام ، فى نفس هذه الصفوف ، تتربص بها الدوائر ، وتنتظر فرصة مواتية للانقضاض على إخوة السلاح والكفاح ! . .

٢

عقد على مؤتمرا من رجاله . .

كانت اللحظة حازبة . الحكم المفترى قد ملأ الأسماع . العجب فى العيون . السخط فى الصدور ... فى شطحات الخيال الجامحة قصرت الأذهان قبل وروده عن التنبؤ به ، وعجزت الأفهام — حيال مقدماته — عن توقعه — قليلون عند اختيار الحكمين كانوا فى شك من قدرة أبى موسى على مصاولة عمرو ، ولكنهم كانوا فى حمى من عجزه عما نصت عليه الصحيفة . أقصى ما بلغته خشيتهم إذ ذاك أن ينضح الأشعرى بما فيه ، فيقيلهم بيعتهم ، ويردها شورى يختارون بها امرأً لم ينغمس فى الخلاف . أى أن ينساق لغفلته ، ويصبح مطية ذلولا لخدعة ابن العاص ، فهذا ما لم يجل لهم مطلقا فى بال . .

ووقفوا على ترقب . ماذا عسى أن يفعل الإمام ؟ . . ما رأيه فى الخدعة ؟ ما موقف قادتهم ؟ . . ما هو المصير الذى يوشك أن يرسمه هذا الحدث الخطير وإلى أى مدى يمكن أن تعاون على رسمه طوائف الأمة هنا ، وهناك ، فى الكوفة وفى غيرها من الأمصار ؟.. أحرب عجلية ، أم سلم مخزية ، أم هدنة مسلحة تجمد الوضع إلى حين بين الحرب والسلام ؟ . .

وتوقعوا أن يطلع عليهم على ببيان للناس ، يشخص الداء ، ويحدد العلاج . ولكنه لم يفعل . لم يحب أن يصدر فى فعله عن غير مشورة . فرأى الجماعة أولى بأن يتبع . وألسنة الخلق أقلام الحق ، كما قال

وجمع رجاله يتناولون الأمر بالمناقشة وتبادل الآراء ..

وبدأ عدى بن حاتم :

« أما والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخرت الرجال ... »

وما أحسب الرجل حين نطق بقوله كان ينكر على على قبوله التحكيم . فما هو عن خالجتهم فى حكمة الإمام ريبة . ولا هو بتهم عنده حين يحاسب امرؤ على وفائه وولائه . ولو رجعنا القهقرى قليلا لوجدناه من خير أصحاب الإمام غيرة على قضيته ، وتحمسا لحقه ، وفى إبان محنة رفع المصاحف كان من القلة التى رأت إباء

الاحتكام إلا للحرب فيصلا يرد كيد الغاوين ... ولقد قال إذ ذاك لعلى محضه رأيه الخالص الصريح :

« يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكننا أمثل بقية منهم . وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم . . . »

ثم قد كان أيضا محبا لعلى ، غاليا فى حبه وإن جاء هذا على حساب أهله وولده ... مر أثناء الهدنة ومعه ابنه زيد ، فشهدا حابس بن سعد الطائى ، حامل راية طىء بالجيش الأموى ، قتيلا على أرض الوقعة ، فهتف زيد من جزع :

« يا أبه . . هذا والله خالى . »

قال عدى وليس فى قلبه على القتيل ذرة من أسف :

« نعم . لعن الله خالك ، فبئس والله المصرع مصرعه . . »

لكن الولد لم يكن كأبيه إيمانا وثقة ، فانحرفت به عاطفته — والحرب عندئذ موضوعة — إلى قاتل حابس ، فصرعه على حين غرة منه ، ثأرا لقرباه ظالمة ، كثارات الجاهلية ، فيها خيانة للعهد ، ونقض لاتفاق وقف القتال . .

هنا هاج عدى ، وصاح بابنه :

« يا ابن المائقة ! . . لست على دين محمد إن لم أدفعك إليهم . . »

وحمل عليه .

لكن زيدا اتقى الحملة بفرس طارت به بعيدا عن غضبة أبيه إلى الشام ، لاحقا بمعاوية يلقى لديه ما يلقاه أمثاله المارقون . .

وكم حزت جريرة الولد فى الوالد ، وكبر عليه إفلاته من العقاب العادل ، فكان يرفع يديه داعيا عليه :

« اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالمحلين . . اللهم فارمه بسهم من سهامك لا يُشوى ، فإن رميتك لا تنمى . . . »

ولكم غدت فعلة زيد شيئا لعدى — فى نظرة أناس مبهتين — يزرون بها عليه ، ويطعنون فى أمره ، ويلحقون به إفكا هو منه براء ، فمضى الأب الأسيف المظلوم إلى إمامه يبلغه ذوب قلبه ، وهو يشكو ويستنصف .

« يا أمير المؤمنين . . أما عصم الله رسوله من حديث النفس والوساوس وأماني الشيطان بالوحي ، وليس هذا لأحد بعد رسول الله ؟ . . فقد أنزل في عائشة وأهل الإفك ، والنبي خير منك ، وعائشة يومئذ خير مني . . وقد قربني زيد للظن ، وعرضني للتهمة غير أني إذا ذكرت مكانك من الله ومكاني منك ذهب حناني ، وطال نفسي . . والله أن لو وجدت زيدا لقتلته ، ولو هلك ما حزنت عليه . . » .

كلا ، لم يكن عدى يتهم في ولائه ، ولا شاء أن يعتب بكلمة عن التحكيم شيئا على علي ، أو يطعن في رأيه عنه ، وإنما أراد أن يرسم بحديثه حقيقة ما وقع ، بيانا وتذكرة . .

ولم يدعه الإمام . إنما استقبل قوله بالجواب الذي يكمل حقيقة الحال ، ويتم جوانب الموقف فلا يدع ثغرة لتأول ولا ادعاء .

قال :

« إني قد أخبرتكم بالأمس أن هذا يكون وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى فأبيتم . . »

فغدت سقطة الأشعري ، على الأثر ، محور النقاش . .

خاض المؤثرون فيها ، وكل يترجم عما أودعته في نفسه من مرارة ، ويحاول أن يردها إلى هذا السبب أو إلى ذاك . . . فالسقطة وليدة خدعة ماكرة عرفت كيف تأخذ طريقها إلى الحياة من خلال غفلة جبلت عليها طبيعة الشيخ المأفون . . أو هي نتيجة حتمية الحدوث لميل قديم عن مؤازرته إمامه له علانيته وسماته منذ وقف بالبصرة يثبط الناس انتصارا للاعتزال . . أو هي خيانة مقصودة لحق موكله عليه ثم لأمانة القضاء . . أو هي قبل هذا كله كفر وضلال لأنها جاءت على حساب إهدار حكم القرآن . . .

وأكثروا ما شاء إكثار . .

فقال الحسن :

« . . قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن . . . »

وعقب عبد الله بن جعفر يضيف بكلامه إلى الصورة الماثلة بضع لمسات :

« . . هذا أمر كان النظر فيه لعلي والرضا فيه إلى غيره . . جئتم بأبي موسى فقلتم : قد رضينا هذا فارض به . . وأيم الله ما أصلحا بما فعلا الشام ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حق علي ولا أحييا باطل معاوية . . ولا يذهب الحق قلة رأى . . »

عندئذ عاد الإمام يجمل قصة الماضى وإنه فى إجماله ليضيف بسبب جوهرى من أسباب النكسة لم ير أحدا من أصحابه قد عرض له ، لا بإطناب ولا بإقصار . .

قال والمر ملء فيه :

« . . إنى كنت تقدمت إليكم فى هذه الحكومة فنهيتكم عنها ، فأبيتم إلا عصيانى ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ . . »

فحملتهم كلماته فورا على أجنحتها عبر الماضى إلى صفين ، واشتداد الوقعة ، وليلة الهرير ، ثم إلى المصاحف التى رفعها أهل الشام ردءا لهم من هزيمة مؤكدة نكراء . . فلعلهم الآن — بعين التذكر — يرونه ، وقد حاول تجنيبهم إغراء الدعوة ، يصيح بهم محذرا :

« دعوة حق يراد بها باطل ! . . »

ولعلهم يسترجعون فى بالهم قوله :

« . . والله مارفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها . ولكنها الخديعة . . . »

ولعلهم تتردد فى آذانهم — اللحظة — كالهزيم ، صيحاته اليائسة ، يجهد بها أن يردهم عن تخاذلهم :

« . . أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ! . . قد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبعد إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا . . . »

لكنهم — الأكثرين منهم — أبوها عليه ، وخالفوه . . عن غفلة خالفوه . عن جهل . عن إغراء غاوين . . .

ومد بصره بين الجمع المؤتمر ، يتفحص الوجوه ، حتى إذا وقع بينها على الاشعث رماه من عينه بمثل سهم مسمومة ، وهو يواصل الحديث :

« . . كيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ . . والله إنى لأعرف من حملكم

على خلافى ، والترك لأمرى ، ولو شئت أن آخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه . . »

ونكس الأشعث رأسه ، وتداولته العيون المنكرة حينا وهو — فيما حسبت — لايجسر أن يتثرها النظر . فها هو نتاج غرسه . ها هى الثمرة المشتهاة . ها هى السلم التى منى بها النفس ، ووضع جرثومتها — ليلة الهرير — فى قلوب قومه كندة ، ثم راح يتعهدها بتحريضه حتى أعدت بدائها كافة القلوب المهيضة والنفوس المريضة فى بقية الصفوف . .

ولم يكن الأشعث — بطبيعة الحال — الواحد الفرد الذى جرد النصر من ظفره ونابه ، ثم رمى به لقى مضيما على ثرى صفين . ولكنه كان باعث فكرة الموادعة ، ورأس مسانديها ، وعلما على كل من شارك فى تخليقها — بالدعوة الهينة ، أو بالتهجم العنيف — ثم استقبل ولادتها من بعد بالترحيب . ولقد كان حديثه ذاك لكندة — كما نعلم — بمثابة الشعاع الهادى الذى انبثق فجأة من جانب الغيب لأصحاب معاوية ، فرأوا تحت وهجه ... بين محنتهم المدلهم ، ثغرة إلى النجاة ، وأسعفتهم آنئذ قرائحهم بحيلة المصاحف مطية ذلولا إلى هذه النجاة . .

وعاد الإمام ببصره كرة أخرى إلى الجمع ، وقد استرد هدوءه ، وعدل بقوله عن موالاة التعريض بعرف النار ! . . فلا سخط على الرجل الآن يعيد الزمن إلى الوراء . ولا جدوى على المسلمين من إثارة حفيظتهم على باعث النكسة ، هذه اللحظة التى دعاهم فيها لجمع الكلمة ولم الشتات . إنما الخير فى أن يختم حوار المؤتمرين بكلمة موجزة تهيب بهم أن يسلكوا الطريق الوحيدة إلى إصلاح الخطأ الذى جرهم إليه تفرقهم عنه ، واختلافهم عليه . . .

ووقف يخطب القوم ، وإن أسى نفسه ليشعل نبراته وكلماته :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله . . .

أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر ! . . . »

فانتقل ، غب كلمته هذه ، إلى أذهان سامعيه مشهد من مشاهد التاريخ عفا الزمن على سطوره ولم تبق منه إلا ذكرى . . . بدت لهم ، فى تصورهم المسترجع ، الزباء ملكة الجزيرة ، وهى تجرد حسنها الخلاب لاستهواء جذيمة ، وتبعث بدعوة لينة له ، ليلحق بها فى قصرها ضيفا ، فرفيقا ، فزوجا يشاركها عرين الحكم والحب والحياة . . . وبدا لهم قصير مولى جذيمة معترضا طريق سيده ، قاطعا عليه رغبته فى رحلة المتعة المرتقبة والسلطان المهيأ الميسور . . . لكن جذيمة المدل بقدره ، الواثق من موقع نفسه عند الزباء ، يسخر من رأى قصير ، ولا ينتصح به . . . ثم يمضى شوطه على الدعوة الملساء فإذا هو عندئذ بوكر حية ، تنزو عليه ، وتستقبله أتعس لقاء ، بقبلة الغدر والموت ، لا بقبلة الوفاء والصفاء !..

واستمر الإمام يواصل خطابه :

فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ، وكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد »

فكذلك كان حاله وحالهم وهو يأبى عليهم إجابة عدوه إلى دعوة التحكيم وهم يلحفون عليه فى القبول . أكثر فى محاجتهم ، وأكثروا فى الإلحاح عليه حتى بدا — من كثرة اجتماعهم على خلافه — أنهم دونه على الصواب .. وهل نظرته إلى الأمر ونظرتهم إليه إلا رأى ونظيره ، ما دام هذا يخطىء فإن ذلك يصيب ؟ . .

لكأنه عندئذ ، بلسان حاله ، قد ود أن يستطرد من قول الشاعر إلى حيث يقول :

« .. فلما عصونى كنت منهم ، وقد أرى غوايتهم ، أو أننى غير مهتد
وما أنا إلا من غزية ، إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد »

ثم ختم كلامه بفصل الخطاب :

« . . . أيها الناس . .

إلا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة ، ولا بينة ، ولا سنة ماضية . واختلفا فى حكمهما . وكلاهما لم يرشد ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا

المسير إلى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله . . . »

إذن فإنها الحرب . لا سبيل إلى إقامة الأمر على ساقه إلا بوصل ما انقطع ، والعودة إلى الاحتكام مرة أخرى للسيف . لا حيلة ولا مناص . فلقد ضل الحكمان وأخفقا فيما ندبا له . طمسا معالم الصحيفة . استذلا القضاء للأهواء . جارا أعنف الجور وأبغضه على كتاب الله . . .

٣

النخيلة خلية نحل . المكان يعج بالجلبة . الجنود تحتشد . السلاح يصلصل . أينما وجهت سمعك التقطت وقعا وقعقعة . الخطا تدب . الحوافر تخب . العدد تتراكم . أكداس من المؤن والذخيرة تترى . فى كل بقعة من المعسكر الكبير حركة لا تفتر ، كأنما الأرض به قد غدت بحيرة مزمجرة ، العدة والناس والدواب موجها الصخاب ، والكوفة ومنبعها الهادر . . جنباتها تضج بحياة تتهيأ للموت ، وتسعى إليه ، لأنه جسرها إلى الخلود . . .

ما من امرئ آمن واستيقن إلا أسرع وبكر . وما من امرئ شك وأراب إلا تلكأ وتعثر . فالدوافع شتى ، والنفوس على تباين . الذين آمنوا بإنسانيتهم دفعتهم القيم إلى الاحتشاد تأهبا لقتال لا تحق بغيره أهداف هذه الأمة التى أوشك أن يميل بها جموح بعض أبنائها إلى مزالق الهوى والانحراف. فالحق قيمة . ونقاوة النفس قيمة . والخلق السوى قيمة . والدين قبل هذا وبعده رأس هذه القيم والفضائل. وإذا كانوا قد انقادوا فى سلوكهم وما يصدرون عنه من فعل أو قول لأمير المؤمنين فلأن نظرته نظرتهم ، وإيمانه إيمانهم ، وشخصه هو العلم الذى يرمز لهذه المثل العالية وتلتف جموعهم حوله نضالا وتضحية . . . والذين آمنوا بذاتيتهم دفعتهم النخوة إلى مواقعهم : لا نصرة للحق بل نصرة للنفس ، ودفاعا عن مظاهر الشرف والحياة التى لا تتأكد بغيرها ولا تعتز هذه الذاتية . . والذين كانوا من الأمر فى شبهة ثم أغذوا الخطا إلى المعسكر ، فى تلكؤ وتعثر ، إنما خطوا إليه على كره ، رئاء الناس حتى لا يعيروا بين ظهرانى القوم بالنكوص والجبن والصبر على الضيم .

ومع ذلك فقد تخلفت عن الحشد فئة اشتهرت بالورع والتقوى ، وارتفعت بها حماستها الدينية إلى ذروة أوشك إلا يدانيها لديها مدان حتى لقد حسب الناس

أنها بحق رأس الإيمان . . تخلفت عن النخيلة الحرورية ، أصحاب الثفنات والجباه السود من فرط الركوع والسجود ، وغابت اليوم عن مشهد هم أولى — فى حساب الإيمان — بشهوده والسعى إلى تحقيق غايته وبلوغ عقباه . .

فما خلفهم ؟ . . ما أقعدهم اليوم عن مؤازرة إخوانهم المتهيئين لإخضاع الشام بالحديد والنار وقد أعياهم إقناعها بمنطق البيان وحكم القرآن ؟ . . ما أخرهم اللحظة وإنهم عند التحكيم وبعده وإلى الآن لأصحاب الدعوة إلى القتال ؟ . .

وكتب على إليهم يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ، وعبد الله بن وهب ، ومن معهما من الناس :

أما بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، لم ينفذا للقرآن حكما فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون .. فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم . ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه . والسلام . »

ودفع بكتابه إلى الرسول .

ولم تكن مواقعهم بخافية عنه . ولا حالهم وموقفهم .. فى الأيام القلائل التى تلت الحكم تكاتبوا ، وجمعوا شراذمهم ، ثم بيتوا الأمر على الهجرة — فى الله ، فيما حسبوا — إلى موطن سوى الكوفة ، لا يساكنون به قوما حادوا الله ورسوله ، وحادوا عن السبيل إذ حكموا الرجال فى دين الله ! . .

فى خفية عن الأعين بيتوا الأمر . جلسات عديدة عقدوها ، خلف الأبواب ، وبين ظلمة الليل ، فى دور رءوسهم ومشيختهم ، يتذاكرون فيها الأوضاع ، والظروف ، وخطط المستقبل . ولم يكن همهم عندئذ أن يقلبوا وجوه الرأى من أجل استنباط وسيلة لنصرة القضية العامة ، وإنما الهم كل الهم هو كيف ينصرون رأيهم ، ويحملون الجماعة الإسلامية كلها عليه ، بالحجة والإقناع ، أو بالإرهاب والإكراه . ولقد تقطعت بهم آنذاك وسائل النقاش والجدال فاجتمع عزمهم على الصيال والقتال . . .

وقال لهم شريح بن أوفى ، يحدد الخطة المثلى لتحقيق ما يريدون :

« نخرج إلى المدائن فننزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها ساكنيها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . . . »

فتريث زيد بن حصين هنيهة يفكر ، ثم جاء من لدنه بما يكف عن هذه الخطة الإخفاق :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين ... فأما المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان . . »

وفعلوا .

وانطلقت زمرة منهم ذات ليلة في الشتاء من ليالي شوال ، مستخفين عن الأعين ، وعلى رأسهم شريح بن أوفى ، وهو يتلو كأنما يحصن نفسه وصحبه بما يقول :

« فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب أنجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . . . »

وسارت الشرذمة على الطريق للمدائن ، ولكنها لم تنس نصيحة ابن حصين فاتجهت دونها إلى ساباط . وما كان لها أن تدخل البلدة أو تقاربها ، وهذا أميرها سعد بن مسعود قد جاءه بنبأ مقدمهم ، فأخذ أبواب المدائن ، واستخلف عليها بعده ابن أخيه المختار ابن أبي عبيد ، ثم خرج إليهم يطاردهم بخيله ، حتى وقع على فئة منهم يرأسها عبد الله بن وهب ، فالتحم بها ساعة . . . لكن الليل حجزه عنهم ، وأفسح لهم بظلمته في الفرار منه عبر دجلة إلى أرض حوفى ، فالنهروان حيث وجد بقية أصحابه وقد عسكروا بها على مثل الجمر من قلقهم عليه ...

وكذلك فعلت خارجة البصرة ، فانطلقت هي الأخرى إلى منتجع الفتنة ، يقودها مسعر بن فدكي . تسللوا أيضاً خفية ، ثم بلغ نبؤهم واليها عبدالله بن عباس ، فجرد لهم أبا الأسود الدؤلي في قوة مطاردة ، تبعتهم إلى الجسر الأكبر ، وأوشكت أن توقع بهم لولا الليل الذي أمدهم بظلمة أكنتهم عنه ، وفتحت أمامهم طريق الهروب موفورين إلى حيث حشدهم الأكبر . .

والتأم الجمع بالنهروان أربعة آلاف قارئ وعابد أعمتهم عصبية الذهن وأضلهم

ضيق أفقهم عن التمييز بين الهدى والضلالة وإن واصلوا الليل بالنهار فى التهجد وفى تلاوة القرآن .. فما تغنى عنهم التلاوة . وما يغنى عنهم الصيام والقيام وإنهم ليقرأون فلا يعون ، ويأخذون بالحرف والعبارة وهم فى غفلة عن المضمون . .

وجاءهم كتاب الإمام ، فعلى أى وجه استقبلوه ؟ .

لكأنى بهم عندئذ خدود مصعرة ، وأوداج منفوخة ، وأعناق أتلعها الصلف والتيه إلى مسارح الغيم التى أطلعها عليهم الأفق الأشهب ذلك اليوم المشبع ببرد الشتاء ! . فما يخالونه إلا نصراً لرأيهم آزرتهم به أخيراً الأحداث . . ألم يعارضوا التحكيم ؟ . . ألم ينهوا عليا عن السير فيه ؟ . . ألم يحاولوا حمله مراراً عدة على نقض نصوصه عودا إلى الاحتكام للقتال ؟ .. فما باله الآن يدعوهم للحرب التى أباها عليهم طوال أشهر ثمانية إلا أن يكون قد اهتدى إلى صوابهم ورآهم أخلصوه حقا النصح يوم خالفوه . .

لكن فى نفوسهم شيئاً ما زال يفصل بينهم وبينه ، ويضعهم وإياه فى طريقين لا يلتقيان .. إنهم فى الحق لا ينكرون أنهم أكرهوه ساعة رفع المصاحف على قبول التحكيم ، وأكرهوه بعدها على اختيار أبى موسى حكما يتحدث بلسانه وألسنتهم ، فقضوا بهذه وتلك للطائفة المبطلة بالنصر ، وعلى الطائفة المحقة بالخذلان . فالمحنة إذن ، التى رماهم الحكم فيها ، من غرس أيديهم ، والجريرة التى وقع فيها على هم الذين حفروا حفرتها تحت قدميه ثم جروه ليتردى فيها معصوب العينين مشدود الوثاق . ومع ذلك فما فتئوا أن تبينوا خطيئتهم ، فنزعوا عنها ، وتابوا إلى الله راجعين كرة أخرى إلى ما أرادهم قبلها عليه . أفئن جاءهم الآن يستفيئهم إلى صفوفه ، ويدعوهم بنفس دعوتهم ، إنه إذن قد نزع نزعهم ، وحنت نفسه إلى التوبة ؟

طائفة منهم أخذت الأمر من أقرب موارده ، وودت لو لحقت به ما دام قد دعا بدعوتها ، وتهيأ لحرب المحلين البغاة بالشام . فلقد التقى الهدف بالهدف والنظرة بالنظرة ، وعاد السيل إلى مجراه . . .

وطائفة أخرى لج بها الكبر والعناد فلم تر فى الدعوة إلا وسيلة يحتالها لدعم سلطانه وقد تبدى له تهاوى أركانه ، فليس يرجو بها إذن وجه الله . . .

وطائفة بقيت على تذاؤب ، لا إلى هذه ولا إلى تلك ، فوقفت تنظر ما عسى أن ينجاب عنه الجدال ، وفى نفوسها بقية من ريبة فى موقفه وموقف الخارجة على السواء ، لا تستطيع معه أن تحسم ، أو ترجح إحدى كفتى الميزان . . .

لكن الذين شاقوه فى البدء هم الذين شاقوه أيضا اللحظة ، وعلت كلمتهم ، ثم نضحت رسالة الجماعة برأيهم فيه . .

كتبوا إليه :

« أما بعد . فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . . »

٤

أغضى عنهم ، فما يكرثه فعلهم . وليس حريا به أن يجعلهم هما يشغلونه عن الهم الأكبر . .

الشام اليوم هى همه . معاوية . الفئة التى خرجت على سلطان الإسلام وأصابته بصدع يشق وحدة الأمة ، ثم تذرعت بأخش الحيل وأخبثها لكى تعلى لنفسها فى البقاء . مجيشة المال ، مستغلة هوى الأنفس ، مستمينة بالدنيا ، متنكرة للقيم ، متلعبة بكتاب الله . . .

الخطر — فى رأيه — ليس فى فرقة من رجاله تخرج عليه . ولا فى سلاح يشرع لمناجزته وإن حملته حياله أكف قلة أو كثرة من مخدوعين أو مشاغبين كانوا إلى أمسه القريب من أخلص مظاهريه . . لا . ولا أيضا من جحافل مرصوصة قد تحجب بحشودها ضياء النهار . ليس يكرثه قط أن يكثر العدد ، ولا أن تجلب الدنيا عليه بالخيل والرجل والعتاد . ولا أن يقف وحيدا فى الميدان يناضل بيمينه وشماله عاريتين من أداة حرب تحميه . فالصراع عندئذ « بدنى » لن تكون خسائره سوى سلاح ، وضحاياه سوى أشلاء . . إنما الذى يقلقه الآن أنها حرب « خلقية » إن لم يتهيأ له النصر فيها ، جاءت العقبى وبالا على المبادىء المثلى التى شرعها الدين ، ووضع بها دعامة مجتمع فاضل ، ينبغى أن تسود

فى جنباته المعنويات على الماديات ، تنقية للنفس ، وارتفاعا بإنسانية الناس عن غرائز الدواب ! . .

ولقد ظل دائما فى باله هذا الخطر ، يراوده فى صحوه ونومه ، فى سره ونجواه . . فى صباه وهو غلام . فى شبابه وهو جلد ذو أيد . فى رجولته وفى كهولته وقد اجتمعت له قوة القلب والجنان إلى خبرة العلم وحنكة التجربة . إبان عطله من السلطان وإبان امتلاكه لناصية هذا السلطان . . . دائما دائما كان قدوة . دائما دائما كان يصدر فى فعله وفى قوله عن سلوك من يحس بالتبعة أمام ضميره ، وأمام الناس ، وأمام الله عن توطيد القيم الروحية التى لابد من غرسها وتنميتها فى خلائق البشر ، إن لم يكن إيثارا لها على مطالب البدن فتحقيقا للتوازن فى طبيعتهم المجبولة من وحدة حية ، ثنائية التكوين ، قوامها روح ومادة . فكذلك علمه محمد . كذلك شريعة الله . .

لكن معاوية شاء غير ما ينبغى أن يكون . وراح يشج ، بعمله ودعواه ، وحدة الكيان الإنسانى ، ممليا المادة فى الطغيان . . لتأكيد ذاتيته كان يفعل . لمأربه الخاص . للاستزادة من البطانة والأعوان . ولئن كان أسلوبه هذا غير مستحدث — إذ هو المركب الأبدى لكل وصولى ، من قبل ومن بعد ، إلى مراميه ، فإنه بلا ريب ردة عن الصراط . . فما أيسر الإغواء . وما أقوى سطوة الزخارف والعروض الدنيوية على النفوس . وما أسرع نزوع الأبدان المتخمة الصماء — إذا ما كثفت شفافية الروح — إلى الأهواء ! . .

أجل ، فالهوى شهى طريقه قصير . والهدى ثقيل طريقه طويل . . ولقد كان الإمام يستعيد دائما فى خاطره حديث الرسول : « إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات » ثم يحذر أصحابه أن يذلوا للبدن فيقول لهم :

« ما من طاعة الله شيء إلا يأتى على كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتى فى شهوة . فرحم الله رجلا نزع عن شهوته ، وقمع هوى نفسه . »

وكان يعلم أن رياضة النفس تتطلب طاقة روحية تعيي بحملها الأجسام ، وجهد لا يصبر عليه الأكثرون ، فكان يقول لمن ثبتوا فى ميدان هذا الكفاح ولم ينكصوا على قدم :

« لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله . . . »

وكان يقول :

— إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار . فخذوا من ممركم لمقركم . . وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

لكن الذى كان يروعه ويزيد ألمه ، أن يرى أناسا لهم صحبة مع الرسول ، أو من ذوى الشرف والأقدار الخليقين بألا يدوروا مع الريح ، يشترون بدينهم دنياهم ، نابذين وراءهم ظهريا لب الدعوة الإلهية ، ومهطعين كالسائمة إلى عروض الحياة. أولئك كان الحق يبهظهم ، والعدالة تمضل بهم ، والأنانية تقودهم بأخطامهم إلى تنكب طريق الإنسانية القويم . فإذا لم يكن العدل هو السبيل الحرى بأمثالهم طروقه ، فلمن إذن يكون السبيل ؟ . . وإذا لم يكن هو الركيزة التى ينبغى أن تقوم عليها حياة البشر ، والأسلوب الذى ينظم العلاقات فى المجتمع بين الناس ، فعلى أى أساس ترتكز هذه الحياة ، وكيف تنتظم ، وبأى أسلوب ؟ . .

فى صفوفه أيضا كانت من هؤلاء طائفة . بعضها أسر الهوى إلى حين ، وبعضها أسرع فأسفر . ولقد امتلأ عهده بالنصح لهم . وبالازراء عليهم . وبالشكوى منهم . . ولعله حين استفاض ذات مرة فى الحديث عنهم مع الأشتر ، لم تكن تلك شكوى فريدة يبثها ، عن أسى وأسف وحسرة ، تنفيسا عن صدره . . .

وقال له الأشتر عندئذ وهو يتناول موقفهم بالتحليل ، ويحاول أن يرده إلى علته :

« أنت تأخذهم ، يا أمير المؤمنين ، بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتنصف الوضيع من الشريف . فليس الشريف عندك فضل منزلة على الوضيع . فضجت طائفة عن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف — فتاقت أنفس الناس للدنيا ، وقل من ليس للدنيا بصاحب — وأكثرهم يجتوى الحق ، ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا ... فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجل ! . . »

فابتسم بسمة مرة . يبرمون إذن بالمساواة التى شرع الله بين خلقه ، ويأبون إلا الاستعلاء درجة على الناس ؟ . .

وقال :

« يا أشتر .. إن ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ، فإن الله يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ... وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف . . وأما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا لذلك ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور ، ولا لجأوا إذ فارقونا لعدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسألن يوم القيامه : أللدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟ . . وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنه لا يسعنا أن نؤتى امرأ من الفئ أكثر من حقه . . وقد بعث الله محمدا وحده ، فكثره بعد القلة ، وأعزه بعد الذلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه . . »

فالعدل وحدة لا تتجزأ . المساواة لا تنتقص ميزان الحق لا يطفف أو يخسر . لا يشترى أحدا بظلم آخر . لا يحابى . . . وهذا ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب يجيئه فى حين محنة ألمت به يستعينه :

« يا أمير المؤمنين ، لو أمرت لى بمعونة أو نفقة ؟ .. فوالله مالى نفقة إلا أن أبيع دابتى . . . »

فلا يزيد على أن يجيب :

« لا والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك ! . . »

لقد طالما أسف وهو يرى القوم ، هنا وهناك ، يسفون . لقد طالما جهد ليقوم اعوجاج الأنفس ، ويردها إلى الجادة . . بالدعوة كان يجهد ، بالحكمة والموعظة . بالقدوة والأسوة . . وها هو الآن ، وقد نفد الصبر والتصبر ، وتقطعت الأسباب والوسائل ، يشرع فى وجود أولئك المشاقين سلاحه ، لا يروم به حملهم على الخضوع نصرة له ، وإنما امتثالا للمبادئ الكريمة ، وتوطيدا لحق الإنسانية ، ونصرة للدين . .

وكانت الشام — لا ريب — بؤرة أهواء الدنيا ، وصاحبها معاوية النافخ فى نار هذه الأهواء . فإذا عدل فى السير عنه إلى الخارجة بالنهروان فإنه إذن

سيقطع الذنب . ويترك الرأس يسعى لينهش وينفث لعابه المسموم ! . .

وكذلك أغضى عن جماعة الراسبي ، وأسقط من حسابه ما ضمنته رسالتهم ، ثم نزل النخيلة ، ووقف في حشدها ، يحثهم على المسير :

« أما بعد ، فإنه من ترك الجهاد في الله ، وأدهن في أمره ، كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمته . فاتقوا الله ، وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله . قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقراء للقرآن ، ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل . . . فسيروا ، وتهيأوا للسير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم ، شخصنا إن شاء الله . . . »

وكان قد كتب لابن عمه : عبد الله بن عباس ، عامله على البصرة ، يخبره الخبر ، ويدعوه وجنده :

« أما بعد . فإنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على السير إلى عدونا . . . فاشخص بالناس . . . »

فما فعل العامل ؟ . .

لم يشخص ! . .

أفقد شام يا ترى خيرا في بقائه حيث هو ، فآثر المكث بدار إمرته ؟ . . لعله ما قد قعد عن الشخوص . لدواع عساها احتجزته . لأمور لعله خشي أن تنتكس إن هو غاب عن مقره ... أم قد مل هذه الحرب التي لا تكاد تهدأ إلا لتثور ، ولا تكاد تثور إلا لتهدأ ؟ . . أم قد كل متنه عن عمل السيف وضاق بالقتال ذرعه ، فاستطاب أن يركن للدعة حتى حين ، قانعاً من المشاركة في الأحداث بتتبعها من بعيد بسمعه وعينه ؟ . .

الرجل ونيته ! . . فما يسهل اللحظة استنبا ، دخيلة نفسه ، والغيب دائما مستتر ، والقلوب مغلفة بالعلن ... لكنه ، على أي حال ، لم يأتمر وهو عندئذ أولى امرئ بالائتمار ، وأحرى الناس بأن يكون قدوة لبلدته ، ولغيره من العمال وللكافة من الجمهور ، في فترة حازبة من عمر الإسلام هي بلا ريب المقطع الفصل في مستقبل الدولة ، والشعب ، والقيم الخلقية لأجيال وأجيال . .

وما فعلت البلدة ؟ . .

الحاضرة العراقية الثانية تثاقلت كأنما شدت أقدام الرجال فيها إلى الأرض ، أو هان عليهم الأمر فاستقبلوه بغير احتفال . . كان قصاراها أن تبعث ، من جندها الجيش ألفا وخمسمائة ، هم كل من وسعها حشدهم من المقاتلة ، كأنما الأمر لهو لا جد ، واللقاء فى مراح وملعب لا فى حومة وغى وميدان قتال ! . .

٥

السكوفة أيضاً غيرتها السلم الموقوتة ! . .

الجسوم فيها استرخت الهمم تهاوت . الغيرة فترت ... الزمن لم يعد له فى بال أهلها ذلك الخطر الذى كان يدفعهم من قبل إلى قياسه باللحظة وطرفة العين مبالاة به ، وتقديراً لقيمته ، وحفزا لأقدامهم على ملاحقته ثم استباقه على طريق الأحداث إلى مكامن النصر .

« اللحظة » لم تعد وحدة القياس بل الرغبات ! . . والرغبات فوضى لا تحدها حدود ولا تسجيها أسوار فهى تيه بلا إنتهاء . ولا يمسكها عنان ببنان فهى شوارد تهيم فى كل واد من أودية الأمانى والأهواء ، طليقة أينما تشاء وأبان تشاء لا تستقر بقرار ، وليس يسعها أن تستقر لأنها دائما تتطلع إلى جديد ، كلما انتهى بها هيامها إلى غاية تجددت لها وراءها غاية تفرزها طاقتها الذاتية إفراز الموجة للموجة فى بحر لجى طام تتلعب به أكف إعصار ! . .

بوادر الثبوط الذى خالج الأنفس راحت تتجمع فى الأفق وتتراكم غيمة فوق غيمة ، ناشرة الظلال والدكنة والسواد . كسفة واحدة منها لم تخف عن لمح الإمام وقطرة من وبل الخطر الذى تختزنه لم تغب عنه . الجو « الحدثى » عاصف ولكن الجو « النفسى » رخاء .. فالناس حوله يسكنون إلى الدعة العارضة ، ويستروحونها ، ويعيشونها بكل قلوبهم وجوارحهم كأنما هى الحياة كل الحياة . والأمور فى البلدة تسير على هون سيراً هو أبعد شىء عن « وحى » الوقت الذى تجتازه الأمة ، وأبعد خط عن الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه . . كلهم شغله همه عن الهم العام . الكبير كالصغير ، والشريف كالمشروف . . وكلهم أخلد إلى إلى نفسه أو أهله ، واستنام للدعة ، واستسلم للاسترخاء . الرئيس قطع ما بينه

وبين رجاله فإن التقى بهم فعلى دنياه أو دنياهم اللقاء . . والفارس هجر دابته إلا لزينة . والراجل ترك سلاحه ودينه فى عناية الصدأ والإهمال . .

ولقد لوحت النذر بالمصير المخوف ولكن الناس كانوا من هوامهم بنجوة عن أى نذير . لا عين ترى ، ولا أذن تسمع ، ولا بصيرة تنفذ فتعى وتعلم . الخاصة من المحنة كالعامة وإن انتصف الواقع من أولئك لهؤلاء إذ ترسموا خطا قادة ساءوا قدوة ومثلا فضلوا بهم عن سواء التقدير . والكوفة كالبصرة وإن اعتذر الأخيرة بأن نصيبها من الكوارث قد ملأ كيلها إلى حافته إبان « الجمل » ثم فاض به فى أتون « صفين » حتى كلت النفوس بالمواجع وطنت البيوت بالأنين . لكن الكفاح هو الكفاح ، والحرب هى الحرب ، والسلائق السليمة لا تؤمن قط بأن الأسى تعلة يتملل بها الذين نذروا أرواحهم لمبدأ والتفوا بعلمه التفاف أحرار ! . .

وهز ابن عباس ثبوط إقليمه وإن كان هو قد أسهم فيه بالقدوة ، عفوا أو مدفوعا بأسباب . لكن الاستخزاء قد آده ، والتهافت قد ثقل عليه . فالسلوك الذى طالعه به القوم لا يباعد بينهم فحسب وبين ضرورات الموقف فى حساب السياسة ، بل يباعد كذلك بينهم وبين المروءة فى حساب الأخلاق . .

ما من قلة فى الرجال قعدت البصرة ، ولا من عجز فى العتاد . . فما هو إذن خطب الناس ؟ . . ما خلفهم ؟ . . أى الأدواء قد سرحت منه إلى قلوبهم جرثومة معضلة رعت فيها رعى السوائم الهيم فى أرض محل لا تكاد تبدو بها عشبة يابسة بين شقوق الصخر حتى تغدو ولمة ثرية تتخطفها البطون الجياع ؟ . . أى داء وكيف الدواء ؟ . .

وركب العامل من فعلهم هوان حمى له صدره واتقدت عينه، واشتد لسانه ، فوقف فى جموعهم يزأر وينذر :

« أيها الناس .

جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف ابن قيس ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم . ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدى . ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا فإنى موقع بكل من وجدته متخلفا . . »

فما أغنى عنه وعيده ، ولا كان نذيره إلا كمثل صرخة فى واد تبددت غير أصداء ! . . وعندما خرج جارية ، آخذا سمته إلى النخيلة ، لم تكن عدة فيلقه سوى مئين قليلة توشك ألا تمدو جيش الأحنف لتؤلف معا نحو ثلاثة آلاف جندى بين فارس وراجل ، هم كل من وسع البصرة أن تحشدهم من بين ستين ألف مقاتل سوى الأبناء والموالى والعبدان ! . .

كذلك كانت الحال : نداء ولا تلبية ، ودعوة ولا جواب . . الحوادث هوج والأنفس رخية . الجوارح تنشط والهمم تفتر. المبادئ تخبو والأهواء تزدهر . . الدنيا تقبل والآخرة تدبر . . . وبعد أن كان الناس يشوقهم الموت إذ هو المجاز للحياة الحقة ، ويطيرون إليه بجناحى الجهاد والفداء ، غدوا وقد شدتهم الأرض إلى دنياهم الزائله بوثاق الذات ! . .

بغير إكراه كان الناس قبل هذا يقبلون من كل حى وكل قبيل إذا ما ادلهمت محنه لا تفرج كربتها إلا مشافر السيوف . . . كانت المطى تساق ، والأسلحة تجمع ، والألوية ترفع ، والجنود تصطف ، ودعوة الحرب تتردد فى أهازيج طروب ، ندية النغم تنشر الأمل ، نارية اللفظ تشمل القلوب . . طواعية كانت المقاتلة تحتشد ، وتتزود من لدنها بزاد القتال من ظهر ومؤونة وعتاد .

هذه هى السنة التى استن رسول الله فى الحرب ، يندب لها ، ولا يستكره أحدا عليها . فإذا نودى للجهاد خف إليه المجتمع الإسلامى خفة رغبة وإقبال . . فالقادرون كلهم له . كلهم جيش . كلهم يزحف إلى ساحة الخطر ما وسع فردا منهم أن يفعل : بنفسه ، أو بولده ، أو بماله ، أو بعبده ، وما اقتضى الأمر أن يخرج الناس : رجالا ونسوة ، شبابا وشيبا نصرة لهدف أو درءا لعدوان . ولقد كان أصحاب اليسار يجهزون أناسا للغزو والدفاع لايقوون عليه من حاجة أو عيلة ، فيتكفلون هم بنفقتهم ونفقة ذويهم حتى يكون الظفر وتنطفئ النار . وما عرف قط أن رجلا تثاقل فتخلف عن قتال إلا غدا أمثولة سوء بين القوم ، ينكرون عليه فعله ، وتقاطعه جماعتهم وتجتنبه فى الحياة اليومية حتى ليغدو منهم مثل جزيرة مهجورة فى بحر لجى من النفور . ثم هو لا يسلم على الأيام من ازدراء تضيق به عليه الرحاب والنفوس فلا يكاد يلقى دونهم ملاذا يعصمه من الحسرة

إلا أن يسارع إلى طمس زلته بالخروج إلى غزاة جديدة تعيده إلى رحاب الشهادة ، أو تعيده إلى ظلال القبول .

وطبيعي أن الدولة فى إبان فترات السلم لم تكن تترك هملا بغير جند على أهبة حتى تأزف الأوازف ويتردد فى جنباتها دوى الخطوب . بل قد كان لها بكل إقليم فريق من المقاتلة يختص به ، ويرابط فيه ، حراسة وحماية . . ومع ذلك فهذه الفرق لم تكن هى الجند كله ، وإنما كانت القلة الأقل فيه الموكولة بالطوارئ والمفاجآت . فإذا جد الجد ، رأيت طوفانا من العسكر يقبلون على حمل السلاح وسد الجبهات ، منتظمين فى صفوف الحرب ، قد تقدموا من كل صوب فى الإقليم ومن خارجه على السواء ، لا يدفعهم إلى الالتحاق غير الرغبة الخالصة فى النضال من أجل غاية عامة ، ويحركهم الحافز المعنوى طاغيا بسطوته على أهواء الذات . . فالتطوع إذن كان أول دعامة — إن لم نقل هو الدعامة — التى قامت عليها الجندية حينذاك ، والإحساس بالخطر ، أو تسويد الهدف هو داعيها ، والندب إلى القتال — دون السوق إليه وبغير استكراه — هو أسلوب التجنيد . . .

غير أن الفراغ الروحى الذى جاء فى ركاب الدنيا راح ينخر فى الناس ، ويردهم كرة أخرى بعيدا عن القيم إلى حب الذات ، والحرص على الدم فبردت فى الصدور الهمم ، وتعلقت بالحياة الأعين ، وتهاوت فى التراب القلوب ، والتصقت بالأرض الأقدام . . ولم يكن بمستغرب أن ينتشر هذا الضباب المعتم على الأفق العلوى مشيما التراخى فى أرجائه ، ملتهما المبادئ منه التهام أستار الظلمة لخطوط النور . . .

ويوشك امرؤ أن يتساءل : إلى أى مدى شاع ذلك الضباب فى سماء الشام ، ولف بقتامه أنفس القوم الذين استبطنهم عاهلها واتخذهم ظهيراً وأولياء ؟ . . لا مراء قط فى أنه كثف هناك . وخالج كل قلب . ونفذ إلى كل رئة . وجرى فى دمائهم حتى عاشوا به وعاشوه . ومن الخطل أن نضعهم — فى هذا المقام — بمرتبة أدنى من رجال الإمام إلى الاحتفال بالحياة إذا وزن التطلع إلى الدنيا بالدرهم والمثقال ، وقيس النأى عن المبادئ بالفتر والذراع . لكن الخطل كل الخطل أيضاً أن يقال إن الفريقين كانا على سواء حين نحسب لهما مقومات الفوز فى هذا

التسابق المادى ، ونتفحص عدده وأدواته ، وخططه ومرجحاته . . فالثابت الذى لا شك فيه أن أنصار معاوية كانوا يتطلعون إلى زخرف الدنيا ونشبها وإنه منهم لعلى قيد خطوة لا يكلفهم إلا أن يخطو أحدهم فإذا هو فى نطاق مشتهاه ، ثم يمد يده فإذا هى على ثمرة النشب ناضجة جنية بغير جهد مذكور . بل قد يرجو وهو قاعد فلا يبخل عليه دهره ، ولا يبطئ به سويعة أو بعضها من زمان عن المسارعة إليه بالمطلب المأمول . بل قد يكون أبعد امرئ عن الطلب والتمنى ثم يجيئه المنصب هبة ، والجاه صلة ، والعطية هدية ، ترويضا له ، وتألفا لقومه من ورائه ، وإغراء لأمثاله من كل ناصل أو نافر كان لا يأبه بالعرض أو يتحصن عنه بالتأبى إلى حين ! . .

أما رجال على فقد كان النشب يجرى فى أخلادهم مجرى الأمنية لا يكاد يعدو مواقع الظنون والأوهام . فصاحبهم صلب فى الحق ، قوى فى الله ، قد حمى حولهم حمى من خلقه ، ومن المثل والقيم ، أوصد دونهم سبيل الانطلاق إلى عالم العروض . فإذا تطلع أحدهم فتطلع الناظر إلى سياج معوسج يعلو كالجبل وتعجز عن اجتيازه نزوة تثقلها القيم ، وتشدها المبادئ إلى حيث يجب أن تكون لا إلى حيث تحب أن تكون . . . هذا الصراع النفسى المتكرر ، على الزمن ، يوما يوما ، وساعة وساعة ، استطاع أن يجرد قلوبا ضعيفة كثيرة ، من القدرة على المقاومة والثبات ، لتتهيأ فى تربتها السبخة البيئة الملائمة لبذرة « الشهوة الدنيوية » لتنمو وتفرع وتأخذ طريقها إلى الازدهار . فما أصعب أن يغمض امرؤ عينه دون وهج الإغواء ، وما أشد تهافت الفراش على النار ! . .

إنها لطبيعة البشر . آدم نفسه قارف الثمرة الشهية وإنه للأمور بأن يتحصن منها ، ومنذر — لو ذاقها — بالضياع ! . لكن النذير لم يغن عنه ، واللذة العاجلة ، لحظة الشهوة ، طمست وعيه ، وأعيت صبره ، وأنسته لذة الخلود . . .

من الناس من قد يرى حقا لهذه الطائفة المشتهية المحرومة أن تعتذر — أو يعتذر لها — عن نزوعها إلى المادة بعض اعتذار . ومن يرى نصفة أن يحسب لها لا عليها تعلقها بالطبع البشرى الذى يجنح إلى الطموح ، إلى التفوق ، إلى حب الاقتناء مشدودة ببقايا الغرائز التى جبل عليها الإنسان منذ دب على الأرض دبيب

السائغة وسعى سعيه إلى إشباع رغباته دون أن يهذب انطلاقه إلى طريق الحيازة شيء من القيم الخلقية — فضلا عن الدينية — التي ترتفع ببشريته إلى المكارم فوق المناعم ، وإلى متعة الروح قبل متاع الأبدان . فهذه الغرائز أصلا هي الأداة لتأمين حياته . والإنسان ليس نورا وشفافية . والدنيا ليست بصومعة ناسك . . وهؤلاء الرجال الذين التحقوا بعلي وآزروه هم أناس من البشر . ثم هم بعد هذا لم يبخلوا بشيء على نصرته . ما منهم إلا من أبلى أحسن البلاء في سبيل ربه ، وأمته ، وإمامه ، وإنه جميعا لبلاء صادق رفع راية الحق والعدل والسلام . ما منهم إلا من ركب أخشن مركب ، وسلك أوعر مسلك ، وطعم العلقم والحرمان من أجل الظفر بحسنى العاقبة في هذا الصراع : وحدة ورخاء وطمأنينة . ما منهم إلا من تخلى حينا — طال أو قصر — عن شيئه وأمره : نشبا وطموحا ، منكرا ذاته ، كابحا نزواته ، كابتا رغباته عن طواعية واختيار أو عن قهر وإجبار . . . فأين الجزاء ؟ . . وإلى أي مدى يستطيعون التسامي على طبائعهم ويمكن أن يمسكهم صبر أو تصبر ؟ . . وأين لنفوسهم أن تظل هكذا جامدة حيث حبسها صاحبهم فلا تنوء بحملها وإنها لتلتزم بما يشق عليها ، ويتسرب اقتدارها على الاحتمال رويدا رويدا في هذا المناخ النفسي الذي يمتصر منها جلدها ، ويمتصه امتصاص الرمل لقطرات مطر أسقطتها غيمة عابرة على أديم صحراء صديان ؟ . .

ثم ها هم أولاء — على فرط التزامهم — يشهدون أعداءهم المترخصين في الحق ، العابثين بالقيم ، المؤازرين الضلال ، ينعمون دونهم بما هم أولى به . يستزيدون يوما وراء يوم من أطايب الحياة . من الأمن في الأهل ، من الوفرة في المال ، من العزة في الجاه كأنما الغرم موكل أبدا بالأخيار ! . . فهلا من ثغرة يطلون منها على الشطر الثاني من حياتهم البشرية ؟ . . هلا من فرجة في هذا السياج الموسج ، العالي كالجبل ، الحصين كالمستحيل ، تفتح أمامهم أفق التطلع ! . . هلا من أمل ؟ . . من برق خير ؟ . . من علالة منفعة تثبت بها كفة المادة بعض ثبات وتقي ميزانهم النفسي الاختلال ؟ . .

الذين راودهم هذا الخاطر لم يكونوا قلة في صفوف أهل العراق . والذين يعتذرون لهم ليسوا قلة حينذاك ، والآن ، وإلى ما بعد أجيال وأجيال . فالقلوب

دائما تهفو للطموح ، للتفوق ، للمغنم ، للمال ، لكل عدة من هذه وتلك ومن شبيهاتها يعتد بها لتأكيد الكيان وتأمين الحياة . وحديث الأشتر لا يغفل هذه الحقيقة ، وإنما يعبر عنها تعبير معاصر لخلجات القوم ، متتبع تطورها ، عليم باتجاهاتها . وهو حين طلب إلى الإمام أن يخفف قبضته عن أسحار الناس ، ويتألفهم بالمال ليعطفهم حوله ، وتميل أعناقهم إليه ، قد كان حقا بمنزلة من عرف الداء فوصف الدواء . ولعلنا اليوم نجد بيننا فرقة من أصحاب الشغف بالمقارنة والنقد تسخط تشدد أمير المؤمنين وهى تستحضر فى بالها قصة المؤلفة قلوبهم من قريش الذين حباهم رسول الله — تألفا لهم ، واستبقاء لطاعتهم — فضلا من عطاء عقب حنين والطائف ، بزت به أنصبتهم أنصبة سواهم من المسلمين ذوى القدمة الذين رعوا الإسلام فى مهده وناضلوا عنه كفار الجزيرة ، وأولئك المؤلفة منهم ، حتى شب واستطال . . .

فى مجال المقابلة لا نستبعد أن يتقدم مجادل بهذه القصة اعتذارا ، من ناحية ، لأصحاب على الذين رنت أبصارهم إلى الدنيا مصدرين فى رنوهم عن سليقة النفس البشرية ، وإزراء ، من ناحية ، بتشدد على حيث كان ينبغى أن يترخص وله أسوة فى رسول الله . . . ولقد يبدو هذا المنطق الجدلي — فى أولى ومضاته — خليقا بالاعتبار . فالرسول قد فضل أناسا على أناس ، ولم يكونوا بخير الناس ، ولكنه فعل استجابة لوحى الموقف ، وثبت بالتألف أقدام فرقة حرية — إن لم يحبوها — بأن تنزلق بعيدا عن الجماعة ، فيتصدع الصنف ، وتتفرق الوحدة ، فى وقت الأمة أحوج إلى اجتماع الشمل ، وتوثيق العقدة . وفعل لأنه رآها سياسة محمودة أن يفعل ، لا تغفل عن كنه الطبائع وتركيبها ، ولا عن خضوع السلوك للنوازع النفسية ، ولا عن دواعى المال وظروفه التى عاشتها آنذاك نفوس لا تسعفها طبيعتها البشرية بالتجرد من الأثرة ، والتنزه عن الدنيا ، والقدرة على إخضاع البدن للروح . . فإذا كان محمد ، وهو راعى العدل ، وناصب ميزانه ، قد رأى أمام إلحاح الموقف أن يؤثر ليتألف ، أفليست الحال الآن حيال الإمام أشبه بالحال ، وجديرة بأن تنال منه بعض تحلل من صلابته ، وأنه لو تحلل لقاض على جرثومة تفكك فى جيشه تهم أن تنخر فيه ، وسالك نهجا رشيدا شقه قبله ، وسار فيه ، أعرف امرىء بما يجب أن يكون ؟ . .

كلا ولا جدال ! . .

لقد وجد بعض الأنصار لذلك التمييز الذى آذاهم وسخطوه ، ولغطوا به ، فأقبل محمد عليهم ، يبين لهم ، ويستفيئهم إلى الرضا الذى خرجوا عنه :

« إنما أعطى قوما حديثى عهد بالإسلام ، أتألفهم عليه . . أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا برسول الله إلى رحالكم ؟ . . »

أما اليوم فالإسلام قد تم . والعدل استكمل قوامه ولا سبيل إلى تجزئته والترخص فيه . وهذه الحرب المشبوبة بين فريقى الأمة إنما اندلعت لتوطيد مثل الإسلام وقيمه قبل أن تندلع لتأديب جماعة من الخارجين على سلطان الدولة ، أو بسبب منازعة عامل صاحب الإمرة الشرعية سطوة الحكم والنفوذ . . . والذين سخطوا أيضا تصرف الرسول آنذاك إنما سخطوا انسياقا وراء عاطفة خرقاء حركتها غيرتهم من بعض قريش أن يحظوا دونهم بعطف محمد لا غضبا لشدخ مبدأ أو هدم قيمة . . فما جار رسول الله — حين فضل أولئك — على حق أحد غيرهم من الناس لا على حساب العدل ، ولا على حساب حق الأمة آثرهم من العطاء بمزيد ، وإنما جورا على حقه هو ، وانتقاصا من نصيبه الخاص أعطاهم إذ كانت الفضلة التى حباهم بها من خمس الخمس الذى شرعه له الله . فهل من ضير إذن أن ينزل عن حقه ، أو بعضه ، ليؤثر من شاء بما شاء ، تمكينا لدين الله ؟ . .

الحال ليست الحال .

ولمن أراد من بعد أن يمارى فلينشر صحيفة ابن أبى طالب أمامه ليرى أكان يؤثر نفسه بشىء ، أو يفاوت بين الناس فى العطاء على المنازل والأجناس ، أو يرجىء عنهم حقهم من المال ، أو ينقصهم منه . . .

. . . قال له غلامه « قنبر » يوما :

« يا أمير المؤمنين ، لقد خبأت لك خبيئا . . »

« وما هو ويحك ! . . »

قال :

« قم معى . . »

وانطلق به إلى داره فوضع بين يديه غرارة مملوءة من جامات : ذهبا وفضة ، وهو يقول :

« رأيتك لا تترك شيئا إلا قسمته ، فادخرت لك هذا من بيت المال . . »

فغضب ، وصاح بغلامه :

« ويحك يا قنبر ! .. أردت أن تدخل بيتي نارا عظيمة ... »

ثم دعا بالناس ، فقال :

« اقسموه بالحصص » .

ومضى على الأثر إلى بيت المال فأخذ يقسم بينهم كل ما وجد فيه حتى وقع على إبر ومسال جاءته من بعض عماله ، فدفعها للناس :

« ولتقسموا هذه .. »

قالوا :

« لا حاجة لنا فيها » .

فأبى أن يدعوها ، وقال لهم ضاحكا :

« ليؤخذن خيره مع شره ! .. »

ما كان ليؤثر نفسه بشيء على الناس ، وكان دائما يقول لهم :

« يا أهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ، ورحلي وغلامي ، فأنا خائن ! .. »

وكان يخف دائما إلى تقسيم الأعطيات على الناس ، كلما اجتمع لديه منها شيء ، ويكره أن يؤخرها عنهم ، كأنما يتأثم من إرجائها أو اكتنازها لهم إلى حين ، ولا يهدأ له بال إلا حين يكنس بيت المال كل جمعة ، ثم يصلي فيه ركعتين ، ويقول :

« ليشهد لي يوم القيامة ... »

ولم يكن يؤثر أحدا على أحد في القسمة ، لا بمنزل وقدمة ، ولا بلون وجنس .. أتته امرأتان ذات يوم ، إحداهما من العرب ، والأخرى من الموالي ، فسألتاه . فدفع إليهما دراهم وطعاما بالسواء ، فقالت الأولى :

« إني امرأة من العرب ، وهذه من العجم ... »

فابتسم وقال :

« إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلا على بني إسحاق ! ... »

لمن أراد أيضا أن يماري ، وقد وضحت له سياسة الإمام في القسمة ، أن ينفض ثانيا جعبته ، ويتبين ما ملكت يمين ابن أبي طالب ثم يطالبه أن يتألف من فائض ماله المتذمر والساخط والمتطلع إلى زخارف الحياة ...

لقد كانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع ، فيطعم الناس منها الخبز واللحم ويأكل هو الثريد بالزيت . . .

ولقد دخل عليه مرة صاحب له فإذا بين يديه لبن حامض له ريح نفاذة من شدة حموضته ، ومعه رغيف يابس على وجهه قشار الشعير وهو يكسره ويستعين أحيانا بركبته . فآذى الصاحب ما رأى ، وهتف بجارية الإمام يلومها :

« يا فضة ! . . أما تتقون الله فى هذا الشيخ ! . . ألا نخلتم دقيقه ؟ . . »

قالت فضة :

« إنا نكره أن نؤجر ويأثم . . قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقا ما صحبناه . . »

ولم يكن على ملقيا باله إلى الحديث بين صاحبه وجاريته حتى صكت سمعه كلمة أو كلمتان من قول فضة ، فالتفت إليها يسألها :

« ما تقولين ؟ . . »

قالت تشير إلى صاحبه :

« سله » .

فاستنبأه الأمر ، فأجابه :

« إنى قلت لها : لو نخلتم دقيقه . . »

فإذا الدمع يملأ عندئذ عينى الإمام ، فيقول :

« بأبى وأمى من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز بر حتى فارق الدنيا ، ولم ينخل دقيقه . . »

وقال :

« كان رسول الله يأكل أيبس من هذا » ولوح برغيفه . « وكان يلبس أخشن من هذا » وأشار إلى ثوبه . « فإن أنا لم آخذ بما أخذ به ، خشيت ألا ألحق به . . . »

ولقد قيل له ذات مرة ، وقد هال أصحابه إسرافه الشديد فى ماله بالصدقة والبذل :

« كم تتصدق ! . . كم تخرج مالك ! . . ألا تمسك ! . . »

فكان جوابه :

« إنى والله لو أعلم أن الله قبل منى قرضا واحدا لأمسكت . ولكننى والله ما أدرى أقبل منى شيئا أم لا . . »

أجل . لمن أراد أن يجارى بعد هذا فليفعل ! فأما والرجل هو من هو فى عدله ، وفى تسويته بين الناس على اختلاف الأنساب والأحساب وتباين الألوان والأجناس ، وفى يبس مأكله ، وخشونة ثوبه ، وخشونة حياته ، وعزوفه عن العرض ، وخروجه دائما دائما عن كل فضلة من ماله — إن لم يكن ماله كله إلا فضله — فإن السبيل بعد هذا إلى اصطناع الأنصار واستمالة الرقاب من بيت المال جورا على حق غيرهم من الأمة ، وافتئاتا على العدل العام ، لهو الترخص الذى يأباه خلقه ، وترفضه سجاياه إن لم يكن الدنية التى تحرمها شريعة الله ! . .

١

لم يجتمع له ما أمل أن يكفى اللقاء الحاسم . البصرة تثاقلت . والكوفة تثاقلت . والأيام وهى تمر تزود عدوه بزاد الإعداد ، وتحرمه هو فرصة المبادرة كما تحرمه سرعة الحركة . . . والأقوال بعد هذا تشيع فى جنوده بأن التريث إلى حين أولى وأنفع . والسير إلى الخارجة — قبل الشام — تأمين للظهر ، وسد للعورة ، وجنة تقيهم كسرة مفاجئة من أولئك المتربصين عند النهر ، على عتبات البلدة ، ينتظرون خلوها من حماتها ليعملوا فيها السيف ، ويركبوها بطغيانهم الذى يهمون أن ينفثوه كالسموم . . .

وهو لا ينكر عليهم خشيتهم . ولكنه ينكر عليهم أنهم جسموا أمام أبصارهم وبصره هذه الخشية حتى بدت كقارعة . وأنهم ركبوها مطية للتنصل من دعوة السير لقتال عدوهم الأول . وأنهم ستروا خلفها ثبوطهم فقعدوا ولم يصرفوا جهدا مذكورا للتجهز للحرب . وأنها أسلمتهم إلى دعة رخية استمرأوا معها طعم السلم ، حتى جرى فى دمائهم كمخدر ، فتر الجوارح كما فتر الهمم . . . ولقد كانت ثمة طائفة منهم ترى رأيه ، وتتعجل اللقاء الأكبر تعجلا للأمن الأكبر ، ولكنها كانت قلة يكاد صوتها يغرق فى أصداء لغط التريث وضوضاء الإرجاء . . .

وما كانت متطيرا إذ أنكر . ولا كان متعلقا بوهم صورته بعض البوادر . لكن النظرة المحيطة بالظروف التى رسمت الموقف ، وبالاتجاهات التى راحت تسوقه إلى عاقبته المرهوبة هى التى أججت قلقه . فالنكسة قد بدأت منذ فتنة المصاحف فى صفين . بدأت إشفاقا من استحار القتل . ثم مللا من القتال . ثم ميلا إلى الدعة، ثم استسلاما للواقع . ثم تنكرا للقيم التى شبت هذه الحرب — حين شبت — لتجلوها وتذهب عنها بالنار صدأ البهتان ... وهذه الخارجة التى خرجت عليه هى نبتة هذه الفتنة . والانتقاض عليه فى التحكيم جذعها . والتقاعد فى البصرة وفى الكوفة بعض فروعها . أما ثمرها المر فالقدر يدخره إلى حين . . .

ولقد أسف لحال القوم . بمقياسه العدل أسف من أجلهم لا منهم . . . فإنه

لصاحب رسالة لا صاحب دنيا ، لا يضيره أن يموت دون رسالته وإنما يؤسفه أن تموت دونها القلوب . وأن يعلو سلطان الدنيا على سلطان الحق . وأن تتهاوى النفوس تحت ضغط أدرانها إلى الرغام . . .

وفى بعض ومضات الرجاء التى كانت تتسرب إلى نفسه ، وتلقى بأثر شعاع على الموقف الداكن ، مضى يخاطب أهل حاضرته وإنه لمشفق الإشفاق كله على رجائه أن يذوب فى الظلمة ، وعلى أولئك المحتشدين أمامه من وقر السمع وعشا البصيرة . . . ولكنها على أى حال محاولة جديرة بأن تكون . والطبيب دائما يقدم الفأل وإن ملأته مظاهر الداء وعلاماته بالشؤم والتطير . . .

قال يهيب بالقوم :

« يا أهل الكوفة . . أنتم إخوانى وأنصارى ، وأعوانى على الحق ، وصحابتى على جهاد عدوى المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل . . وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتنى منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل . فأعينونى بمناصحة جلية خلية من الغش . . . إنى أسألكم أن يكتب لى رئيس كل قوم ما فى عشيرته من المقاتلة ، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ، وعبدان العشيرة ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا . . . . . . »

فاستقبله أشرافهم بالقبول . بادر سعيد بن قيس الهمدانى ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سمعا وطاعة . . أنا أول من أجاب . . . »

وثنى معقل بن قيس . ثم عدى بن حاتم ، فزياد بن خصفة ، فحجر بن عدى ، فغيرهم ، يسابقون إلى تلبية الدعوة . وما لبثت قوائم الجند أن توالت ، تتبعها الجنود المصطفة فى العدة والجهاز حتى بدا كأن الأمر قد عاد سيرته الأولى ، وبلغت الأنفس ذروة الولاء والأهبة للفداء . . .

لكن القلوب لم تكن — مع هذا كله — مجمعة الرأى على « القصد » وإن أجمعت — فيما يلوح — على الوسيلة . إنهم لا يرفضون القتال ، وإنما يختلفون فى « موقع » الحرب ، وفى « العدو » الذى له تجيشوا وتسلحوا وإليه هموا أن يغذوا السير . . . أ إلى النهر أم إلى الشام ؟ . . أإلى الخارجة أم إلى معاوية ؟ . . أهى حرب تأمين جزئية على عتبة حاضرتهم ، أم هى حرب فاصلة

حاسمة تنقض على الغريم الأكبر وتردع بقمعه والقضاء عليه كل من وراءه ومن دونه من الشاغبين والمخالفين ؟ . .

الخشية من الخوارج ظلت تخايل الكثرة منهم ، وتلح عليهم الإلحاح الذى يترك الرأى وهو شتيت . والهمس يتطاير . والجرس يعلو . والجدل بينهم يعتمل ويثور . . . ولم يكتموا رغبتهم ، وإنما تداولوها فيما بينهم ، صريحة ، بلا تحرز ، ولا مواربة :

« لو سار بنا إلى هذه الخارجة ، فبدأنا بها . . . »

فكأنما لهم الأمر . وكأنما السنة فى الجيش — أى جيش — أن يختار الجند أنفسهم لأنفسهم الموقع والخطة والعدو والحركة وساعة اللقاء لا أن يصغوا لرأى قيادة هى التى تزن وتنظم وتخطط وتوجه وتدير المعركة فى المكان والزمان اللذين تراهما كفيلين بالنصر . . .

أم لعلها أمنية خالجتهم ؟.. إن تكن هذه أو تلك محاولتهم عندئذ قد شكلت « ضغطا » على أميرهم يستمد القوة من رغباتهم ويدع السبيل مفتوحا إلى النيل هونا من معنويات الجيش لو جاء السير على غير ما يشتهون ، ثم يضع قيدا على حرية قائدهم فى التصرف والحركة وهو يستعيد فى باله ، عند كل خطوة يخطوها ، ما قد طالعوه به ، ويحسب له كل حساب . وإذا ما اختلفت النظرة بين الجند والقائد فالطاعة خليقة بأن تتقلقل ، والنظام حرى بأن يضطرب ، واتجاه الالزام يغدو أدنى إلى انعكاس خطه الطبيعى فيتسنم التابع وينزل المتبوع !

وتحرك الإمام ثانية يحاول أن يحد من شططهم هذا الذى يوشك أن يقترب بجيشه من الفوضى والاختلال وانقطاع النظام إن لم يقارب الخروج والتمرد ...

قال وقد جمعهم لبحث الأمر :

« . . قد بلغنى قولكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى خرجت عليه فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحلين ... ... »

فدارت عيونهم بينهم مليا وإن فكرتهم تلك ستدور أيضا دورانها فى الأخلاد حول محور الرغبة . . . لكن كلماته القلائل التى سرى فى نبراتها جرس الإباء ولهجة القطع ، خلفتهم على تربص ، ينظرون . . .

وأكمل :

« .. إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم . فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ، ملاكا ، ويتخذوا عباد الله خولا ... »

ولم يأتهم قوله بحجة جديدة ، ولكن شيئا من هيبته — فيما أحسب — قد وقع إذ ذاك فى قلوبهم حتى أنساهم منطقهم ، ودفعهم — أو دفع كثرتهم الغالبة — افتتانا بشخصيته ، إلى الانصياع ...

وتنادوا من جوانب الجمع :

« سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ... »

ونهض صيفى بن فسيل الشيبانى يفصح عن تأييده :

« يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك ، نعادى من عاديت ، ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا ، وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع .. »

وعقب بعده محرز بن شهاب التميمى :

« يا أمير المؤمنين ، شيعتك كقلب رجل واحد فى الإجماع على نصرتك ، والجد فى جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أى الفريقين أحببت ، فإنا شيعتك الذين نرجو فى طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونخاف فى خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال .. »

أفكان هذا هو رأى الجمع قد ساقه بعضهم عن اقتناع أم كان وليد عاطفة عارضة ، وحماسة طرأت والإمام حيالهم يطالعهم بنظرته ؟.. إنك حين تزن حقيقة الإجماع على اتجاه لا بد أن تعرف إلى أى مدى أزرته معارضة كانت لا تؤمن به منذ حين ، لتصفو أمامك مرآة الواقع ، وتعرف إلى أين ذاك الاتجاه . لكن الذين مالوا إلى « تجميد » حرب الشام ، ولم تسعفهم طبيعة الموقف بالمجاهرة بالتجميد — نأيا بأنفسهم عن مواقع الزيغ والشبهة — تستروا هذه اللحظة بالصمت ، لا يقرون ولا ينكرون فحسبهم أن يدعوا القوم وما هم فيه وإنهم يعلمون أن عمر الحماسة قصير . وبحسبهم أنهم قد حرثوا لهذا التجميد تربة صالحة منذ الموادعة فى صفين . وبحسبهم أن استطاعوا شغل الأذهان بالعدو « القريب »

التربص على عتبة بلدتهم ملقين فى روع الناس أنه أولى بتعجيل سحقه من عدوهم « البعيد » الآخر ، الذى يجنهم عنه بعد الشقة ، وإيثاره السلامة داخل حدوده ، وميله المعروف إلى التمسك بهذه الهدنة العارضة ، إلا أن يخرجه من قوقعته سيرهم إليه . . .

فى هذا الاجتماع لم ينطق الأشعث . وما كان لينطق حق لا يشى به ميل نذره منذ البدء لكف الحرب عن معاوية وعن قومه اليمنية الذين لاذوا به وآزروه . إنه لينكر — لا شك — ما جهر الناس به من وجوب تقديم السير إلى الشام على السير إلى النهر ، ولكنه يرجئ إنكاره ، ويدخر الجهر برأيه حتى تخف فورة الحماسة العارضة ، وينحسر المد ، وتتكشف الأحداث عن ظروف أصلح لانطلاقه . ولا أيسر عليه عندئذ من تصيد الأسباب والدواعى ، ولا أيسر أيضا من انحرافه بالاتجاه العام إلى وجهته الخاصة التى مهد طويلا طريقها والنفوس جميعا مشحونة بما يعطفها إلى متابعته حيث يريد أن يسير . . .

ولم تبخل عليه الأحداث بما شاء . فما أسرع ما جاءت الأنباء بسوء سيرة الخارجة — حيث ارتحلوا وأقاموا — فى الناس ، واقترافهم ألوانا من الفساد بعدوا بها عن كل متوقع من أمثالهم ذوى الجباه السوداء ، المتنسبين للورع والتقوى ، المتشبثين بحرف القرآن . . .

وكثرت القالة فيهم . فهم يعيثون فسادا فى الأرض . ينشرون الإرهاب ، ويشيعون الذعر ، وينتقصون الأمن ، ويكثرون القتل . ولاكت الألسن ما اقترفوا ، ووجد الكثيرون فيه سندا لتوجسهم منهم ، ودواعى للتعجيل بقمعهم . وتزيد — لا ريب — أناس فيه ، وجسم خطره آخرون . وما يستطيع أحد أن ينكر أن الخارجة قد جنحت إلى الشطط فى سيرتها بالنهر ، فدأبها الشطط دائما — منذ نجمت — فى كل ما أصدرت عنه من فعل أو قول . ولكننى أحسبها قد رأت ، أو رأت بضعة منهم ، أنهم خليقون أن يوطدوا بالشدة هيبة اقلتهم فى مقامها ذاك ، كفيلة بأن تردع عنها كل ساخط دعوتهم ، مستهين بشأنهم ، طامع فيهم ، وأن تفىء بهم إلى شىء من طمأنينة يعوزهم فى معتزلهم الذى اختاروا إذ تشعرهم أنهم هم الأعلون فى مجتمعهم الجديد وترضى غرورهم وكبرياءهم .

غير أنها فى الحق ليست سوى شدة المذعور الذى يتوهم الخطر فى كل حركة ، لا شدة القادر القوى المدل بالسطوة . وحين نستقرئ ما اقترفوا نكاد نتبين فيه صورا من أهواء متفرقة اتخذت مظاهر من السلوك الفردى المنحرف الذى يدل على القلق النفسى واختلال التقدير قبل أن نجد فيه لونا من « العدوان الجماعى » الصادر عن وحى تصرف عام . فلم نرهم ، بعد محاولتهم دخول المدائن ، قد أعادوا الكرة ، ولا حاولوا اقتحام بلدة محاولة فتح وغزو ، ولا أغاروا إغارة منظمة شاملة على مكان مأهول . ولم نألف منهم ، منذ خرجوا خرجتهم من الكوفة والبصرة ، إلا سير المتخبط المضطرب الذى ينطلق عفوا عسى أن يجد المأمن ، أو يجد نصرا لا يتوقعه ولم يعد له . ولقد كان قصاراهم أن يتستروا بالليل ما وسعهم التستر ، وأن يفروا من اللقاء ما وسعهم الفرار . فعلوا هذا حينما انبرى لهم سعد ابن مسعود وقد لقيهم عند موقع الكرخ ، فلم يستقبلوه استقبال قوة لقوة ، بل ناوشوه المناوشة التى تدنيهم من الليل ليتخذوه سربا للهروب . وفعلوه أيضا حين تبعهم أبو الأسود الدؤلى عند الجسر الأكبر ، فتحاموه بالظلمة ثم أدلجوا هاربين . . فهم إذن موقنون بعجزهم عن مواجهة حرب سافرة ، عليمون بأن قوتهم ليست بالتى تثبت فى قتال جاد . أو هم — فى القليل — لم يجعلوا من القتال فى آونتهم تلك وسيلتهم إلى مآربهم ، ولا وضعوا لأنفسهم خطة تعتمد عليه وتكون السبيل لتنفيذ سياستهم . ولعلهم قد شاءوا الاعتزال إلى حين . ولعلهم قد أرجأوا الحرب — إن كانوا بيتوا عليها النية — حتى يشتد ساعدهم ، ويكثر جمعهم ، ويزودهم الوقت بزاد جديد من النصر ، أو يكرهوا عليها حتف الأنف فلا يصبح لهم عنها محيص . . . فإذا نحن بعد هذا استنبأنا دخائلهم ، لا يعسر أن نجد التردد يحكم خطاهم ، ويكبل سلوكهم ، ويعوق أمانيهم أن تتمثل حقيقة حية تدب فى دنيا الواقع على قدمين ! . . فمعروف أنهم لم يسلموا من تلوم ما فتئوا يستشعرونه ويتناولون أنفسهم به لأن موقفهم إبان صفين حين دعوا إلى الاحتكام للقرآن هو الذى فرخ الفتنة . ومعروف أنهم الآن يعتنقون نفس نظرة على ويرون مثله وجوب مناجزة معاوية وإن كانوا قد شاءوا لهذه المناجزة أن تقع قبل التحكيم . ومعروف أنهم يؤمنون بأن الإمام على شاكلتهم رجل دين من أهل القرآن وغريمه رجل دنيا وضلال . . . وقوم شأنهم كهذا خليقون — عند

سير الأمور وإمعان النظر — أن يقتحم الدخل عليهم نواياهم ، وتحيط الشبه بداخل سلوكهم ، ثم يتيهون فى حيرة . . .

ومع ذلك فالكوفة استكثرت ما اقترفوا فى النهر كأنما وزنته بغير ميزانه ؟ . . من بينها أناس أفظعهم التصرف . ومن بينها أناس رأوه كارثة . ومن بينها أناس تبينوه خطرا ليس بعده على الدولة خطر، يهون دونه خطر الشام بانشقاقها على الأمة وبجيشها المنظم ، وبجندها المجهز بخير عتاد وزاد . . فإذا نحن قسنا بقياس سليم تكلم الجرائم التى ارتكبتها الخارجة وهالت الكوفة هذا الهول الأكبر لكان حقا لنا أن نعجب لهذا الهول وننكره ، لأن المقدمة لاتنجب هذه النتيجة ، ولأن شواهد الحال تأباها . فمن المحال أن تبنى الصرح الشامخ على الرمل ولاينهار إلا أن تمد له دعامة ركينة تذهب تحته فى الأرض إلى أبعد غور لترتكز على الصخر ! . .

فما هى إذن تكلم الدعامة ؟ . . ما هى القوة التى آزرت هوان جرائر أصحاب النهر فأكسبتها أبدا جملها الهول الأكبر ؟ . .

إنها الدعوة إلى الفزع ! . . فلقد كانت ثمة لاريب دعوة صاحبت هذه الجرائر ونفخت فيها ، وأزكتها نارا مدمرة . . وما أريد هنا أن أسمى داعية بذاته قد آثارها ، وتنادى بها بين الناس . ولكننى لا أستطيع فى هذا المجال أن أبرئ الأشعث بن قيس وشرذمة أخرى على شاكلته من التشدق بالخطر الموهوم ، وتغذية أنباء الجرائر بما ينميها ويفظعها على النفوس . فالرجل وشرذمته أهل موادعة . وهم لا يشاءون لأنفسهم أن يظهروا منكرين للحرب حتى لا تأكلهم الألسن . ولقاء الخارجة رده لهم من شبهة التثبيط والتخلف . والبلدة قبل هذا وبعده أكثرت القول فى الخطر المتربص على عتبتها ، فحديثهم إذن عنه ، ودعوتهم لوأده ، لن تنفر منها أذن ، لأنها تساير الاتجاه العام . .

بغريزة القطيع التى حركتها صيحة الفزع انحرفت الكوفة إلى هذا الطريق الجانبى ، وانطلقت منه مشحونة بعاطفة مضللة . بهلع موهوم ، بظل لخطر ؟ ... أما الدعوة الحقة . فمع معاوية . السير إلى الشام ، فقد غدت همسا لا يكاد تنفرج عنه الشفاه حتى يذوب فى صياح القطيع ! . .

٢

قصه الفزع الأكبر الذى عم الكوفة كانت ملهاة . بلية مضحكة . قهقهة عالية الرنين أطلقها القدر ليتردد صداها رعودا مدوية فى آذان القوم تزلزل جلدهم ، وتهز ثباتهم ، وتدفعهم يتلفتون رعدة وقلقا فلا تثبت لهم قدم ولا يستقر حملاق !..

إنها للفزع من خيال . من ظل يتحرك بليل .. أصلها واه ، وباعثها واهن ، وعقباها المنتظرة أوهن على أى امرئ يتجرد من التأثر بطبلها الأجوف ، ويحاول على روية أن يتلقاها بالتأمل والتفكير . لكأنها الحصاة الصغيرة توشك ألا تنال شيئاً من نهر يتدفق ، ولكنها حين تلق فى مائه تستطيع أن تغرقه ، وتحيل سطحه من حولها دوائر ودوائر لا تزال تتسع وتتوالى ، ثم تتسع وتتوالى ، حتى تمس بأقواسها المترامية شاطئيه ! . .

الخبر هين ، والمظهر يهول . . . فالخارجة فعلت . والخارجة عاثت . والخارجة قتلت . والخارجة لم تدع شيئا يفظع إلا كانت لها وراءه أصبع . . .
ومع هذا فإن وقائع الحال التى دونها الزمن فى تلك الحقبة وضمتها الأسفار لا تطالعنا بغير « عصابة » من الخارجة كانت هى التى أتت بما رج النفوس وشق على جلد الناس بالكوفة حتى تركهم فى صورة تخللها وغشاها ضباب الذهول حتى لتوشك أن تراهم جلودا تنضح بالجزع بدل العرق ، ومناخر تنفث الخوف بدل الزفير ، كأنما الجو كله حولهم قد استحال بهوائه وهبائه ذعرا خالصا لا مكان به لطمأنينة ... الحصاة الصغيرة فرقت الدوائر ، ووسعتها ، ورفعتها الواحدة فى إثر الأخرى أمواجا تترى . وتسبح ، لتضرب بخطوطها السارحة كل جوانب البلدة الهلوع . . .

ولقد لا ننسى هنا أن خطة الخوارج ، منذ بارحوا منازلهم فى البصرة وفى الكوفة ، كانت الانطلاق على استخفاء إلى منتجعهم الجديد . . فرادى انطلقوا ، أو شراذم صغيرة — بأوسع تقدير — نزولا على وصية صاحبهم زيد ابن حصين إذ نصحهم قبيل الرحيل :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا وحدانا ، مستخفين . »

ولقد لا ننسى كذلك انهم رأوا أنفسهم أهون من العصف بالمدائن واقتحامها على حماتها فآثروا الابتعاد عنها ، والانحراف بعيدا إلى موضع آخر مأمون ، عند جسر النهروان .

لا ننسى هذا وذاك . ولا ننسى أنهم وعوه وفعلوه لأنه يتفق وطبيعته الوضع الذى كانوا عليه ، والتستر الذى آثروه ، والخشية أن يجتذب أى « دنو » لهم من أرض مأهولة ، أو أى « تجمع » قد يضمهم أنظار الناس ، فيستقبلهم مناوئوهم بمقاومة لا قبل لهم بها فى وقت ما نراهم هيأوا فيه أنفسهم للقاء جاد ... فهم إذن قد مضوا وحدانا ، أو مضوا شراذم صغيرة مفرقة ، من بضعة نفر ، لو استبحنا التجاوز إلى هذا التقدير . وهم إذن قد جانبوا المدن والبقاع المأهولة التى قد لا ينجيهم دنوهم منها من مصير يرهبونه ، ويحرصون كل الحرص على تحاميه . وهم خليقون بعد هذا — وقد عسكروا عند النهر — أن يلزموا نفس سياستهم فيسكون تنقلهم أيضا فرادى ، أو مثنى وثلاث ، أو عصابات — مهما تمدد نفر الواحدة منها فلا نظنه يجاوز أقل القلة — إذا [illegible]سهم ظروف حياتهم اليومية الجديدة إلى التنقل من مكان لمكان ، بحثا عن زاد ، أو كشفا عن موقع ، أو عسا لتبين مكمن من مكامن الخطر ، لأنه لا يعقل قط أن يسيروا بجمعهم الكامل : أربعة آلاف ، ولا بنصفه ، ولا بمئين مثين . .

« عصابة » من جماعة الخارجة — كما حدثتنا الأخبار — هى التى قارفت تلك الجرائر التى أشاعت الذعر فى الكوفة وبهرت الأنفاس . عصابة من نفر قد يناهزون العشرة عدا ولكنهم لا يجاوزون الأربعين مهما مططنا نطاق التقدير . ولم يكن فعلها — فيما يلوح — عن إعداد مرسوم ينبئ عن اتفاق كافة الجماعة عليه ، ولكنه كان عفو لحظته ونتيجة خبطة عشواء . . فلقد جاء فيما روى عن فعلتهم أن خارجة البصرة أقبلت حتى دنت من إخوانها بالنهر ، فخرجت « عصابة » منهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا إليه ودعوه . وما أدرى فيما كانت الدعوة . ولكن لعلهم خشوا أن يكون عينا عليهم فرأوا أن يتثبتوا لأنفسهم . . .

ويبدو أن أمرهم أزعجه ، وقد كانوا لا ريب إذ ذاك فى السلاح ، فاضطرب وسقط عنه بعض ثوبه على الأرض . وعندئذ أرادوا التهوين عليه . .

سألوه :

« من أنت ؟ . . »

قال وهو يلتقط ثوبه ويلتقط معه أنفاسه :

« أنا عبد الله ، بن خباب بن الأرث . . »

« صاحب رسول الله ؟ . . »

« نعم » .

« لا روع عليك » .

فاطمأن هونا .

وعادوا يقولون :

« حدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي لعل الله ينفعنا به . . »

فتفكر مليا ، ثم أجاب:

« حدثني أبي عن رسول الله أن فتنة تكون ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسى مؤمنا . . »

فما كان أغناه عما قال ! . . ما أحسبه إلا قد نكأ بالحديث قرحة نفوسهم وأدماها . ألم يطف به حول حالهم ، والفتنة الواقعة ، وتداوبهم فيها من النقيض إلى النقيض حتى ليرون مرة الإيمان في التحكيم ثم يرون فيه الكفر والفسوق ؟ . .

وكأنما أحسوا أن الرجل قد شاء غمزهم والتعريض بهم ، فعاجلوه وإنهم ليحبسون غضبهم خلف نواجذهم :

« لهذا الحديث سألناك ! . . »

ثم أردفوا ليهتكوا خبيئة صدره :

« فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ . . »

فأثنى عليهما خيرا .

فسألوه ثانية :

« وما تقول في عثمان ، في أول خلافته وفي آخرها . . ؟ »

فأثنى كذلك .

فسألوه ثالثة :

« وما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ » .

فلم يتردد ، وأجاب :

« إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة . . »

وواضح من حركة الحوار ، مده وجزره ، أنه لم يكن مجرد سؤال وجوابه ، بل الأغلب على طابعه أنه كان نقاشا بينهم وبين الرجل ، يحاجونه فيه بمنطقهم ويحاجهم بمنطقه أو المنطق الذى كان عليه — عداهم — جمهور الناس ، ثم لم يصلنا منه إلا نزره وهو هذا النثار . فما كان لسؤال — أى سؤال — بادروه به فى مثل هذا المقام أن يحمله على الإجابة عليه إلا بقدر مقدور . بما يلزم . بعبارة هينة « مسطحة » ، بلا بعد ولا غور ، توصد وراءها الباب فتكف فضولهم عنه ولا تغريهم بالملاحقة والإلحاح . فأما وكلمات ابن خباب ذات عمق وأبعاد ، بما حوت من وصف حالهم ، وتعريض بهم ، ونقد لفعلهم ، وإعلاء لنظرة على على نظرتهم ، فإنها إذن الكلمات الخليقة بأن تجىء خلال جدل لا خلال استفسار . .

وكذلك حمى غضبهم عليه . أشعلته صراحة الر بن ، وخوضه فى شأنهم ، فاحترقت نفوسهم حقدا وموجدة ، فإذا بهم يخاشنونه :

« إنك لست تتبع الهدى ! . . إنما تتبع الرجال على أسمائها . . »

ونظروا إلى مصحف معلق فى عنقه ، وقالوا :

« إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك » .

فلم يزد على أن أصابهم بسكينة الإيمان :

« ما أحياه القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . . »

قالوا :

« والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا . . . »

وانقلبوا عليه يعنفون به وهو مستسلم صابر . فشدوا وثاقه ، ثم أقبلوا به وبامرأته وهى حبلى متم ، يسوقونه إلى مصيره . ونزلوا فى طريقهم تحت نخل مواقر ، فسقطت رطبة منه ، فأخذها رجل منهم فوضعها فى فيه يهم أن يلوكها ، فإذا صاحب له يصيح يزجره :

« بغير حلها ، وبغير ثمن ! . . »

فلفظها ولما تمسها أسنانه توقيا للحرام ! . .

ومر بهم خنزير فقتله آخر . فأنكر عليه رفاقه فعلته :

« هذا فساد فى الأرض ! »

وعوضوا صاحب الخنزير — وكان من أهل الذمة — عن دابته المرداة بما أرضاه . . .

ويبدو أن هذه اللمحات المشرقة من سلوكهم قد خدعت ابن خباب عن حقيقتهم وزودته من الأمل بزاد ظنه بشيرا بنجاته . فما هو أن رأى منهم التقدم على ما فرط فى الرطبة ، وفى دم الدابة ، حتى استبشر ، وقال بصوت خفيض كأنما يهمس لنفسه :

« لئن كنتم صادقين فيما أرى فما على منكم بأس . إنى لمسلم ، ما أحدثت حدثا فى الإسلام ، وقد أمنتمونى . . »

فإذا هو لا يكاد يكمل الهمس حتى يبادروه بنقيض ظنه ! . .

قتلوه ! . .

أضجعوه على حافة النهر وذبحوه ، فسال دمه يلون صفحته فى خطوط وقطرات كأنما يخط قصة وحشية رهيبة . ثم جاءوا بامرأته على الأثر يجرونها إلى ما أعدوا لها من جزاء لا يستقيم إلا فى شريعتهم الحمقاء .

وصرخت المرأة الملتاعة فيهم ، بكل أسى قلبها الجريح :

« ألا تتقون الله ! . . »

فما ردهم عنها شىء وأن زأرت ، وولولت وذكرتهم بقيم العدالة والرحمة . وأنى لهم أن يدعوها وإنهم لا يرون رحمة إلا فى عدلهم الخاص ، ولا عدلا إلا فى سنتهم ، ولا تقوى وتمسكا بأهداب الدين إلا فى إنفاذ مشيئة هى نتاج زواج حرام لأنفس مهزوزة من عقول مكزوزة ! . .

وأتبعوا الرجل امرأته . فبقروا بطنها عن جنينها ، وألقوا بهما إلى جواره سلبا هشيما لهذه الغزاة ! . . ثم قتلوا نسوة ثلاثا أخريات لعل أحدا لا يدرى بأية جريرة إن كان لا مناص عن تقصى الأسباب لكل بدوة لأولئك الخارجة تربط النتائج بالمقدمات . . ولكنهم إذ فعلوا ، إنما استشعروا لا ريب طمأنينة وراحة وقد شدتهم نظرتهم المتعصبة إلى إيمان موهوم يمرومهم ، ويسيطر على أحاسيسهم فيدفعهم إلى الثقة بأنهم بفعلهم هذا قد استأدوا حق الله ! . .

معالم على الجبال ! . . معالم تظهر إلى أى مدى كان القوم من جمود الضمائر واختلال التفكير . . فلأن يأكل أحدكم وطبة بغير حلها ، ولأن يقتل آخر دابة بغير عنها ، فإن هذه أو تلك لهى كبيرة الكبائر ، والحرام الذى ليس بعده فى صفحات الآثام حرام ! . . أما أن يذبحوا مؤمنا ، ويقطعوا جنينا مخلقا ، ويقضوا على طائفة أخرى صبرا أو غدرا وما تولتهم بسوء ولا قارفت جريرة ، فهذا هو الحلال البين الذى لا يريثهم عنه تلوم ولا يردهم تحرج ، ويقبلون عليه خفافا سراعا بالنفس الراضية المطمئنة والصدر المنبسط المشروح ! . .

فما هى آفتهم ؟ . . ما بلواهم ؟.. ما هو الداء الذى أصماهم ؟ . .

إنه الغلو !.. الغلو الذى يقتحم بهم كل معقول مقبول . التعصب الذى يورث الهوس فيشرد بالعقل عن كل سوية وقاعدة وقانون . الجنون الذى يشل التفكير ويمحق سلامة التقدير . .

إن سلامة النظرة فى أمر — أى أمر — هى التى تهب القدرة على وزنه حق الوزن بغير إخسار ولا تطفيف . وعدالة الميزان هى التى تجىء بصحة التقويم . وهذه الصحة بدورها هى التى تحدد قدر الأمر من غنى ، أو تبعته من جزاء . . .

غير أن الخارجة — فيما بلوناهم من قبل ومن بعد — كانوا أناسا يفتقرون إلى حاسة التمييز التى تصنع الاتزان .. كانوا فرقة على شبهة . كمه البصائر . عقولا مضطربة ، وقلوبا غلفا ، وضمائر مألوسة . . يتذاءبون دائما بين يمين ويسار ، وخلف وأمام بغير ثبات تذاؤب الذبالة المريضة كلما لعبت بها نفخة نسمة من هنا ومن هناك . يعرفون القلق ولا يعرفون القرار . لا يقفون عند مبدأ ، ولا يثبتون على رأى . إنما لا يزالون يتأرجحون بين الأمر ونقيضه من لحظة للحظة ، ثم لا يعوزهم فى الإقبال ولا فى التراجع منطق أخرق يؤيد كل بدوة تسوقهم إلى اقترافها أيما فكرة عارضة . الصواب دائما فيما يأتون وإن كان من قبل خطأ لفظوه إذ ذاك وحاسبوا عليه الناس . والخطأ فيما ينبذون وإن كان من قبل صوابا طالما آزروه وناضلوا عليه . النور أبدا على خطاهم . والحق أبدا ظلهم أينما تولوا ومالوا تولى ومال . فالذين يخالفون عن نظرتهم ، وينبرون لنقدها وزنا بميزان المنطق هم الخطاءون المارقون وإن كانوا المسلمين جميعا ، وإن أيدتهم فى محاجتهم عبرة الماضى ، وشواهد الحال ، وقوة التدليل .

هذه كانت نظرتهم . ومن لم يعتنقها فهو الآبق الخارج من دائرة الحق وحظيرة الدين . فكل مسلم — عداهم — ضال لأنه عارضهم يوم ظاهروا رفع المصاحف وأبى قبول دعوة التحكيم . وكل مسلم بعد هذا — عداهم — ضال حين رجعوا عن رأيهم هذا ، وشاءوا نقض ذلك العهد الذى ناضلوا على قبوله ، ثم أبرموه ، ثم ألزموا به عليا وأصحابه ، ثم ارتدوا عنه متنادين : «لاحكم إلا لله!» . وإذا كانوا قد أقروا على أنفسهم طواعية بالكفر إذ قبلوا الحكومة ثم تابوا عن القبول ، فكيف نعفيهم من رؤية « الردة » التى كابدوها ، فى قلوب أبناء الأمة الإسلامية جميعا الذين لم ينقضوا عهد الحكومة وثبتوا عليه — وفاء — إلى أجله المكتوب ؟ ..

« الردة » هى القضاء الذى قضوا به على كافة المسلمين . و « التوبة » — بعد الاعتراف بالكفر — هى الخلاص . ومن لم يعصم قلبه بهذه التوبة التى يفرضونها فليس جديرا بأن يكون فى صف الإيمان ، ولا بأن يوقى جزاء ارتداده ، ولا بأن يعصم منهم دمه وماله وولده لأنه عندئذ أعق شركا ممن لم يذق قط طعم الإيمان .. أما جب الإسلام الشرك ؟ . . أما برئ الله ورسوله من المشركين ؟ . . أما قال فى محكم تنزيله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » ؟ ..

زرعة بن البرج قال للإمام مرة :

« أما والله يا على لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله قاتلتك ، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه . . »

وعبد الله بن وهب قال لأصحابه قبيل مخرجهم من الكوفة ، يحثهم على هجرة فى الله حتى تعلو كلمته :

« .. اخرجوا بنا — إخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها ، منكرين لهذه البدع المضلة ... »

وقال لهم :

« إنكم أهل الحق .. »

وحكيم بن عبد الرحمن بن سعيد التبانى ، قطع ذات يوم على أمير المؤمنين خطبته بالمسجد ، وصاح به :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » .

فالدعوة إذن للحكومة — في رأيهم — شرك . والحكومة شرك . والرضا بها شرك . ولقد قال الله قولته فيمن يشرك وأبرم جزاءه فلا مناص لهم من التزام قول الله ، واتباع أمره وإنفاذه . فمن أولى إذن في الناس بإعلاء كلمة الله ، والأخذ بحقه ، ممن قارفوا الكفر فنزعوا عنه ، وعرفوا الإيمان فثابوا إليه ؟ ..

لا سواهم ! .. وإنهم لوحدهم على البينة البلقاء . الموكلون بدحض الشرك . المعتزمون تنقية الإيمان . الآخذون أنفسهم بتطهير الدين من كل متقحم وعابث وإن كان عليا والذين معه ، ومعاوية والذين معه ، والأمة جمعاء بشتى أقطارها من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين حربا بالدعوة ، وضربا بالسيف حتى تنزع وتتوب ؟ ..

٣

لم ينقسم رأى على امرئ من أعلام الناس في عصر من العصور مثلما انقسم الرأى أقساما ، وتشعب شعبا ، مع الإمام وعليه ، في تقدير مقومات بنيته النفسية أو مظاهر سلوكه المحسوس ، ذهابا مع التقدير والتصوير من أقصى نقيض إلى أقصى نقيض ، ومع الإقرار والإنكار من غاية الولاء إلى غاية اللدد في العداء ... وفيما بين طرفى غايتى الرأى كثرت النحل الموالية والمعادية ، كل فريق منهما يسلك طريقا طويلا ممدودا قد تعددت مراحله بتعدد منازع الذين طرقوه . فإذا أولى الطائفتين تبدأ من مجرد الاستسلام وإلقاء السمع له ، مأخوذة بسحر شخصيته أو راضخة لسلطانه ، لتمضى — تدرجا في متابعتها إياه ورضاها عنه — إلى حد تقديسه وتأليهه . . . وإذا الثانية تنطلق ، على سننها المغاير ، في أشواط انشقاقها عنه ، من مجرد خلاف تضمره النيات ، حتى يصل بها سخطها إلى تكفيره . . .

شيع شتى تزاحمت تنحله الصفات والأضداد في آن ، وتعاقبت على الزمن لا تنحصر في مكان . . إبان حياته ومماته ظاهروه ، ووقروه وعبدوه . وإبان حياته ومماته خالفوه ، وحاربوه ، وكفروه . وفي ظلال نزعاتهم — بكل غلوها

أو اعتدالها — عاشت الأرض الإسلامية تاريخها وهى لا تخلو من شعبة هنا وشعبة هناك ، تنشر بأوصافها — الموغلة منها فى العداء والمغرقة فى الولاء على السواء — ضبابا كثيفا حول خليقة الرجل الموصوف ، وحقيقة الأحداث والظروف . .

وما نبرئ الذين شطحوا فمالوا إليه حتى علوا به عن البشر وعدوه فى المقدسات ، ولا الذين اختبلوا فمالوا عنه حتى ألبسوه الضلالة ، ولكننا — مع هذا — لا يجمل بنا أن نلومهم وإن فسقناهم وذهبنا فى تفسيقهم أبعد الأشواط . فاللوم لا ينهض إلا على معايرة الأسباب الموضوعية التى ولدت الانحراف إلى هذا الجانب الموغل فى الإعلاء أو ذلك المغرق فى الإزراء ثم قياسها بالحساب المنطق الدقيق . فأما والنزعة هنا وهناك تعبر عن « جنون » عاطفى فإنه لا سبيل إذن إلى اللوم لأن « الخبال » لا يدخل فى نطاق الأفعال الاختيارية ومن ثم فلا وجود لأسباب تجيز العتاب ! .

ولد أنبأ رسول الله عن هذه الشطحات المجنونة من قبل أن تتمخض عنها وعن أصحابها الأيام . فلعلها عندئذ فراسة قد استقرأت فى صفات الإمام ومقومات خلقه ما تكشفت عنه الأحداث من سلوك أولئك وهؤلاء المدخولين نحوه بعد حين . . أو لعلها إشراقة إلهام ، طافت بخاطر خير من نطق فى هذه الدنيا عن إلهام ، جعلته يحرك بكامن صدورهم لسانه فيقول :

« فيك مثل من عيسى بن مريم .. أبغضته اليهود فبهتت أمه، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره . . »

وخبرهم على بنفسه من بعد ، إذ أحس منهم الشطط إلى يمين أو إلى شمال ، فقال :

« يهلك فى رجلان : محب غال ، ومبغض قال . . »

ولقد كان .

ولا عجب قط إن انبعث غلواء الإكبار والإعلاء من نفوس أنصاره الذين شايعوه ، أو غلواء البغض والإزراء من نفوس عدوه الذين شنأوه ، لأن المتشيع المحب يصغر العيب ، والعدو الكاره يصطنعه ويهول فيه وله من حسده

الذى يسد عليه منافذ الإنصاف ويستعبد حواسه وتفكيره ذخر ضخم عده بما يريد . . . لا عجب قط أن يحب المتشيع وأن يبغض العدو ، وإنما العجيب كله أن ينبع الحب والبغض من قلوب عرفت قدره والتفت به ثم يمضى كلاهما إلى الشأو الذى تتحطم دونه الحدود والأصول ، وتتيه فيه الأخيلة قبل العقول . .

ومع هذا فقد اجتمعت فى شيعته الفتنتان ! . . فى أنصاره من ذوى الهوس الدينى اجتمعتا ، ونضحت كل فرقة منهما بما فيها ، هذه تغلو فى حبه ، وتلك تغلو فى بغضه . لأن الغلواء ديدن العقول التى تدين بعبارة « الحرف » فيسيطر عليها عناد يجعلها دائما حبيسة نص مسطور لا تستطيع أن تستكنهه دواعيه ولا مراميه . وهاهم أولاء القراء ، فيما تكشف من سلوكهم وأحاديثهم ، أناس قد كلفوا السكاف كله بالإصرار على ما يرون أو يريدون ، لا يحولهم عنه منطق ولا برهان ، فماشوا فى غيابة جب من الجمود إن لم يكونوا تحولوا هم أنفسهم — عقولا وقلوبا — إلى جمود الجمود ! . .

ولقد علمنا كيف ارتد فريق منهم عن موالاته إلى معاداته ، ثم شطح بهم هذا العداء المجنون ، بعد التحكيم ، إلى رميه بالكفر والمروق حتى أباحوا دمه ودم أعوانه ، وعدوا حربه جهادا فى الله ، إلا أن يشهد على نفسه بالشرك . ويتوب ! . . فكأنما اقتضت طبيعة الوجود التى تجمع فى وفاضها الأمثال والأضداد : كثافة إلى شفافية ، وجمودا إلى سيولة ، وسوادا إلى بياض ، أن تعادل أيضا بينهم وبين طائفة على نقيضهم تجثم على الطرف الآخر من الغلواء . . . على نقيض أولئك الغالين فى البغضاء نجمت فرقة بين أشياعه سلت من صدورها وأخلادها كل ما لعله قد يخدش صفة من صفاته ، أو يمس بالمسنة الرقيقة الناقدة ؛ بل المتدبرة ، ذاته . . . لا عن روية وتقدير فعلوا ، وإنما — لا ريب — عن هيام مجنون بشخصه ، صدر عن خبال ، وسدر فى إكباره إلى ما يجاوز كل مقبول معقول ، ويخرق كل تصور وخيال . . . إنهم ليرقون به إلى النبوة . فإلى التنزيه . فإلى التقديس ، فإلى الإلهية المالكة الخالقة ، القادرة الرازقة ، الآبدة الواجدة ، الواحدة المعبودة ! . .

. . . إن منهم لمن اقتطعوا له نصيبا من نبوة رسول الله . . .

. . . وإن منهم لمن علوا درجة فى غيهم فافتروا على محمد أنه كتم عن الأمة من الوحى تسعة أعشار ، فأزاح على الستر ، وأظهرهم على السر ، حتى لقد كانوا يقولون :

« هدينا لوحى ضل عنه الناس ، وعلم خفى عنهم ! . . »

وإن منهم لمن حسبوا أن « إيمانهم » به معفيهم من الحساب ، لأنه يرفع عنهم التكليف ! . .

. . . وإن منهم لمن أمعنوا فى شطحتهم هذه ، حتى لقد أسقطوا الثواب والعقاب ، وجحدوا البعث والنشور ، قائلين :

« إنما الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها ! »

. . . وإن منهم لمن قالوا بخلوده ، وبقائه على الدهر ، لم يردهم عن ذلك أن مات وطواه التراب . فما مات ، وما يمكن أن يموت ! . . بل غاب إلى حين ، ولسوف يعود :

« لم يمت ! . . وإنه لفى السماء . . »

ثم اصطنعوا من ظواهر الطبيعة شاهدا على ما يزعمون . فالبرق صورته ، والرعد صوته . وكلما أرعدت السحب ، وسطعت فى جوانبها ومضات البرق ، رفعوا وجوههم نحوها فى خشوع ، ورددوا يحيون :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين . »

. . . وإن منهم لمن جعلوا له الحساب ، يعذب إذا شاء ، ويثيب إذا شاء ... مر يوما بقوم يأكلون فى نهار رمضان ، فهاله ما رأى منهم ، وأقبل يستفسرهم سر فعلتهم الشنعاء :

« أسفر أم مرض ؟ . . »

قالوا :

« لا ، ولا واحدة »

فعاد يسأل :

« فمن أهل الكتاب أنتم ، فتعصمكم الذمة والجزية ؟ . . »

« لا »

« فما بال الأكل فى رمضان ؟ . »

فإذا بهم يجابهونه بالرد الذى يجافى السليقة قبل أن يوقر الأسماع أو يزلزل العقول ، فيدعون أنه هو عاصمهم من جزاء ما يقترفون ، قائلين :

« أنت أنت . . »

ويصخب :

« ويلكم ! . . إنما أنا عبد من عبيد الله . . »

ويسجد عبودية لله ، ويلصق خده بالتراب .

لكنهم لا يرجعون عن هذا « الإيمان » بربوبيته وإن توعدهم أن يحرقهم بالنار ، بل يزيدهم وعيده تشبثا بإيمانهم المزعوم ، فمن يعذب بالنار غير الله :

. . . وإن منهم لمن ادعوا أنه الخلاق الرزاق ، فقال له قائلون :

« أنت خالقنا ورازقنا . . »

وقال آخرون :

« لو شاء لأحيا عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرين ! » .

فرق ونحل تدرجت فى مراتب الولاء له ، شعبة بعد شعبة ، وفرقة وراء فرقة ، على طريق الزمان الممدود ، وفى نطاق الدولة التى ترامت برقعتها التخوم والحدود . لم تنحبس حيث عاش ، ولا حين عاش وكان له سلطان ، وإنما انطلقت تردد دعوتها ودعواها أينما كان له شعبة وأتباع ، وأيان سرى ذكره ولقفته أسماع . . .

وما نريد أن نمضى شوطا آخر مع هذا النوع من الغلواء ، فبحسبنا أن رأيناه يرق بطبيعة الرجل « البشرية » إلى « الإلهية » وهو قصارى ما يمكن أن تبلغه عواطف الولاء . . ولكننا نحاول أن نكمل الجانب الآخر من الصورة ، ليلتق الضدان . ويجتمع النقيضان . .

إن الأنفس التى خامرتها البغضاء ، ليس يعنيها فى شىء — إن هى أسلست لجوحها القياد — أن تجأر بعاطفتها على ملأ الناس قدر ما يعنيها أن تجتر هذه العاطفة وتلوكها فى دخيلتها ، تلذذا بها ووفاء للعادة ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، قد لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، أو تنوشه بغثيان فلا يعنيه إلا أنها تشيع فى كيانه « متعة » تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعق غثيان . .

كهذه الشاكلة رأينا من رجاله — دع عنك مناوئيه — طائفة قد كتمت إلا عن « عالم النفس الداخلى » بغضه ، يعيشون معه وهم قواقع قد انطوت أصدافها على الغل وإن لاح ظاهرها براقا أملس يبهر النواظر حتى لتسلكهم — مخدوعة — فى صفوف الأعوان . . رأيناهم رياء يدب ويخطر على قدمين : على الشفاه عبارات ولاء ، وفى القلوب دودة بغضاء . . بعضهم أخفى غله ، ووسعه أن يسيطر فى صدره على ناره أن تثور إلا نفثات دخان تتسرب حينا من المرجل الفوار لتهدأ ثانية إلى حين . . وبعضهم أعجله مأرب ففسد « الصمام » واندلعت النار ! . .

ولا حاجة بنا كما أسلفنا ، لتقصى كافة المدخولين ، وأنهم لكثير ، فى صفوفه وفيمن اعتزلوه وبدوا من شيعته وشيعة عدوه على سواء لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء . . ولكننا حين نعرض لتلك الطائفة منهم ، التى أظهرت ميلها إليه ، وانخرطت حينا فى سلك الأعوان ، نجدها قد آزرته عن ألف دافع ودافع إلا عن اقتناع ولا نقول عن إيمان . . فالصيت الذى تضفيه عليهم متابعتهم إياه مدعاة . والقرب فيه من صفى رسول الله مدعاة . وخشية نقمة عامة قومهم عليهم مدعاة . والمباهاة والفخر والخيلاء مدعاة . والتطلع إلى ثمرة مظاهرته مدعاة . وكلها وغيرها عروض وقشور لا تثبت قط عند الاختبار . .

ولعل المثل ، ونحن نعجم قرائن الحال لنسوق الأمثال ، لا يعوزنا حتى فيمن لهج بحمده على الأشهاد ، وسل القلم واللسان ينضحان عنه ، ويفضحان غريمه بقذع من النعوت والأوصاف طالما تناقلتها الرواة . . لعل المثل قد لا يعوزنا فى « النجاشى الشاعر » الذى أسال فكره قريضا ونظما يفيض ثناء على مناقب الإمام وإعزازا لأمره ، وهجوا لابن هند وتحقيرا لشأنه ومسلكه . . ومع ذلك فلا يكاد هذا الشاعر الغاوى يتعرض للامتحان حتى ينقلب الميزان ، فإذا هو يرتد عن نهجه ، وإذا الممدوح هو الخليق بالهجاء ، والمذموم هو الحقيق بالثناء ! . .

خلط من الخلط يجريه الهوى . ويفرضه الإخلاص الأثيم للذات ولا نسائل أنفسنا فيم كان انقلاب الرجل ، أعدولا عن باطل كان ، أم استجابة لحق ، أم تشيئاً بمبدأ جديد . . . لا نسائل أنفسنا وأمامنا من خبره قرينة حال تغنى عن كل سؤال :

كان ذلك ذات رمضان . فى أول نهار من هذا الشهر الذى يعف المسلمون فيه عن الطعام والشراب والشهوات زكاة للنفس وتعبئة لقوى الروح . وكان النجاشي قد خرج من بيته يسير إلى غير غاية كأنما ليشغل بعض وقته ويملأ بالحركة ما يحسه فيه من فراغ ، فإذا هو يمر بصاحب له ، قد لاذ بفناء داره فأقرأه السلام . .

قال الرجل وهو يدعوه أن يلازمه لعله يغريه بالقبول :

« . . وهل لك فى رءوس وأليات قد وضعت فى التنور فى أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ »

فراجع الشاعر سمعه ثم رد فى استهجان :

« ويحك ! . . فى أول يوم من رمضان ؟ . . »

لكنه قبل . الطعام أغراه ، ثم أغراه بعده النبيذ ، فأهدر صومه ، وخرق شريعة الله . . ثم راح يعب وصاحبه من الشراب حتى فقدا الوعى وعلا صياحهما المحموم ينبىء عما اقترفاه . . . فلما انكشف الأمر ، وأخذ بسكره إلى الإمام أمر بجلده ثمانين جلدة وزاده عليها عشرين . . .

وكأنما هاله الجزاء فأطلق لسانه يقول :

« يا أمير المؤمنين . . أما الحد فقد عرفته ، فما هذه العلاوة ؟ »

قال على :

« لجراءتك على الله ، وإفطارك فى رمضان » .

فمن عجب أن تأخذه العزة بالإثم وتأخذ معه طائفة من اليمانية ، فيها طارق بن عبد الله بن كعب النهدى .. غضبوا له ولم يغضبوا لله ، فمشوا — بمنطق الاستكبار والاستعلاء — إلى الإمام يحاجونه وينكرون عليه ما كان . .

قال له طارق :

« يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان فى الجزاء حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث . . »

أفهذا منطق تناقش به جريرة الشاعر ؟ .. أم يرون قسطاس الله يحابى الناس على أصولهم فيلين بهم ما شرفت الأصول وإن خفت الأعمال ، ويشتد عليهم فى العقاب إن انخفضت الأحساب ، . . أم يريدون الإمام على أن يشترى من أتباعه طاعتهم بإهدار أحكام الله ؟ . .

وكرنه قولهم ، ولـكنه استمسك ما استطاع ليلفظ فى وجوههم جوابه الذى لا جواب غيره فى مثل هذا المقام :

« يا أخا نهد . . وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله ؟ . . »

ومع ذلك فقد أدلج طارق والشاعر بليل يفران من الحق إلى معاوية ، ملتحقين به ، ولاقيين فى رحابه النعمة التى يجدها عنده كل خوان ! . . ثم لائذين بمجلس لدنه لا يتشدق رواده فى صباح ولا مساء إلا بالطعن على الإمام واستخراج العيوب والمثالب من كل مكرمة وسعها خلقه واستوت فى سلوكه وطبعه مع سواها من المـكرمات تؤلف شعاعا هاديا لمن أراد الانطلاق على غير شبهة فى طريق الله . .

ولقد شاء معاوية كدأبه ، وإنه لفى أسر غله ، أن يداهن الوافد الجديد على حساب القيم الخلقية الرفيعة فراح يثلب محامد الإمام ويلطخ صحيفته النقيـة بالافتراء ليبدى صحيفة كل مرتد عنه منتقض عليه ناصعة بلقاء . . . شاء هذا فأطلق لسانه ما وسعته عبارة ذم ، وبالغ ما شاء ، ثم غلا فى قدحه إلى شأو لم يستطع عنـده أولئك المرتدون أنفسهم التصبر على السكوت ، فانفلت طارق من بينهم يعارضه ويقول :

« يا معاوية . . إنى متـكلم فلا يسخطك . . »

وتكلم . . لقد أنطقه الله عندئذ بكلام ليس من ثناء قط إن لم يكن هو الثناء على الإمام ، والذين معه من رجال . فهم منار للهدى . وهم معالم للدين . وهم عدول ، ليسوا بنا كثين ولا قاسطين . . وإنما غير هذا زمرة الناصلين منهم ، المنحرفين عنهم ، المنحازين مع الأهواء ، وإن كان هو أحدهم ، وإن أوشك أن يقرن طغمتهم بمن صبأ عن الإسلام ! . .

كان مما قال :

« . . فلم يكن رغبة من رغب عنهم ، وعن صحبتهم ، إلا لمرارة الحق حيث جرعوها ، ولوعورته حيث سلـكوها . . غلبت عليهم دنيا موثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فلقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم ، فرارا من الضيم ، وأنفا من الذلة . . فلا تفخرن يامعاوية إن نحن شددنا نحوك الرحال ، وأوضعنا إليك الركاب ! . . »

. . . وإن نحن أطفنا بأولئك الذين عاشوا على رياء فى صفوف الإمام طوال حياته ، يصابرون حقدهم أن يثور ، ويكتفون عن الإظهار بالإضمار ، وعن المكاشفة بالاجترار ، لرأينا على رأسهم الأشعث ، الذى كان يحسب دائما فى أعوانه حين القياس بالأقوال ، وفى عدوه وشانئيه حين تعجم النيات أو تستقصى الأهداف الخفية وراء أية بادرة بدرت منه ، يستوى فى هذا ماند عنه من بادرات التلميح ومظاهر السلوك الصريح . . ولئن كان قد ظل دائما فى ركاب الإمام ، فإنه لم يكن ، فى حقيقة الأمر وحكم الواقع ، محسوبا له بل محسوبا عليه ، ومنتقصا منه لا مضيفا إليه . . ولئن كان قد التزم صحبته ولم يفارقه ، فللأنفة فعل ، وللمباهاة والتفاخر وليس للولاء والوفاء . . ولعل أبلغ ما يصور لنا موقفه ، ذلك الحديث الذى جرى به لسان الهيثم بن الأسود أبى العريان ، حين استفسره معاوية مقدار إخلاص أهل العراق وأهل الشام ، كل فريق لأميره ، وصدقهم له النصح ، وفى سبيله البلاء . .

قال له معاوية يسأله ، عقب التحكيم :

« ياهيثم . . أهل العراق كانوا أنصح لعلى فى صفين ، أم أهل الشام لى ؟ . . »

فبادر على الأثر يجيب :

« أهل العراق قبل أن يضربوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم » .

فعجب معاوية :

« كيف قلت ذلك ؟ . . »

قال الهيثم يوضح له :

« لأن القوم ناصحوه على الدين ، وناصحك أهل الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبر ، وهم أهل بصيرة . وإنما أهل الدنيا أهل طمع . . ثم والله مالبث أهل العراق أن نبذوا الدين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا فالتحقوا بك ! . . »

هنا جاءه من العاهل الأموى السؤال الذى لعله طالما تردد فى كل خاطر آنذاك ، فى العراق ، وفى الشام ، بل فى كل بقعة غيرها من ديار الإسلام :

« فما الذى يمنع الأشعث أن يقوم علينا ، فيطلب ما قبلنا ؟ . . »

فكان فصل الخطاب الذى يعاير العلة بأدق معيار .

« إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأسا فى الحرب وذنبا فى الطمع ! .. »

وصدق الهيثم وأصاب .

فعلى هذه الشاكلة ، شاكلة النجاشى وطارق والأشعث ، كانت كثرة من رجال الإمام ، فى تلك الحقبة من تاريخه التى تلت صفين . . كثرة تضمر السخط — إن لم تكن تضمر الحقد — وتلوكه ، تلذذا به ، ووفاء للعادة على أقل احتمال ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، هى لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، وتنوشه بغثيان ، ولكنه لا يكف ، لأنها تشيع فى كيانه « متعة » نفسية تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعتى غثيان ! . .

ولكم تحطم فى نفوس بعض أولئكم الكثرة المرائية الصمام فانبجس البخار المكتوم . أما الآخرون فوسعهم أن يصابروا محنة نزوعهم إلى الانسلاخ عنه إلى عدوه ، فمكثوا حيث كانوا منه ، قريبين بالمسافة ، بعيدين بالإخلاص ، عن أنفة وكبرياء ، لا عن عقيدة ولا ولاء . . .

٤

تحفزت الأوصال للحركة ، وامتلأت القلوب بالتطلع . . النخيلة ناشطة كما لم تنشط قط من قبل فى عهدها الأخير . الخطا لا تستقر على أديم المواقع . الجنود تحتشد لتنتظم . المطى تخطر وتطفر . السلاح يلتمع على وهج الشمس ، ويخايل ببرقه الأعين . فى النواظر لهفة ، وفى الجوانب وجيب . فالأيام القلائل المقبلة — المغلفة بعد بالغيب المجهول — تنسج ، فى خفية عن الظنون والأحداس ، خطوط الأحداث التى تشكل المستقبل .

أينما استدار بصر كان ضجيج يثور رهجه تحت الخف والحافر . وأينما مالت أذن كان وقع وقعقعة . وأينما سرح ذهن كان حدث يهم أن يتخلق جنينا فى بطن الزمن وراء مشيمة من ضباب التوقع لاتنى تشف وتشف لتنشق عنه . . كل حركة فى الأرجاء المائجة تنبئ عن عزم مستور . .

وعلى الأفق لون الدم . فى الهواء رائحته . فى العروق النافرة سورته وحمياه . . مامن امرىء هنا إلا رنا ، بلحظ عينه أو ذهنه ، إلى حلبة تعتنق فيها الأسنة الهوج لتصمى وتبتر ، وأجساد تلتق وتضطرب لتهاوى فى سواد السنابك ، وبقاع تنفسح وتضيق كالأفواه المتلمظة لتلتقم ذوب الأنفس . . ، ما من يد إلا تشرعت للطعان . . مامن خيال إلا ارتحل بصاحبه عبر الزمن والمسافة ، شرقا أو غربا ، إلى موقع صدام منتظر ، يحجبه اللحظة عن الرؤية — وإن طالعته قوى التصور القلق — هيكل تل ، أو منبسط بادية ، أو شريعة ماء . .

فأما الملتق فقد تفرقت عليه الأفهام . المنطق أحيانا يرسمه والوهم أحيانا يبنيه . . أهو بعيد بعيد ، أم هو قريب قريب ؟ . . أعلى كثب ، أم دونه مراحل تتقطع عليها الأنفاس ، وتتمزق الأقدام ؟ . . أفى ساحة الأمس ، ام بمكان يباعدها أو يدانيها ، تجسمه الرغبة أو تحدده الصدفة واحتمالات الظروف الطارئة التى لا تخضع لقواعد الإعداد ؟ . .

تفرقت عليه الأفهام !

طائفة طمأنتها الأمانى وتلقت الحركة الدائبة بغير احتفال . ما عسى يغريها بهذا الضجيج الذى يشغل الجسوم ، وبهذا التوقع الذى يملأ الخواطر وإنها — لفرط التصاقها بفكرة السلم — توشك أن ترى المنظر كله فقاعة هواء لا تلبث أن تنفثىء ثم يرين الهدوء . الناس ، فى رأيها ، استرخوا للدعة ، ولذ لهم مذاقها فراحوا يلوكونها ناعمين . . .

أولئك فريق الاستسلام !

طائفة أخرى التصق يومها بأمسها ورأته معبرا لا معبر غيره لغدها المرقوب الذى تتوسم فيه النصر والوحدة والسلام للأمة جمعاء إذ تأكل الحرب بنارها عوامل الفرقة ، وتمحق دعاة الفتنة ، وتطهر الأرض الإسلامية — طولها وعرضها — من درن الانقسام . . فإلى أين إذن تكون الوجهة إن لم تكن هى الشام ، أو مشارفها ، أينما كانت لأميرها المتمرد بقعة يدل فيها بسلطان ؟ . .

أولئك خاصة الإمام ! . .

طائفة ثالثة حزبها — أو خالت ، أو بدت كأن قد حزبها — أمر خارجة النهر ،

فرأت أن تهطع إليها بموقعها فتقصفها ، تأمينا للسكوفة ، وقضاء على احتمالات غزوها من وراء أظهر أهلها حين تدعوهم الدواعى إلى الانطلاق للقاء فاصل بينهم وبين متمردة الشام . .

أولئك كانوا الأشعثية — رجال الأشعث بالولاء أو بالانحياز — سواء منهم الذين أضمروا مسالمة معاوية عن عزم معقود غلفوه بخطر أصحاب النهر ، أو الذين منهم استجابوا لدعوة الرعب مخدوعين . .

ولقد يوشك من يرى المنظر العام لهذه البيئة التى تشابكت فيها خيوط الاتجاهات ، واشتبه الرأى ، أن يظنها قد أجمعت أمرها على المعركة الفاصلة التى تحسم كل تردد ، وتقضى على ما نشب من خلاف بين الأمة ، وتضع حدا حاجزا بين مقتضيات الظرف الحازب وبين التذاؤب مع الآراء مرة تقدما إلى أمام ومرة تقهقرا إلى وراء . . يوشك أيضا من خبر الموقف ، وسبر غوره ، أن يتنبأ بمسار المطى ، وآثار الأقدام ، ومواقع الصراع المنتظر والجيش عندئذ يتأهب للانطلاق . .

لا جدال فى هذا . فالإمام قد قال . والناس استجابت ، والجند احتشد وغدا فى الحلقة والدرقة . . غير أن الأبناء ، فى نفس الوقت ، كانت ما زالت تترى عليهم ، تدخل فى آذانهم كلمة أو عبارة ، فتخرج من حلوقهم هلعا أو رهبة ! . . إن منهم لن يصوغها كما يهوى ، ويلفها بما يزلزل الأفئدة ويرج الأوصال . وإن كثرة لتوغل فى تصوير الهول وعقباه ، ويتطاير حديثها متفجرا حتى يبلغ سمع الإمام ، فيستحضر ابن مرة العبدى إليه ، ثم يبلغه أمره لعله يأتيه من لدن خارجة النهر باليقين :

« اخبر لى خبرهم ، واعلم لى أمرهم ، واكتب إلى به على الجلية . . »

ويمضى الرسول . .

ويتلبث الناس على ترقب بريده أو سمته يطلعه لهم الأفق فى صباح أو مساء ، ولكنهم لا يظفرون إلا بنبأ هو آخر ما كانوا يتوقعون من أنباء . فلقد أصبح الرجل نفسه الخبر المرقوب وغدا فى الغابرين بعد أن قتلته الخارجة وقد أبوا أن يسمع منهم أو يسمعوا له . . .

عندئذ اشتد الهول ، وعلا التصايح حول علي والجيش يهم أن يأخذ طريقه إلى الشام . . .

وتزاحمت عليه أصوات في جرسها من التمرد أشد مما بها من إنكار :

« يا أمير المؤمنين . . علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ . . »

وقال منهم من حسب أنه يأتي بفيصل المقال :

« سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم ، سرنا إلى عدونا من أهل الشام » .

ولم يخل الجمع من رءوس تستدير ، عيانا أو مخالسة ، صوب الأشعث ، كأنما يذكرونه رأيه ، ويعلنون تأييده ، ويستحثونه أن يظاهرهم هذه اللحظة ، كدأبه في لحظات الفصل التي تقلب الميزان ! . . ولقد وقف الرجل هنيهة مزموم الشفتين وإنه ليشعر أنه في غنى عن الكلام . فالهرج قد وقع . والتمرد أطلع قرنه . وما غرسه في الليالي الطويلة وتعهد عوده قد أثمر الآن ! . .

ومع ذلك فقد تكلم . ردد ثانية دعوته . أخذه زهوه بانتصار نظرته فلم يستطع الصمت والكتمان . . .

وكرة أخرى انقلب القوم إلى ما أوشكوا أن يخرجوا منه . أن يتحرروا من إساره . أن تغتسل عقولهم من عواطفهم الموهومة الرعناء . . كرة أخرى سيطر عليهم الذعر ، أو سيطرت النزوات المنحرفة أو الرغبات المخدوعة فإذا بهم يلوون بأعنة مطاياهم ، ويقسرون الأقدام على غير ما اعتزمت من قبل . .

أفمصرع العبدي حقا هو الذي قلب الميزان ؟ . .

ذاك ما لعله بدا حينئذ لمن عاش معهم هذه المحنة النفسية وتنفس القلق والصخب والثورة على ما سبق لهم الاتفاق عليه وأبرموه في لحظة تعقل ، أو لحظة ولاء للهدف الحق ، خطفت كومضة البرق ثم ذابت مع الظلام ! . .

لكن المصرع لم يزد ، في الواقع ، عن تعلة مصنوعة ، تعللوا بها ، أو تعللت بها فئة الانقسام وعرفت كيف تغرسها في أذهان الناس لتعدل بهم عن السير إلى الشام . . لقد عملت فيهم — وإن لم يفطنوا ، حمى السلام لتدعهم بعد قليل صرعى استسلام .. وإذا كان الأشعث بن قيس قد نعم بما أفشى ، إذ انفتح أمامه الطريق إلى مشتهاه ، فإن نفرا من جمعهم هو الأقل ، مضى الشوط على كره

وفى حسبانه أنه حلقة — تقدمت أو تأخرت — ليست خاتمة النضال المنشود على أى حال . أما الأشعثية ، وأما الانهيار النفسى ، وأما سطوة القدر المتربصة بالسوانح والأخطاء لتجعل منها وسائل إلى ما تروم ، فكلها عرفت أنها نهاية المطاف ! . .

وعندما بدأ الجيش العلوى عندئذ زحفه فى الرحلة الجديدة ، كان يطوى السجل على هدف نضاله ، وينحاز إلى درب فرعى لا يفضى به إلى الغاية بقدر ما يفضى إلى تيه من التخبط فى ضباب أحداث ، فإنها موج فى يدى عاصفة ، لا يعرف مذهبه ولا مأتاه ، ولا يرسم هو خطوطها ، أو يحدد إليها مسالكه ، لأنها هى التى كانت تحركه ، وتنزلق به — عن غير إدراك منه بخطر المزلق ، ولا قدرة على التحكم فى نفسه — لتصنع ، على هواها ، مصيره ! . .

٥

عبر الجسر سلكوا على دير عبد الرحمن ، ثم مضوا على دير أبى موسى ، ومنه على شاطئ الفرات . .

على ضفة النهر خطوا رحلة النهاية . . . لعل التراب ها هنا لم يحفظ أثر الأقدام . . لعل ريح الشتاء الأول سفت عليه ونكثته . . . لعل رءوسا عديدة ودت — من بعد — لو استطاعت خيلاتها طمس معالم هذا السير . . . فلكم يطمح الناس إلى نسيان ما يسيئهم والفرار من ذكراه ! . .

ولم يكن الإمام ، وهو يؤمهم فى الانطلاق ، إلا مثقل القلب ، نفسه حزينة ، وحلقه ممرور . . . كان له مظهر القائد وليس له إلا انصياع المقود . كان ريشة على تيار .

إنه ليعلم أنهم أخطاوا السبيل ، من البدء كان يعلم . وكان قلقا من عاقبة ما يفعلون ، منذ خدعة المصاحف ... منذ وقف القتال .. منذ فرضهم أبا موسى الأشعرى عليه ... منذ مهزلة الحكم . وطوال الأيام التى صرفوها تعللا وتلكؤا عن تلبية ندائه لمعاودة استقبال معاوية بالسلاح كان يخشى منهم ألا يتابعوه ، وألا ينتظمهم أمره ، وألا يوفوا ، بمسلكهم هذا ، على الغاية التى رسمها من أول

لحظة خرج فيها من مدينة الرسول لضرب التمرد وقمع الفتنة رأبا للصدع الذى أحدثه مناوئوه فى جدار الإسلام . . .

ولكم كان هينا عليه أن يحملهم على غير ما أرادوا وذهبوا إليـه مذهبهم الملتوى عن هدفه . فما زالت به قدرة ليقف فى وجه السيل .. وما زال بينهم نفر يؤمنون نفس إيمانه بنظرته . . . وما زال ثمة رجاء فى أن يتابعه جمعهم الحاشد وينصاع لأمره ، ولاء له ، أو هيبة منه ، أو تظاهرا بطاعته . فكيف إذن عدل عما فى مقدوره إلى هذا الذى حملوه عليه ؟ . . .

لو أنه لم يعدل إنه إذن لراكب بهم ، وبنفسه ، وبنضاله كله أضعف مركب وأسوأه يمكن أن يسير إلى غاية يتطلب بلوغها اجتماع القلوب قبل اجتماع الأبدان . وما انتفاعه عندئذ بجند إن يكونوا كـكسفة الليل — لو تراصوا أمام العدو قد يحجبونه عما وراءهم بعددهم الوافر — فإنهم أيضا كستار ضباب ما إن تلتمع أشعة الشمس حتى يتبدد ويذوب ! . . . إن أعتى أسلحة الحرب وأقدرها على انتزاع النصر من بين أنياب الموت هى ، لا ريب قوة النفس وقدرتها على التحكم فى جوارح البدن وموجبات الذهن تحكما كفيلا بأن يروضها على مواجهة أى موقف قد تفجؤها به احتمالات الصراع الحربى — المتذائبة أبدا بين مد وجزر — بمسلك تلقائى حاسم ، منبعث من جنان ثابت ، يفرز الجلد والصبر والإصرار ، ولا شية فيه من تردد أو قلق أو خشية .. « الروح المعنوى » هو السلاح الأول والفعال فى كل قتال . وهؤلاء الذين ينطلقون معه الآن — أو ينطلقون به — إلى النهروان ، كان قصاراهم ، لو التقوا بأهل الشام آونتهم هذه ، أن يكونوا ظلال رجال ، قلوبهم جوفاء ، ونفوسهم هباء ، وعيونهم وإن يكن حملاقها يمتد أما ماصوب جند معاوية ، فإن أعصابهم ، التى هدها القلق على ذويهم بالكوفة ، خليقة بأن تشدهم إلى وراء ! . . .

فأية كارثة كانت حرية بأن تحيق بهم لو أنه « ساقهم » إلى معركة تشهدها منهم الأبدان ويغيب الجنان ؟ . . وبأى سلاح كانوا سيقتتلون وقد جردهم القلق من أقوى سلاح ؟ . . إنها إذن « سوقة » إلى المصارع . إلى مذبحة لا تتناثر على ساحتها الجوارح والأشلاء بل تدفن كذلك تحت ثراها القيم والمبادىء التى يناضل

طوال حياته لرفع علمها إلى مسار النجوم . وإذا كان هو اليوم قد استلان لهم بالإذعان فلأنها — فى حسبانه — أزمة نفسية لعل جنوحه اللحظة إلى جانبهم يخفف عليهم شدتها ليجتازوها بأمان .

لقد كان ، مع كل ما ثقل عليه منهم ، يدرك ما يثقل عليهم . ويحاول بكل طاقة أناته واحتمال صبره أن يعيد إلى نفوسهم طمأنينة سلبتهم إياها أحداث قد شحنوها — إبان فزعهم الفارض — بأفظع خطر موهوم . . فإذا رأى الآن أن يشفى بهم على ذلك الخطر ، ويكشف لهم عن حقيقة الطبل الأجوف فيه ، فإنه إذن للشفاء ! . .

وكذلك مضى معهم إلى الدواء المر ، ونفسه لا تخلو من رجاء أن يجتاز بهم المحنة النفسية التى يعانون منها كل هذا العناء . فالخارجة لا تهوله ولن تعضل به . والنصر عليها ميسور . وتطهير الأرض من طغمتها مزود رجاله بزاد من روح معنوى هو أقوى الأسلحة التى يفتقرون إليها أشد افتقار حين يشدون الرحال للقاء متمردة الشام . . .

ولم تهتز أيضا ثقته . فما كان شىء فى الدنيا بعينه من سياسة الحكم أو الناس هو الذى دائما كان بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه وأرسخ إيمانا بقدره وإن جاءه هذا القدر بأهول ما تسوقه الأقدار . . . وعندما اجتاز الجسر ، وهم أن يبدأ الخطا على الطريق ، مثل بين يدى ربه ، وأفنى نفسه فى ذاته القدسية فى ركعتين ، نأى فيهما عن عوالم المخلوقات . فلعله عندئذ قد راح يجلو يقينه . لعله استزاد فى شعلة روحه . لعله غسل بابتهاله ما عساه قد علق بذهنه وبقلبه من غضب أثاره فيهما كنود أصحابه ولاث ما كان عليه من صفاء . . .

ومضى وإياهم والنهر وإنهم أجمعين — وإن اشتدت الأسوق تحتهم تحث السير — قد تعثرت عزائمهم ، واضطرب فلكها ، بعضهم من غيظ ، وبعضهم من ندم ، وبعضهم من حيرة بين أولئك وهؤلاء ، دع عنك تلك الطائفة المشبوهة التى استطارت بها الفرحة برجحان رأيها وكانت — دونهم — على زهو وخيلاء ! . . حتى إذا قطعوا أشواطا ، وأوشكت بهم مراحل السير أن تشرف إلا قليلا على على تجمع الخارجة ، أقبل امرؤ له هيئة وسمت ، يشق طريقه بين الحشد إلى الإمام .

وتساءل أناس .

وتهامس ، فيما بينهم ، آخرون .

« منجم ، يعرف أسرار النجوم ، ويقرأ الأقدار . . »

واقترب صاحب السمت المرموق ، من ابن أبى طالب يناديه :

« يا أمير المؤمنين . . »

فتلبث يصغى .

« يا أمير المؤمنين . . لا تسر فى هذا الوقت إليهم . . . »

ورمقه الإمام بنظرة استفسار . فأردف الرجل يقول ولهجته تفيض بالتوكيد ، وكأنها صيحة القضاء :

« لا تسر ! . . إنك إن سرت ، يا أمير المؤمنين ، فى هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمرادك . »

« ومن أين علمك بما تقول ؟ . . »

« من طريق علم النجوم » .

عندئذ ارتسمت بسمة ساخرة على وجه على وهو ينثر الرجل نظرة إنكار :

« أتزعم أنك تهدى إلى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء ، وتخوف من الساعة التى من سار فيها حاق به الضر ؟ . . . »

ورمى ببصره يدور فى رجاله ، كأنما يحثهم أن يحسنوا الإصغاء ، ثم أكمل يقول :

«. . إنك لتبتغى فى قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه ، لأنك — بزعمك — أنت هديته الساعة التى نال فيها النفع ، وأمن الضر . . . ألا فمن صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله . . »

ثم استقبل الناس يحذرهم :

« أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة . فالمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار . . . »

وحث خطاه :

« سيروا على اسم الله . . »

ولم ينقطع قط اتصاله بالخارجة . مرارا عدة استفاءهم إلى الطاعة ، وأملى لهم فى مراجعة النفس عما نزعت إليه ظالمة . . . بلسان كثيرين من رجاله فعل ، لعلهم أن يرعوا الحق ، وتثوب قلوبهم إلى الخير والوحدة والسلام . . .

لكنهم كانوا قوما قد صمس على أفئدتهم هواها فعميت البصائر ، وخفت الأحلام ، وتبدو كأنما يخبطون كالمشواء إلى الهاوية وهم معصوبو الأعين ، وما أكثف العمى الذى يجىء عن تعصب ! . . إنهم لا يرون غير رأيهم هم ، ولا يسمعون إلا نفس قولهم هم ، كأنما يرون ويسمعون من داخلهم ولا تخترق بهم عين ولا أذن ولا بصيرة جلدهم الكثيف ، أو تنطلق إلى خارج طبيعتهم المصمتة الصماء ! .

كان علم السلام والمصالحة الذى رفعه لهم ، كلمات قلائل تحق حق الله ، وتقيم حدوده ، ثم تفتح الطريق بعد هذا إلى الوئام والإصلاح :

« ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم ، نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام . فلعل الله أن يقلب قلوبكم ، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . . »

ما أراد أن يحملهم نفس محمله على قتال معاوية ولما تصف نفوسهم بعد الصفاء كله ، وإنما شاء أن يفسح لهم فى مجال التفكر عسى أن يثنيهم التدبر والادكار عن المكابرة وقد اتسع وقتهم أمامهم فى تناول الأمر كله بالتأمل الهادىء والمنطق السليم .

ومع ذلك فقد أبوا الفرصة المبسوطة أمامهم ، وردوا بجفاء واستعلاء :

« كلنا قتلتهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم ! . . »

لكنه تصبر وإنهم عندئذ ليرفضون الانصياع إلى بديهية من بديهيات حياة المجتمعات هى بديهية القصاص ، ويضعون بهذا رأيهم وحده قواما على رأى الدين تصبر مستمكا بهدى ربه الذى يقدم الدعوة بالموعظة الحسنة على الأخذ بالعنف والشدة سبيلا إلى رتق الانقسام واستعادة الولاء . . .

وكرة أخرى ينقل وافده إليهم قيس بن عبادة ، الدعوة السمحة هنا بدمهم

أن يهدر ، وحرصا عليهم وعلى الأمة أن يستغرقها خلاف مسلح حيثما تغنى الرويه عن امتشاق الحسام .

يحدثهم قيس ، فى تؤدة ولين منصحا لهم عن خطل ما يعتنقون :

« عباد الله . . أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا فى هذا الأمر الذى خرجتم منه . . وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم وركبتم عظيما من الأمر : تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين . . . »

فيأبون ثانية فى عناد مجنون . .

ويثنى من بعده أبو أيوب الأنصارى :

« عباد الله . إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها . . ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا الآن ؟ . »

فيقولون ولما يتزحزحوا عن موقفهم ، كأنما قد غاصوا بأقدامهم إلى الركب فى حمأة سلبتهم القدرة إلا على التدلى والانزلاق دون التحرر أو الخلاص :

« إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدا . . »

لوثة « لا حكم إلا لله » تعاودهم ، وتلح عليهم ، وتغلق دونهم كل باب إلى الصواب . .

عندئذ لا يملك الرجل إلا أن يحذرهم قفزهم هذا إلى خاتمة فى طى الغيب ، لا ينبئ عن وقوعها شىء قط إلا ما فى مخيلاتهم من اضطراب :

« فإنى أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى قابل »

ولكنهم لا يسمعون .

٦

بدوا كأنما آثروا الحرب حلا لازما للخلاف الذى أنشبوه . فأساليب التفاهم قد تقطعت واحدا بعد آخر . ووعوه الفىء إلى الجماعة خفتت كالهمس . ذابت فى غمرة العناد . وندت تحت تراب شمارهم الذى يجافى كل حق ومنطق وروية ...

ووقفوا على تحفز . أعصابهم كالأوتار . أجيادهم ممدودة مشرعة إلى الأمام كالسهام . أكفهم لفرط تقبضها أوشكت أن تغوص فيها القسى والحراب ومقابض الأغماد والسيوف المسلولة . .

اللحظة الفصل . لا عودة أبداً لأمس الذى نبذوه وخلصوا من خزيه . لا رجعة بنقاش وكلام ولا إلى نقاش وكلام . الجسور التى عبروها إلى رأيهم وباعدت ما بينهم وبين على ومن بقوا معه قد تحطمت واحترقت وتناثرت مع الريح كالهشيم ...

ومع ذلك فقد ثبتوا نظراتهم على وجهه الذى لوح الغضب قسماته كأنما حرصوا على ألا تفوتهم منه طرفة هدب أو اختلاجة شفة . . ثبتوها على كره وإنهم لراغمون ، فما فى طاقتهم أن يقتحموه ! . . إن له لسحرا يشد حلاقهم إليه ، وسطوة روح تجذب الآذان والعيون . ولئن عرفوا — من ألسنة وافديه إليهم طوال ما سلف من أيام — ماعساه محدثهم الآن به ، فإنهم لا يملكون حياله إلا التطلع إليه بانتباه وترقب ، لا عن رغبة فى الأصغاء ، وإنما لإحساس يشيع فى جنباتهم يخالون معه أنه يملأ الأفق حولهم بهامته المربوعة ويسد منافذ الفضاء فلا يتلفتون هنا أو هناك إلا وجدوه !

وسكنوا كأنهم جمود . وأتأروه نظرات ثابتة لا تطرف كأنها أسلاك مشدودة من مآقيهم إلى محياه . واستغرقوا كل استغراق فى ملامحه ، فكل حركة الآن تبدر منه إنما تبدر لغرض ، كما تبدر بمقدار . . .

أما هو فقد اجتاحهم بنظرة طافت بجمعهم الحاشد وحصرتهم فى إنسان عينه الدقيق . نظرة محيطة ، آسرة مسيطرة ، إن يكن فيها سخط ، ففيها كذلك نذير ، وفيها رثاء . . فما كرثه قط أنهم من قبل قد خالفوه . وما يكرثه الساعة أنهم

مصرون على خلافه والانسلاخ عنه . إنما الذى يكرثه منهم ولهم أن يلج بهم سفههم حتى ليخرجهم من حظيرة الإيمان وهم يحسبون خروجهم الإيمان كل الإيمان .
وعندما همد الصوت ، وأطبق السكون ، واحتبست الأنفاس ، وغدا المكان بما فيه ومن فيه أذنا مصغية ، سرت إليهم كلماته قاسية كضربات معول على صخر :

« أيتها العصابة ! . . »

فلعل جرس النداء العنيف قد اخترق عليهم قشرة الجمود التى غلفتهم ، وسرى فى عروقهم يرج دماءها رج الحمى دماء محموم ! . . لعلهم عرتهم انتفاضة . لعلها اتسعت الحدق . لعلها رعشت الأهداب . . أيما ثوبة ثابوها آنئذ من عالم الجماد لدنيا الأحياء — طالت أم قصرت — لم تنل شيئا من همود السكون المحيط الذى تجمدت أنفاسهم على حواشيه تجمد الصقيع فى صبح بارد على مدر صحراء ! . .

واستطرد بنفس قسوة الجرس ، يسوط بصوته وجوههم وجوانب الفضاء المحدود ، فى تمهل وريث ، وهو يضغط على الكلمات ضغطا ينحلها حياة تزيد قدرتها على التعبير :

« ... أيتها العصابة التى أخرجتها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمح بها النزق ، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم . . . »

ثم هدر فى حديثه صوت القدر القاصف ، وعينه تقتحمهم إلى النهر الذى تتدافع مياهه على كثب ، ويرسم تدافعها انسياب أحداث لن يلبث ستر اللحظات القلائل الباقيات من عمرهم أن ينجاب عنها لتبرز إلى عالم الوجود :

« . . إنى نذير لكم . . أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر ! . . »

ولم يمض حديثه فيهم على طريق الترهيب وحده دون أن يميل إلى المحاورة التى تجمع الترشيد إلى التهديد ، والإعذار إلى الانذار . فما جاء اليوم ليلحاهم بقدر ما جاء ليبصرهم بعقبة ماهم فيه ، عسى الله أن يحملهم بمنطقه إلى الصواب . . .

وحين سألهم يستنبئهم سر خروجهم من طاعته ، وانتقاضهم عليه ، تناثرت منهم العبارات ترسم حجتهم ، فإذا هى لا تخرج فى مضمونها عن نفس العلة التى اعتلوا بها من شهور :

« الحكومة ! . . »

عندئذ قال :

« . . ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها وهن ومكيدة ؟ » .

فلم يكن لهم إلى الإنكار سبيل .

« ونبأتكم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ . . وأنى أعرف بهم منكم — عرفتهم أطفالا ورجالا فهم أهل المكر والغدر ؟ . . »

فبدا على ملامحهم الإقرار .

« . . وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ، فعصيتمونى ؟ . . »

أجل . إنهم ليعلمون أنه صدقهم عندئذ النصح فخالفوه . وليعلمون أيضا أنهم ندموا على ما فرط منهم أبلغ الندم وأوفاه حتى لودوا لو محوا من صحيفة عمرهم ماتلا صفين فعاد بهم الزمن ثانية إلى ساحتها والدعوة إلى تحكيم القرآن ترحف عليهم من صفوف العدو ليقمعوها بحد الحسام من جديد ! . .

وأحياهم الإمام بكلامه كرة أخرى أمسهم المتأثم القريب ، والمحنة المدمرة التى جرها ضيق أفقهم ، وعنادهم الممقوت ، وجهالتهم الحمقاء ، على أنفسهم وعلى الإسلام :

« لقد اجتمع رأى ملئكم على اختيار رجلين ، أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن . فتاها عنه . وتركا الحق وهما يبصرانه . . »

فكأنما سرت ، للذكرى ، بين جمعهم همهمة تلوم تفيض ندما على ذلك الرأى الخبيط الذى اعتنقوه ، وتنزى بالاستغفار لأنفسهم عنه ، ثم لا تخلو من الإزراء بالحكمين وبالحكم معلنة سوء الأسلوب وسوء النتيجة . على السواء . . وكأنما شاء الإمام على الأثر أن يخفف عنهم بعض هذا الذى يعانون من وطأة الإحساس بالذنب ، فانفلت يذب بعض الذب عن الوسيلة التى عابوها ركبوها وفى نيتهم الإصلاح :

« . . إنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات القرآن . وإحياؤه الاجتماع عليه ، وإماتته الافتراق عنه . . فإن جرنا القرآن إليهم اتبعناهم . وإن جرهم إلينا اتبعونا . . »

فهل اتقى منهم تخفيفه هذا هوى أو موضع رضاء وإنهم لموقنون أنهم — إذ قبلوا التحكيم ودعوا إليه — قد قارفوا جرما لا قبل لأحد بالتهوين منه بنصاعة حجة ولا بقوة دليل ؟ . . بل كلا ! . . فالإثم إثم وإن نبع من دافع . والذنب ذنب وإن بررته المعاذير ! . . وما ركونهم أمسهم الذاهب لهذا التحكيم إلا حوبة حوبة لا تغسلها إلا توبة ، ومعصية لا يحطها عن كواهلهم إلا مغفرة يسبقها ندم يميدهم إلى ظل الله وليس يملكها غير قابل التوب ، كاشف القلوب ، غافر الذنوب . . .

وما أحسب بعضهم عندئذ إلا قد تهامسوا بينهم بشعارهم الذى اختلط بكيانهم روحا ومادة ، وملك عليهم منافذ الحياة والموت ، وعوالم الرؤية والرؤيا ، والسر والعلن ، فأوصد دونهم كل باب إلى دنيا الناس . . . ما أحسب إلا أنهم تهامسوا بعبارة : « لا حكم إلا الله ! » إظهاراً لاستمساكهم بالحق دون أمة الإسلام ، وإعلانا عن نزوعهم — وحدهم — إلى الصواب بعد غى ، وإلى الهدى بعد الضلالة . . ولئن كانوا قد استطاعوا هنيهة من وقت أن يطلقوا نفوسهم على سجيتها ، فتجهر بما تهوى ، وتنفس عن الداء المكبوت معربدة بذلك الشعار ، فإن اللحظات القلائل التى خرقوا خلالها جنة الصمت المهيمن على المكان ، وتردد فيها تلاغطهم بدعواهم ، ما لبث عمرها أن انطوى فى هدير صوت الإمام وهو يأتيهم حاسم النبرة قاطعا عليهم الترديد :

« . . ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ، ولو كان تحت عمامتى هذه ! . . »

وقرن قوله بحركة ارتفعت بها كفه تلامس عمامته ، وامتدت عينه تجتاح جماعتهم فى تحد عنيد ، وتكاد تخرق عمائمهم إلى ما تغطيه من رءوس . . .

ولم يكن يهزل وإن كان يسخر . فتلك الطائفة المفتونة كانت — مظهرا ومخبرا — خليقة بالسخرية والتندر ، لا بسبب شعارها المقيدى الذى رفعته فدلت به على هوس وضيق أفق وحرفية ، بل لأنها كذلك ، استزادة من إحساسها بالتفرد ، قد شاءت أن تجمع إلى الهوة الفكرية التى باعدت ما بينها وبين بقية العقول هوة مظهرية تباعد ما بينها وبين بقية الأبدان . فلقد ترجمت شعارها إلى

هيئة بدنية تملز أفرادها عمن سواهم من الناس . ولو أنك حسرت عنهم العمائم ، لتمثلت لك تلك الهيئة فى رءوس حلقت أوساطها فبدت كالأرض الجرداء ، وترك الشعر على حوافيها أكاليل مهدلة شعثا ، كأنها العشب الجاف ! . .

وأخذتهم بلا ريب سخريته . ولكنهم فروا منها إلى نفس الحجة التى لم يفتأوا يتذرعون بها تفسيرا لانقلابهم من نقيض لنقيض .

قالوا يبررون :

« إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن تبت كما تبنا ، فنحن معك ومنك . وإن أبيت فاعتزلنا ، فإنا منابذوك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . »

فتلون وجهه بالغضب لقولهم ، وصاح :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر ! . . أبعد إيمانى بالله ، وجهادى مع رسول الله ، أشهد على نفسى بالكفر ؟ . . . . »

ثم انثنى يسألهم فى استنكار :

« ... فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة محمد بضلالى ، وتأخذونهم بخطئ ، وتكفرونهم بذنوبى ؟ . . »

وتفرس فى وجوههم مليا يترقب ، لعل عبارة من هنا ، أو عبارة من هناك تسرى إليه من بين صفوفهم برد مقبول أو غير مقبول ... غير أن السكوت وحده هو الذى أتاه لو تكلم سكوت ! .. وبقيت شفاههم مطبقة على حسر ، وعيونهم تسبح فى حيرة . حتى إذا عدم منهم الجواب ، استرسل يلقمهم الحجة التى ليس لهم بدفعها قبل وإن نظراته لتطوف بهم وبما يحملون من سلاح ...

قال معاوداً السؤال :

« . . بماذا تستحلون قتالنا والخروج من جماعتنا ؟ . . سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ؟ لقد علمتم أن رسول الله رجم الزانى المحصن ، ثم صلى عليه وورث ميراثه أهله . وقتل والقاتل وورث ميراثه أهله . وقطع السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم قسم عليهما من الفىء ونكحا المسلمين ، فآخذهم رسول الله بذنوبهم ، وأقام حق الله

فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ..... »

فلو أنك شهدتهم بموقفهم منه آنذاك لحسبتك شهدت جسوما قد استحالت حجارة صلدة صماء استنزفتها الحجة كل نبضة حياة ، إلا تذاؤب المقل — حيرة — فى المآقى ، ورجفة الثأثأة — عيا — على الشفاه ! .. وهل لهم بمنطقه طاقة ؟ . . وأنى لهم وهو يقارعهم رأيهم الخبيط المهزوز ببرهان الله وبسنة رسول الله ؟ . . إنهم الآن لفى تيه ، يستشعرون معه أن الدنيا كلها حولهم فراغ وهباء ، بلا نأمة صوت ، ولا لمسة نسمة ، ولا صورة موجود ... بل ذواتهم أيضا قد هانت ، وراحت تتضاءل وتتضاءل من تخاذل وخزى كأنما تذوب فى ذلك التيه ... أفغدوا إلى عدم ؟ .. أم تلك غشية أخذتهم أو سنة نوم ضربها عليهم جبروت بيانه المفحم فلا يستطيعون قولا ولا إشارة ؟ . . وحين وسعهم أن يثوبوا إلى بعض وعى ، سمعوا كلماته تتحدر إليهم — كأن فى حلم — مبينة بلا جرس ، معبرة بلا رنين ، كما ينفذ لفح الشمس — بغير وهج — من خلال كسفة ضباب ! . .

ولقفت آذانهم من مقالته كلمات ، تندد بسلوكهم وتلحاه :

« . . . إن هذا لهو الخسران المبين ! . . والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التى قتلها عند الله حرام ؟ . . »

فلم يجدوا وسيلة تجنهم من لومه ومنطقه إلا أن يسيجوا أنفسهم بالعناد ، شأن العاجز المعنت ، الذى تعضل به المناقشة ، ويعييه تلمس منفذ يلاقى من خلاله الرأى بالرأى ، والدليل بالدليل . . .

انتفض بعضهم يهيب بمن لعلهم قد يحدثهم اللجاج بمحاولة اصطناع جواب .

« لا تخاطبوهم ! . . »

وصاح آخرون :

« لا حكم إلا لله ! . . »

وهتف فريق :

« تهيأوا للقاء الرب ! . . »

وهبت الصفوف وهى تهز السلاح فى أكفها تصيح :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . »

نداءات توالت تتعالى فى الجو ، وتنتشر بأصدائها إلى ما يجاوز المكان ويعدوه ، لا ساقها عقل ، ولا بعثها حكمة . إنما فاضت عن الصلف والغرور وأنفة الرجوع عن رأى رأوه إلى رأى يخالفه ولو كان لهم فى هذه المخالفة أمان وحياة ، وللأمة صلاح ونجاة . . .

ولم ينبس الإمام . أطبق على الألم فمه المرور ، وترك فؤاده يتحدث بشجوه ، رثاء لهم ، وحسرة عليهم . ثم راح يمد بصره بعيدا عن ملتقى الجمع والضجيج والضوضاء ، إلى النهر وراءهم وهو ينساب فى مجراه ، وقد بدت أثناؤه وجوانبه كأنما تفغر أفواهها انتهيأ للوليمة المقبلة . ففى ثرى شاطئيه ، عما قليل ، سينطوى صرعى عصابة العناد والمراء .

٧

رتب على رجاله . .

الفرسان فى المقدمة ، من ورائهم النبالة ، تليهم الرجالة . وعقد ألوية الفرق لخيرة أصحابه ، وأصبرهم على القتال . . .

وكان الجيش ، كمألوف التنظيم آنذاك ، قلبا وجناحين . فى القلب أبو قتادة الأنصارى ، وعلى الميمنة حجر بن عدى ، وعلى الميسرة شبث بن ربعى ومعقل بن قيس الرياحى . وقاد الخيل أبو أيوب ، وأهل المدينة قيس بن سعد ابن عبادة . .

ولم يعن الإمام بهذه التعبئة أن ينشب الحرب ، ولا أن يخوف ويرهب ولكنه أعد وتهيأ فما يدرى كيف يتطور الأمر وهاهم الآن خارجة النهر على أهبة أشد من الأهبة ! على شغف وشوق ! فلقد كسروا جفون السيوف ، وعرقبوا الخيل ، وجثوا على الركب يوشكون بهذا التحفز أن يطيروا إلى الالتحام متعجلين موعده . وهل دونهم اللحظة غير خطوة واحدة إلى الأمام ليلتقوا مع الله ؟ . .

كذلك تحسب . وكذلك هم يوقنون . . فعلى نحو من الأنحاء — وإن خالفوا آنذاك برأيهم جماعة المسلمين — كانوا فئة قد تنسى لها كل فضيلة ثم يعسر إغفال أنها أرباب دين ، يتمسكون به ، ويذودون عنه ، ولا يبيعونه برخص ولا غال . فئة نهجها النسك ، ومنوالها الزهادة ، وطريقها عبادة الله . ما طلبت ضلالا من

باطل ، وإنما طلبت حقا فغررت بها شبهة أوقعتها فى المحظور . و « ليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » كما قال عمهم الإمام . .

ثم هاهم — فى ربقة الرأى المشبه — يجرون شوطهم كله إلى غايته . إلى نهايتهم . إلى أقدامهم المتربعة بهم عند حافة النهر ، والإمام يتسهد اندفاعهم فيود لو يردهم ليجنبهم هذه الأقدار . . إنه ليأسى لهم . ويستشعر الألم من كل خطوة يخطونها إلى مجمع المصارع كأنما يطأون قلبه بالقدم وبالحافر . . وإنه ليرجع بذهنه القهقرى ، فتنشط ذاكرته وتستضىء . لتستحي صورة من الماضى البعيد ، ما تزال تتجمع خطوطها ودقائقها ، بما تضم من ظلال وأضواء ، لتبرز حياله كاملة ، قد مثل فيها رسول الله بين أصحابه ، يتحدث إليهم ، وينساب صوته مع الصورة ، عبر الزمن والمسافات ، ومن وراء الأعوام والتخوم :

« إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلنا على تنزيله » .

فيهب إليه أبو بكر ، وإنه ليرجو أن يكون هو ذلك الذى عناه بالحديث :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . . »

فيتقدم على الأثر عمر بن الخطاب . لم لا وها هو ذا شرف يخايله ويدنو منه بعد أن فات رفيقه ، وإنه للحقيق به — لا ريب — بعد الصديق .

ويسأل ، فى تردد وشغف :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . »

ثم يتبع محمد رده بلفتة إلى ابن أبى طالب ويقول :

« بل خاصف النعل »

وكذلك آن للنبوءة أن تحرك الأحداث . . .

ويتفكر على ، والذكرى تفيض بواعيته وتملأ عينيه . .

نعم تأولوه . تأولوا القرآن فأخطأوا التأويل . اجتهدوا الرأى فاشتبه عليهم الأمر ، وكبا الرأى بهم فى غير ما أرادوا ، فإذا النتيجة تخالف النية ، وإذا العقيدة تغاير الإرادة ، وإذا الأنفس تزل على كره وتزل معها الأقدام فتنزلق بهم إلى هذا المقام ، بهذه الأرض المنكودة عند النهر الذى يوشك أن يلتقمهم ماؤه وشاطئاه ! .

ويطوف ببصره فيهم هنيهة ، ثم يرده عنهم إلى جمهرة أصحابه يوصيهم ، ويؤكد لهم ، وإن رحمته لتلك الفئة المشبهة لتكاد تسبق فى قلبه عزمة القصاص :

« لا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم .. »

حتى إذا رأى قوله قد وقع موقعه ، وعاين من رجاله علائم الامتثال ، التفت إلى الخارجة يقول :

« عباد الله . . أقيدونا بدم عبد الله بن خباب . . »

فهل أثر فيهم ترفقه ، وحملتهم دعوته السمحة على نبذ العنف والنزوع عن العناد ؟ . .

كلا ! . . بل هبوا جميعا ، فى صوت واحد ، يهتفون :

« كلنا قتله ! . . »

غير أنه لم ييأس ، وما كان لييأس وثمة بصيص رجاء فى فيئهم إلى السلم ، ورجوعهم إلى جادة العقل والصواب . . لكأنما خشى أن يأخذ فيهم البرىء بالمسىء ، والمحق بالمبطل ، فعاد يخاطبهم ليستوثق كل استيثاق :

« . . فانفردوا كتائب ، لأسمع قولكم كتيبة كتيبة . »

ففعلوا . وراح هو يتأملهم بعين هادئة ، ويسألهم فى لين ، زمرة زمرة ، وكتيبة كتيبة . .

لكنهم لم يغيروا . فرادى وجماعات كان الجواب الذى صكوا به مسمعيه نفس الجواب .

« كلنا قتلناه ! . . »

وازدادوا عنتا ومغالاة :

« ولنقتلنك كما قتلناه ! . . »

ومع ذلك فقد صبر . ما عليه إذ فعل ؟ . فعسى الله أن يخرج خيرا من شر ، ويكتب هدى ونجاة ، لهم ، أو لطائفة منهم ، لو نزع للأناة . .

كرة أخرى رأى أن يلى لهم فى المراجعة والتفكر . . . مضى و سكون يرود الوجوه المطلة من اللحى الكثيفة ، ويبقر بنظراته الثاقبة جلودها المرتخية والمشدودة عن دخائل النفوس . . على ملامح بعضها جمود أخرس ، كأنه الموت ،

يجسم الإصرار . . على ملامح غيرها وجوم يمثل الضياع . . على ملامح أخرى اختلاجات تنبئ عما يعتمل فى الصدور من صراع . .

ثم رمى بآخر مافى جعبة صبره من ترفق وريث وإمهال . فدفع راية أمان إلى أبى أيوب الأنصارى ، أمره أن ينشرها ، ويدعوهم ، ليلوذ بها منهم من شاء ممن عسى يهديهم الله . .

ونادى عليهم أبو أيوب :

« عباد الله . . من جاء هذه الراية منكم ، ممن لم يقتل ولم يستعرض ، فهو آمن . . ومن انصرف منكم إلى الكوفة ، أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن . . »

وتلبث بهم قليلا ثم أكمل ، يوضح لهم ، بلا مواربة ولا إخفاء :

« . . عباد الله . . لا حاجة لنا — بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم — فى سفك دمائكم . . »

وسكن الصوت . وران الصمت على المكان حتى أوشك ألا تسمع فيه غير الأنفاس . . .

للحظة بدا كأنما حركة القوم التى كانت تملأ الجو من قليل ، وتشيع فى جنباته الضجيج ، قد انتقلت كلها إلى العقول . . للحظة لاحوا يراجعون النفس ، ويزنون العرض السمح ويعايرون قيمته وجدواه . . للحظة وضعوا أمسهم وحاضرهم فى كفة وإزاءه فى أخرى وضعوا مصير الأمور . . ولم يكن مصيرهم هو الذى عناهم ، ولا الذى دفعهم إلى التدبر والتفكير . ولكن شرارة من شك لابد قد ومضت آنذاك فى أذهانهم فلسعت بعض ثقتهم فيما اعتقدوه ، وردتهم حيارى بين التمرد والانصياع ، وبين المكابرة والرجوع . .

وأثمرت الدعوة . . هزت فيهم الريب كما هزت اليقين . فإذا أحدهم ، فروة ابن نوفل الأشجعى ، يردد لنفسه ، ثم يصارح أتباعه :

« والله ما أدرى على أى شيء نقاتل عليا ؟ . . لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه . . »

وانصرف فى خمسمائة فارس ، يغادر وإياهم الميدان . .

وإذا الطريق يستضىء أمام فئة ثانية ، تتبين لنفسها النهج الأقوم ، فتسرع — إذ تحررت من أسر الشبهة — لتلتحق بالإمام ، وتنتظم فى صفوفه . .

وإذا آخرون ، جماعات وفرادى ، يتفرقون — على تردد أو عن اقتناع — منسلين من مواقع العصبة المناوئة ، إلى المدائن ، أو الكوفة ، أو أى مكان غير هذه وتلك ينأى بهم عن ساحة القتال . .

أما البقية التى أزلتها الشبهة ، واستذلها العناد ، فقد أخذتهم عزة الأنفة المضلة ، فألصقوا القدم بأديم الأرض ولو وسعهم لغاصوا بها فى مواطئها ضمانا للرسوخ والثبات ! . . ثم هبوا على الأثر ، بنبرة راعدة كالهزيم ، يتصايحون :

« لا حكم إلا لله ! . . »

ومن بينهم انفلت فتى ناء بثباته ، يشهر سلاحه ، ويخبط به حيثما وقع سنانه رجال الإمام ، نقمة وحقدا ، وهو يرتجز وفى صوته يترنم شيطان :

« أقتلهم ولا أرى عليا ولو بدا أوجرته الخطيا » ! . »

وبهت الناس لهذه البغتة . فلقد سقط ثلاثة منهم صرعى وما زال الراجز يتغنى بفخره ، لكن عليا ما لبث أن انبرى له فكان أسرع إليه من عبارته على شفتيه ومن ارتداد طرفهم عنه ، وعاجله بضربة صعقته وأهمدته لسانا وأداة قتال ! . .

ومع ذلك فقد ملك جنانه ، ولم يتبع الضربة غيرها ، ولا لاقى عدوانا بعدوان . إنما عاد فى هدوء يؤكد لأصحابه :

« كفوا عنهم ! . . »

فكأنما أغرى الخارجة به وبصحبه هذا الحلم ، فرمت صفه رميا حرك الحمية ، حتى صاح بعض رجاله :

« يا أمير المؤمنين ، قد رمونا . . »

فأعادها :

« كفوا ! . . »

ثانية وثالثة ردهم عن القتال . عن مقابلة العدوان بمثله ، وفى يقينه أن الإمهال خليق بالاتباع إعذارا لعدوه ، وإعذارا لنفسه أيضا أن تتلطخ يداه بدم عسى مشيئة الله تسبق غضبة الإنسان إلى حقنه والإبقاء عليه . فلما أبى الله أن

يرعووا عن الغي ، ولاح كأنما شيطانهم يعدهم بزاد جديد من المكابرة يسعرون به شعلة الحرب التي رجا لها الانطفاء ، ألقى هنيهة بأذنه إلى صياحهم المحموم :

« لا حكم إلا لله ! . . »

ثم مال عنهم إلى جنده ، يفسر لهم حكمة التمهل :

« كفوا عنهم حتى يبدأوكم ، فإنهم لو قد شدوا عليكم — وجلهم رجال — لم ينتهوا إليكم إلا لاغبين وأنتم رادون جامون . . »

وكذلك كان منطق القتال . فالعدو في أغلب جمعه مشاة ، بعد إذ رحل فدوة وفرسانه ، يقتضيهم اللقاء مبارحة مواقعهم ، بكل عدتهم ، سيرا على الأقدام ، دون دريئة تحميهم عصف الخيل الناهضة . وفي هذا عناء ومشقة ولغب ، تنال من طاقة الاحتمال . وتحد ، قليلا أو كثيرا ، من قدرتهم على الثبات للقتال . .

وأقبلت الخارجة زاحفين ، يختلط في صفوفهم المندفعة هزيم الصياح بهدير الأقدام . وعلا الرهج ، وثار الغبار . وحميت الأنفس بعد إذ نشطت الأوصال . وضاقت الشقة رويدا رويدا بين الجمعين ، ولكن جند الإمام ظلوا كافين ، على تربص وأهبة ، وفي سكينة وهدوء ، لا يقدمون ولا يحيدون . . .

فإن هي إلا لحظات من بعد حتى انطلق الخارجة انطلاقة إعصار مجتاح ، يشدون على خيل علي ، وهم يرددون صرخة الجهاد :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . »

عندئذ نادى الأمام أصحابه :

« الآن طاب الضراب ! . . شدوا . . »

والتحم الفريقان .

لكن الخيل ناءت بثقل الهجمة العنيفة ، فانفرج صفها ، والتوت بها الأعنة إلى الجانبين ، كأنما لا تقوى على الصمود ، وكأنما الأرض تحت سنابكها تميد فتحاول أن تلوذ عنها بمواطن غيرها جديدة ، لعلها أصلب موطئا ، وأنسب للثبات والقرار . .

ولاح لكل من شهد الوقعة أن الصف الأول ، والأقوى ، من جيش علي راح يتقصف أمام بأس المهاجمين ولم يعد جنة لمن وراءه تحميهم وترد عنهم عادية

الانقضاض ، بل غدا بابا مفتوحا على مصراعيه ، تلجه إليهم الهزيمة طائرة بجناحي إعصار ! . .

أفتلك الشــدة القاصفة — تؤازرها البغتة — هى التى أذهلت الفرسان ، عن أنفسهم وواجبهم ، فزحزحت الخيل ، وأزالتها عن مواقعها فى مثل لمحة الطرف ، أم قد كان وراء هذه الحركة المتخاذلة خدعة قتال ؟ . .

ليوشك الأكثرون أن يروا فى تزايل الخيل دحرة مقهور . . وفى بلوغ الخارجة مبلغها هذا من القتال بداية انتصار . .

لــكن الأحداث هى التى تحسم وتحدد ، وتأتى وحدها بعقبى الأمور . .

وهى لا تحسم ولا تحدد إلا عن استقراء واع لــكافة العوامل النفسية والمادية التى يتحرك العدو بوحى منها ، وفى نطاق قدرتها المحسوبة المحدودة . فإذا قررت من بعد ، فقرارها عندئذ مقرر بخطة محكمة ، أصابت التنبؤ بكل احتمالات الموقف لدى خصمها ، وكل بادرة سلوك لعلها تند عنه ، ليقابلها بما ينقض تدبيره ، ويلوى النتيجة إلى غير ما يرضيه . .

وهكذا قرر الإمام .

فلم يكن عبثا أن رتب جيشه كما رتب ، فقدم الخيل التى تخفى من ورائها رامية يذودون حين البأس عن الرجال

ولم يكن عبثا أن أمر — رجاله — وإن أثارهم عدوهم مرارا بغاراته المفاجئة — أن يكفوا عن القتال ، حتى يحتدم الهجوم الباغى ، ويلتحم الجيشان أوثق التحام . .

ولم يكن عبثا ، ولا عن دحرة — فيما يلوح — أن ينشطر صف الخيل أمام هجمة الخارجة شطرين ، شطرا إلى يمين ، وشطرا إلى شمال ، كأنما قد تقوض وانهار . .

لم يكن هذا كله وغيره عبثا ، وإنما كان — بلا جدال — عن تقدير وتدبير ، بتخطيط وإعداد ، كل خطوة بحساب ، وكل حركة بمقدار . .

فما إن لاحت الخيل تتهاوى تحت طرقات الهجمة المفاجئة ، وترتد إلى يمين ويسار ، حتى انفتحت ثغرة فى الصف ، مرقت الخارجة من خلالها كالسهم ، مفضية إلى قلب الجيش الذى كشفته دحرة فرسانه . .

بداية نصر لا شك فيه ، لمن أخذ بظاهر الأمور

ولكنها فى الحقيقة بداية بوار . .

فإن هى إلا لحظات حتى انقلب الميزان . .

من طريقهم الذى شقوه للظفر ، فاجأهم الخطر بأسوأ ما يمكن أن تجيئهم بهم المفاجآت . .

إن قلب الجيش العلوى لم ينكشف لسلاحهم آنذاك ، بل هم الذين انكشفوا له ، حيثما لا جنة تجنهم عنه ، وتحميهم منه ، ولا فرجة لملاذ يتأون فيه عن ضرباته ، إن إلى بعيد ، أو إلى قريب . .

فما كادوا يلجون الثغرة ، ويغوصون فى جيش المسلمين غوصا حسبوه فاتحة الظفر ، حتى استقبلهم أولئك الرامية — الذين أعدت لهم من قبل مواقع مملومة فيما على الخيل — يرشقونهم بالنبل ، ويغرقونهم من قذائفهم الطائرة فى سيل ...

وأخذتهم المفاجأة . .

ثم عاجلتهم المنايا ، ولما يفيقوا من أثر البغتة . .

لا مهرب الآن . لا ثغرة لنجاة لا سبيل إلى الارتداد . .

فهاهى النبل أمامهم لا تنى تضرب منهم الوجوه والقلوب .

وهاهى الخيل التى حسبوها ولت ، تأتيهم عن جانبيهم ، تكر من هنا كرة ، ومن هناك كرة ، ليلتئم ثانية صفها المشطور . ثم تعطف عليهم بالموت . .

وهاهى ميسرة الجيش ، وتلك ميمنته ، تطبقان عليهم ، ويعمل فيهم رجالهما الرماح والسيوف .

ثم هاهو القلب أيضا ، وهو زاد جام لم ينله منهم شىء ، قد شارك فى استكمال محنتهم ، التى لم تجل لهم فى بال .

من وراء وأمام ، ومن يمين ويسار ، سارعت إليهم المصارع ، وهم بينها حبيسو حلقة محكمة الإغلاق . .

ودارت الرحى فطحنتهم ، وماكان أسرع الدوران ! . .

أهمدوا فى ساعة ، وما أفاقوا بعد من نشوة النصر الذى استطعموه . . لكأنما قيل لهم موتوا فماتوا ! . . وكأنما كانوا على موعد مع النصر والموت فى آن ! . .

٨

مال الإمام إلى مجمع المصارع ، على حافة النهر ، يسـيح بناظريه في الجثث الشوهاء التي طحنتها الحرب ، وإن الأسف ليملك عليه نفسه ، على هذه الغروس الهوج التي طالما ود لو قوم أعوادها فماندته في أمله الأقدار . .

وقال في صوت هامس خفيض :

« بؤسا لـكم ! . . لقد ضركم من غركم . . »

وسمع الهمسة بعض رجاله ، فسألوه :

« فمن غرهم ، يا أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« غرهم الشيطان ، وأنفس أمارة . . غرتهم الأماني ، وزينت لهم المعاصي ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . . »

والتفت به جماعة المسلمين تسير وإياه في رحلة الموت على جانب النهر . . أينما أجالوا البصر كان صرعى وكانت أشلاء . وأينما ألقوا السمع كان حسيس من بين تلك الأكداس التي فرشت الثرى بالدم ، ينم عن أنة خافتة — كخفقة سراج جف زيته — تلفظها ، وما تكاد ، شفتان أخذت تنطفىء عليهما ذبالة الحياة . .

لا معالم ، هنا وهناك في الساحة الفسيحة ، إلا لعدم ، ولا مظاهر إلا لفناء . الخارجة ذهبت مع الظهيرة المولية . إلى غير عودة ذهبت . . مالت إلى مغيب عن وجه الأرض كالشمس الجانحة نحو الغروب . . غدت ذكرى . عبرة في خاطر ذاكر ، وعبرة في عين محزونة ، وحديثا على لسان راوية . .

ولم يخلفوا غير أثر لا يذكر . . قلة بقيت ، تتردد القلوب في صدورهم واجفة بينما قد أهمدتهم الجراح . . وكثرة مضت إلى نشأتها الأولى تخالط التراب لتتحول إلى تراب . . في جانب من أرض الوقعة رقد إمامهم الراسبي ذو الثفنات وفي جسده الممزق رمحا هانىء بن خطاب الأرجبي وزياد بن خصفة . . في جانب آخر انبطح زيد بن حصين بضربة رمح نفذت من صدره إلى ظهره . . في ناحية تجندل حرقوص بن زهير ، وفي أخرى همد شريح بن أوفى . . أشياخهم هلكوا جميعا ولم يبق إلا نفير من عرض الأتباع قد أثخنتهم الجراح . .

ما كان أغناهم عن هذه العقبى المشئومة ! . . ما كان أولاهم إذن بالإصغاء إلى نذيره وهو يحذرهم الحتوف والمصير المخوف !.. أقد كف لحظة عن النصح ، وعن الإعذار ؟ . . أأخفى عنهم ؟ . . أأطبق دونهم سجل القدر على البلاء المنتظر ؟ . .

بل كلا ! . .

لتوشك أصداء حديثه المحذر الزاجر أن تظل لها — إلى الآن — بقية عالقة فى الجو ، تحمل النذير وترسم المصير . . الهواء لم يبدد الأصداء ورهج الوقعة لم يغلفها بعد بغلالة ضباب تصدها عن التردد والانسياب . وضجيج المعركة — من صليل السلاح ، وصهيل الخيل، ووقع الأقدام — لم يذوبها فى العدم . . والذين قد بقوا منهم حطام رجال إلا لهثات مبهورة ، يسعهم أن يلقفوا من هذا الجو الواجم الساكن ، مع آخر ما يلتقطون من أنفاس ، كلمة أو عبارة مما قال . .

ولقد سبق أن قال ، وإنهم ليندفعون للقتال :

« مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ، ولا يهلك منكم عشرة ! . . »

وصدق . ما نطق عن هوى . لكأنما كان يقرأ الغيب من كتاب مفتوح . وها هى القلة المحتضرة تشهد فى أنفسها ، وفى أشلاء جماعتها المبعثرة حولها ، آية صدقة فتستوثق حين لا غناء فى تصديق ! . . وها هم أولاء أصحابه يرون نبوءته رؤية عين لا رؤية تصور أو خيال .. عيونهم تملؤها الآن — وهم يذرعون معه شاطىء النهر الدامى — النتيجة المسبوقة الواقعة ، المقدرة المقدورة . . فى كل مكان بهذا الميدان ، لا تقع من عدوهم إلا على قتيل . . على مناظر نصر لا يسبق ذهن إلى مثيله . . على مشاهد هزيمة بلا نظير . . على معالم بوار ساحق ماحق هو الفناء . . لكأنما ترجمت رمية القدر عن عبارته ، أو كأنما ترجمت عبارته عن الرمية . . حرفا حرفا ، وكلمة كلمة تجسدت العبارة فى صورة ! . .

لكنه كان — مع الذى لقيه من نصر — بادى الهم ، مشغولا بهذه الأرض المزروعة بالجثث والجماجم ، لا ينى يبحث فى كل شبر ، ويتفرس فى كل صريع . . كان يمضى على قلق . ويجيل بصره على قلق . ويكاد ينبش التراب ويغوص فى ماء

النهر عساه يعثر على ما يسعى إليه . . ومن حوله طائفة من رجاله ، تفعل فعله ، وتسعى سعيه ، تسبقه آنا ، وتتأخر آخر ، ثم لا تلبث أن ترتد إليه ، وفى نظراتها حيرة وإخفاق . .

ويهتف بهم حين يعودون :

« ويحكم ! . . التمسوا الرجل فإنه فى القتلى . . »

ويعودون إلى ما كانوا فيه ، ينبشون ويفتشون . ثم يكرون إليه مرة وثانية ومرات وليس فى وفاضهم ما عناه . .

والحيرة تسيطر ، والقلق ينتشر ويشيع . . ومع ذلك فإنه لم ييأس ، ولم يجد به القنوط عن متابعة وجهته . كان موقنا أشد اليقين أنه واقع حتما على طلبته حيثما أراد الله أن تكون . لا شك ولا مراء . فما كذب عليه من لم ينطق إلا عن بينة من ربه وبرهان . .

وحينما تبين اليأس فى وجوه أصحابه ، وأحس أن جهدهم الضائع يوشك أن يحوزهم إلى راحة الإستسلام ، عاد يحثهم ويحفز عزمتهم :

« والله ما كذبت ، وما كذبت . اطلبوا الرجل ، وإنه لفى القوم » .

بهذه اللهجة القاطعة خاطبهم ، وإنه لواثق كل الثقة بما يقول . مؤمن كل الإيمان بأنه سيعثر على الرجل فى القتلى ، إن اللحظة ، أو فى ساعة ، أو بعد ليال وأيام . . فما كذبه محمد . والأعوام التى انصرمت إلى اليوم منذ وقعة « حنين » لم تكن لتبلى نبوءة الرسول الصادقة أو تغير منها فى قليل ولا كثير . . .

ومع ذلك فملائم الضيق لم تغادر قسماته . والقلق النفسى ما فتئ ينتهبه وهو يشهد رجاله يروحون ويغدون فى غير طائل . حتى إذا عيل صبره ، وطال عليه الانتظار ، رأى أن يحسم حديثهم ، فنادى على بضعة منهم دانية منه :

« ائتونى ببغلة رسول الله . . . »

وجاءوه بها فامتطاها وهو يقول :

« . . إنها هادية »

ثم مضى ، وهم يحفون به ، يرتاد المكان ، لا يدع منه ناحية دنت أو بعدت إلا طوف بها طواف تحقق وإمعان ، ولا صريعا مجندلا إلا تفحصه أو أمر رجاله

فقلبوه أمامه ظهرا لبطن ليغوص بناظريه فيه . . حتى إذا بلغوا من شاطئ النهر وهدة غائرة قد شرقت بجثث القتلى وافعمت بها إلى الحافة ، مالت به البغلة إلى جانب به خرير ، وتوقفت عن السير . . .

هنا ترجل يجيل بصره فى تل الصرعى . ثم دعا أصحابه أن يفرقوا الجثث ، وينشروها جثة جثة تحت عينيه . . فلما أفرغوا الوهدة وبلغوا أسفلها دون أن يعثروا فى قاعها على ما يطلبون ، أومأ الإمام إلى أحد رجاله وهو يشير إلى جانب الخرير :

« فتش هذا . . »

وبادر الرجل . فإذا يده الموغلة فى الماء تقع تحت أطباقه على شىء ما إن أطبق عليه حتى صاح :

« هذه رجل إنسان ! . . »

وجذبها إليه كأنما ليستنقذ صاحبها أن يترحل به تيار النهر . وأسرع الإمام يعاونه ، ويجذب الرجل الأخرى ، حتى إذا جرا الجثة ووسداها التراب على حافة الماء ، طالعهم منها قتيل يعلمه سواد لونه ، ونتن ريحه ، وقطعة لحم على منكبيه كثدى المرأة عليها شعرات كشوارب الهرة ، إن مددتها غدت كذراع ، وإن تركتها تقلصت وعادت إلى شكلها الأول كثدى مهدل . .

وصاح الناس حين تبينوه :

« ذو الثدية ! . . »

وخر على ساجدا ، شكر الله ، وهو يقول :

« صدق الله ورسوله . . »

وهللت جماعة المسلمين :

« الله أكبر ! . . الله أكبر ! . . »

وامتلأ المكان ، هذه الساعة من الأصيل ، بهدير التكبير ، يسلمه العصر إلى المغرب ، ويسلمه المغرب إلى العشاء ، فإلى الليل كله ، أوله ومنتهاه . . .

أما الإمام فقد سبحت روحه فى طمأنينة ملكت عليه كل حواسه ، وأشفت به على ذلك المجلس الذى شغله بأمر هذا القتيل ما حدث فيه . .

إنه مجلس الرسول ، ومحمد قد توسطه يحف به أصحابه ، وغنائم حنين التى غنمها المسلمون أمامه يقسمها بين الناس . .

ويقبل عندئذ ذو الخويصرة ، أحد بنى تميم ، يشهد القسم الذى يجريه رسول الله . فإذا الشيطان يستذله ، فيصور له الحق باطلا والباطل حقا . وإذا جلافته تذهب به إلى التطاول على رسول الله ، فيصيح مزريا بتقسيمه :

« اعدل يا محمد ! . . »

فيعرض النبى عنه .

غير أنه لا يكف ، بل يكرر الإزراء :

« اعدل يا محمد ! . . »

ويعرض النبى ثانية ، كأنما ود بإعراضه أن يلى لهذا الجلف فى الرجوع عن رأيه الظالم . .

ومع ذلك فإن ذا الخويصرة لا يفيد من هذا الحلم الممدود له ، بل يعاود ثالثة ، ممعنا فى بهتانه :

« اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ! . . »

عندئذ يرد الرسول :

« ويلك ! . . ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ . . »

ويتبدى على محياه الكريم غضب يدفع أصحابه إلى الضيق برجل بنى تميم المكابر الزنيم ، وإلى سخط قوله ، فينبرى بعضهم وقد أثارهم مسلكه ، يقول للرسول :

« يا رسول الله ، إئذن لى أضرب عنقه . . »

لكن محمداً ينهاه :

« دعه ! . . »

ثم يتبع النهى بقول لن تلبث الأعوام من بعد أن تحقق كل ما ورد فيه ، وتترجمه إلى حقيقة واقعة . .

يقول لهم رسول الله :

« ... سيخرج من ضئضىء هذا ، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من

الرمية . ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئا . فينظر إلى بغتيه فلا يجد شيئاً . ثم ينظر إلى القذذ فكذلك. سبق الفرث والدم .. يخرجون على حين فرقة من الناس، تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم ، وصومكم عند صومهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . . آيتهم رجل أسود ، مخدج اليد ، إحدى يديه كأنها ثدي امرأة ... »

ثم يكمل يقول :

« . إنهم شر الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة . »

... ويعود الإمام من رحلة الذكريات بنفس مطمئنة هادئة ، وقلب عامر بالثقة واليقين ، وبصيرة مجلوة قد استضاء أمامها الطريق . فقد قتل ذا الثدية ، فحققت بهذا فراسة الرسول في الأمر كله — في استقامة نهجه هو ونهج أصحابه ، وفي بطلان قضية الخارجة الذين مرقوا من الدين ، وغدوا الآن صرعى بأثناء النهر ...

١

عز نصرهم . الخوف الذى أوشك أن يشلهم وهم بالكوفة قبيل الوقعة كأنما غسلوه الآن بالنهر . فلا خارجة . ولا فرصة تسنح لكرة على نسائهم وأطفالهم بالكوفة ممن عسكروا على مشارفها، وراحوا يشيعون حكم الإرهاب ويستعرضون عباد الله بالتنكيل والقتل ولا سبيل من بعد لنكسة ينتكسها أمرهم عليهم ، وقد ذاب عدوهم فى الموت كما ذابت طلعة هذا النهار من أواخر أيام السنة الثانية لإمرة على فى غبشة الغروب . .

الساعة التى قضوها على قدم ، يضربون فيثخنون ، بالنهروان ، جنبتهم القلق والفزع والعورة المكشوفة التى ظلت طويلا شاغلهم الشاغل . . أصحاب النهر أصبحوا اثرا مضيعا على شاطئيه . جماعتهم المشاقة العادية غدت كلها قطعة من الفناء . همدت عديدا ودرست عدة . وحين تلفتوا حولهم فى الميدان لم يروا حيالهم منها سوى بضعة لم تبلغ عشرة ، ثم فريقا من مكلومين وجرحى بغير حول ولا حيلة .

وشغلوا أنفسهم قليلا عن بقى بهم رمق من أولئك المدحورين يستنقذونهم من بين القتلى والأشلاء . فما يجدر إلا أن يحفظوا عليهم بقية الأنفاس . ولا هو بمقبول فى شرعة صاحبهم أن يجهزوا على جريح ولو جاء الإجهاز عن إهمال وتغافل . فكذلك أمرهم . وكذلك برأيه تسير خطة الانقاذ .

وقال لهم :

« ادفعوا بهم إلى عشائرهم . . »

ثم مال إلى العشائر يوصيهم :

« احملوهم معكم فداووهم ، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة . . »

ولقد بدا من أصحابه كأنما قد عنتهم الغنائم والأسلاب فى معسكر عدوهم فودوا لو احتازوها غنما للنصر ، فإذا هو يردهم عما ودوا ، ويبين لهم :

« . . أما السلاح والدواب وما شهدوا به الحرب فقسمة بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فمردود على أهله . . »

ولم تعد لهم من بعد بساحة الموت حاجة ، فقد انطفأت الحرب ، وجمعوا السلب ، واحتملوا الجرحى ، إلا أن يجعلوا الأرض بها مجازا إلى غايتهم التى من أجلها بارحوا الكوفة . لم يبق لهم بعد هذا النصر السريع المؤزر ، إلا أن يولوا وجوههم شطر النصر الأشق الأكبر . .

وأوجز الإمام لهم هذه الغاية فى كلمات :

« عباد الله . . إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم . فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام . . »

وما يشك أحد لحظة فى أنه كان موقنا عندئذ أنهم سابقون عبارته هذه إلى السير ، خفافا مشوقين ، إلى وجهتهم المنشودة . فالنصر يشعل الحماسة . والحماسة تورث الثقة ، والثقة تفتح آفاقا من الأمل فسيحة تغرى الأنفس بارتيادها نشدانا لتعزيز نصرها الأول بنصر غيره جديد . . .

ما يشك أحد فى هذا قط لو أنهم حقا — حين سيرهم بدء الأمر إلى النهر — كانوا مؤمنين بما ساروا فيه ، عارفين أنه مرحلة من كفاح مفروض لا يمكن أن يتكشف عن نتيجته المرتجاة إلا بمتابعة الخطا على بقية المراحل . . . لكنهم ، فى واقع الحال ، إنما ساروا أنذاك خداعا وتعمية ، وهم يضمرون غير ما يظهرون . كان سيرهم ذاك مرحلة فى حسبان من يأخذ قولهم على ظاهره ، ولكنه ، فى حسبانهم ، كان نهاية المطاف ! . .

وكذلك انكشف عنهم الغطاء ! . .

فلم يكد الإمام يطالبهم بكلماته ، حتى انبرى له الأشعث بن قيس : رأس التثبيط ، يقول بلهجة الناصح الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، وانصلتت أسنة رماحنا ، وعاد أكثرها قعيدا .. ارجع بنا إلى مصرنا ، تستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عددنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لناعلى عدونا . . . »

وأحسب أن طائفة من الجيش — وإن تكن قلة — سفهت آنذاك قول الأشعث ، ونبت بدعوته فلغير النهروان كان مخرجهم إلى القتال ، ولغير الخارجة كان إعدادهم قبل أن يبرحوا الكوفة . وإذا كانت الخطا قد سارت بهم إلى معركة

اليوم فلأنها وسيلة وليست بغاية ، ولأنها معبر لابد منه إلى الشام ، بتطهيره من من الفئة المنابذة يؤمنون ظهورهم ، ويجنبون بلدتهم كل عدوة مفاجئة ، ثم يحفظون خطوطهم إليها ومنها سليمة حين اشتبا كهم على مشارف الشام . . .

غير أن الأصوات التى ناهضت الدعوة الأشمئية ، لم تكن أعلى جرسا من أصوات المؤيدين، ولا كان أصحابها أعز نفرا وأبلغ أثرا فى الجمع حين تقاس العزة وقوة الأثر بالأعداد والعدات . . . فما أن أعربت تلك القلة عن رأيها حتى تعالت حولها دعوة العودة ، وأغرقت أصوات المعارضة فى طوفان .

ولاح كأنما المناخ النفسى للجماعة يوشك أن يطلع عليها بفتنة جديدة قد لا تؤمن مغبتها فى هذه اللحظة الحازبة التى بلغوا عندها مفرق الطريق . فالإصرار على المضى للحرب ، إن وجد سبيلا إلى التحقيق ، سيقدم إلى سعيرها رجالا كلا رجال ، نفوسهم خواء ، وقلوبهم هواء ، خليقين أن يشكلوا وقودا شهيا للنار ، إذا لم يؤثروا السلامة ، ويهطعوا إلى الفرار . . وهو دون ذلك وقبله مدعاة أى مدعاة لخلاف لابد من وقوعه ، مآل الأمور به انقسام الجيش العلوى على نفسه ، وتمزق وحدته ، وانتكاث صفوفه : صفا فى جانب ، وصفا فى آخر لا يحتكمان إلا لمنطق السلاح . . .

ورأى على من غالبية القوم ميلا لرأى المنافق ، وانحيازا إليه يوشك أن يفسد الأمر عليه ، فبادر يستحث الناس ، ويثير فيهم حمية الجهاد بكلمات من عند الله :

« يا قوم . . ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . . »

لكنها كانت صرخة فى واد .

لم يلق أيهم إليه السمع . إنما تلكأوا ، وبادل بعضهم بعضا نظرات جوفاء . ثم انفلتت طائفة منهم — وقد أعوزتهم الحجة — تقول على تردد وهى تصطنع العذر الذى تحسب أنه يؤيد الرجوع :

« إن البرد شديد . . »

فرد فى تعجب :

« إنهم يجدون البرد كما تجدون ! . . »

فأخلدوا هنيهة أخرى إلى صمت عاق ، وفى عيونهم علائم معارضة وإباء إن لم تكن نذر تمرد وعصيان . .

عندئذ استيأس ، وزفر فى ضيق :

« أف لكم !. . إنها منة جرت » .

ثم تلا قول الله :

« قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . »

وكأنما رأت فئة بينهم أن تعالج الداء بالتريث ، لعل الله أن يجمع كلمتهم من بعد ، ويفئ بهم كانة إلى تدبر يفضى إلى الطاعة ، فبادر إليه منها من قال :

« يا أمير المؤمنين . . الجراح فاش فى الناس . فارجع إلى الكوفة فأقم بها أياما . خار الله لك ! . .

كان قولهم أمنية . ومع ذلك فلم ير ، حسما للنزاع ، إلا أن ينزل على الرأى المعروض . وهل كان له معدى عن النزول ؟ . .

وعاد . .

مضى يجتر ألمه ! . . من إذن لله وحقه إن لم يقم فيه — بصلاته رمح وسرعة إعصار — أصحابه هؤلاء ، العلماء الأبرار ، التالون القرآن ، العابدون القانتون ، المتهجدون بالأسحار ؟ . . من على الشيطان وحزبه ، إن لم يثب جمعهم الجم ، الذى فرق الهدى من الضلالة ، وطعم حلاوة الإيمان ، وأصبح على بينة من أمر ربه ؟ .. فيم نكوصهم اليوم عما ندبهم له ، ودعاهم دينهم إلى النهوض فيه ؟ . . فيم تعجلهم السلامة ، وطريق الجنة — كما يعلمون — تحفه المكاره ؟ . .

ليس بوسعه حملهم على محجته . أعياه أن يفعل . النصح الذى طالما بذله ذهب مع الريح . تبدو كهباء . . لو شاء لألقمهم السيف لهذا العصيان ، ولكنه يأبى أن يخوض فى دم ! . . لو شاء أيضا لصانعهم ، بالمنصب وبالمال ، ولكنه لا يبيع دينه بدنياه ! . .

ما له إلا أن يصبر . . وها هو الآن ينطلق بهم ، على كره ، فيشعر أنه يطوى الأعوام طيا إلى الوراء ! . ها هو يعود القهقرى بالتاريخ ! . . ها هو

يخلف مدرجة الجهاد إلى أرض الدعة . . إلى الاستسلام ! . .

وسار والمحنة . . الهم والغيظ فى ركابه . فى قلبه ثقل ، وفى فمه حنظل . . النصر الذى حازه وإياهم اليوم أشد قسوة عليه من هزيمة مدمرة .. طوال الطريق كان يمشى على عذاب . والجيش الظافر الذى يتبعه ، بدا فى عينه كالفلول الممزقة التى تهيم فى تيه من الجزع والضياع . لا تكاد تعثر فى فراغه على فرجة إلى طمأنينة . .

وعندما لاحت لهم مشارف الكوفة ، أراد أن يغلب جموحهم الأحمق إلى الراحة الذليلة ، فمال بهم عنها إلى معسكر النخيلة ، لعل مكثهم به لا يخمد فى نفوسهم ما بقى من جذوة القتال . فحياة المعسكر خليقة بأن تحفظ عليهم صلابتهم ، وتقوى روح الجندية فيهم . . .

ونزلوا النخيلة . .

وفيها أوصاهم :

« . . الزموا معسكركم ، وضموا نواصيكم ، ووطنوا على الجهاد أنفسكم ، ولا تكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم ، فإن أهل الحرب المصابروها ، وأهل التشمير فيها الذين لا ينقادون من سهر ليلهم ، ولا ظمأ نهارهم ، ولا خمص بطونهم ، ولا نصب أبدانهم . . . . . »

وكان هو الرأى لو فعلوه ، لأنه عندئذ رياضة للنفس ، وتدرب على السلاح ، ومعيشة تهبهم القدرة على لقاء العدو حين تأزف الآزفة ، وهم موفورون ، أهبة ودربة . .

لكنهم خادعوه . .

عايشوه أياما بهذا المعسكر رياء ومخاتلة . ثم أقبلوا يتسللون إلى الكوفة ، واحداً بعد واحد ، وجماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق منهم غير قلة ، لا يجاوزون الخمسين . . .

وفضح الفعل النية ! . .

٢

تنفس معاوية الطمأنينة ملء رئتيه !

يوشك فجر دولته أن يبزغ . الأمل الذى غذاه الليالى الطويلة ، قد زكا وطال . ثم أزهر . ثم أطلع براعمه . ثم أثمر . . .

الأنباء تجيئه مهطعة ، أسرع من شطحات أحلامه ، كأنما تطير بجناح ! . . بشائر الفوز تتجمع حوله . الزمن معه على عدوه . والقدر معه . وأنصار على كذلك معه بهذا الخلاف المتكرر الذى يشنونه بين كل صبح ومساء على أميرهم ، وينتقص من أمره ومقداره . . .

فلا صفين والتحكيم كانا نصرا له وللشام وإن لم يفاجىء بهما على غريمه فى قتال ولا ببرهان . . الخديعة هى التى علت به ، ونصرته . والخديعة هى التى نالت من الإمام فقهرته . . . والأيام أيضا تظاهر المخادع وتأخذ بيده بعد إذ خرجت الخارجة وناوأت صاحب السلطان . . .

حتى وقعة النهروان كانت وبالا على المنتصر . ولقد غرست فى قلوب أهل العراق حزنا مقيما على صرعاهم من الجانبين ، الذين حصدتهم الحرب ، لأنهم جميعا ذوو عصبة وأولياء ، أبناء وآباء ، إخوة وأصحاب وإن تضاربوا بالسيوف والحراب . . غرست حسرة فى كل قلب . وأسالت دمعة فى كل عين . وأقامت مأتما فى كل بيت . ثم لم تجمع الكلمة من بعد بل زادتها تفرقا دفع بالقوم إلى الارتداد دون الالتحام بجيش الشام .

وكذلك رجع معاوية إلى حاضرته ، على طمأنينة . موفورا وما خاض حربا ، منصورا وما ضرب بسلاح . فلقد كفاه عدوه القتال . وتركه ليزيد منعة بين أمة من الناس ، تلتف حوله كأنه علم . لا تراجعه فى رأى رآه وإن حملهم على باطل . يدعو فتجيب . ويأمر فتطيع . ويقود فتنقاد . . .

ولم يعد همه بعد هذه الأحداث أن يخلد إلى السكون . فالمراحل التى كانت من قبل تفصل بينه وبين هدفه قد طوتها له — إلا أقلها — الأيام . والشقة أصبحت قصيرة . والجهد المنتظر منه ومن رجاله غدا كمشـــية الهوينى فى نزهة . . !

ولقد عرف الرجل عندئذ أين يقف وأين يقف أيضا غريمه ، فلم يفته أن يقدر الموقفين بالحساب الدقيق ، ويزنهما فلا يستوفى ولا يخسر الميزان. ثم يطالع بالأمر خاصته وإنه لينوى أن يسير خطوة جديدة إلى الأمام . .

قال فى هذه الآونة وقد دعاهم ليسمعوه ويشيروا عليه :

« قد رأيتم كيف صنع الله لكم فى حربكم هذه على عدوكم .. لقد جاءوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلون بيضتكم ، ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم ؛ فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال . وكفاكم مؤنتهم . . وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم . . ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم دم بعض . . » .

وتمهل هنيهة ثم أردف ، وهو يدور فيهم بعينه ، ليشهد كيف تقع منهم كلماته :

« . . والله إنى لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر . . وقد رأيت أن أحاول حرب مصر ، فماذا ترون ؟ . . »

كان حوله إذ ذاك خيرة صحبه ، وأعلام رجاله ، ممن لهم فى سياسة الأمر شأن وخطر : فيهم من قريش عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن أرطأة ، والضحاك بن قيس ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وفيهم من غيرها: شرحبيل بن السمط ، وأبو الأعور السلمى ، وحمزة بن مالك الهمدانى . . فلما أن نطق بقوله ، كان أسرعهم إلى جوابه ابن العاص :

« قد أخبرتك ، وأشرت عليك . . »

فابتسم العاهل . لقد سبقهم حقا عمرو إلى نيته المضمرة من قليل ، قبل أن يتحدث بها لسانه ؛ فمصر ، لا ريب ، أولهم ، وأدعى إلى وثوبه ، لوفرة ناسها ، وكثرة خيرها ، ودنوها الدانى من أرضه . . وانقطاعها إذن عن العراق خليق بأن يفقد عليا أحد جناحيه ، ويدعه كالطائر المهيض ! . .

ومال عن ابن العاص ، يسأل البقية :

« وما ترون ؟ . . »

قالوا :

« ترى ما رأى عمرو بن العاص . . »

« إن عمروا قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغى أن نصنع . . »

فقال عمرو :

« فإنى مشير عليك بما تصنع . . أرى أن تبعث جيشا كثيفا ، عليهم رجل صارم ، تأمنه وتثق به ، فيأتى مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظاهره على من كان من عدونا . . فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يعز نصرك ، ويظهر فلجك . . » .

فتفكر معاوية مليا فى الأمر . . إن هذا الغزو الحربى الذى يقترحه صاحبه هو أقصر السبل لا ريب إلى مبتغاه . ولكن الحرب — تماما — كالبحر يتماثلان حروفا وطبيعة . فيهما الأمن والخطر . وفيهما المد والجزر . وفيهما النصر والهزيمة . وهو يؤثر ألا يقبل على مغامرة قد تحمله إلى شاطئ السلامة ، كما قد تغوص به إلى القاع ! . .

ودفعه حذره أن يعاود سؤال ابن العاص :

« فهل عندك شىء غير هذا ، نعمله فيما بيننا وبينهم قبله ؟ . . »

فأصر عمرو :

« ما أعلمه ! . . »

عندئذ بادر معاوية برد رقيق حصيف :

« إنك يا ابن العاص لامرؤ بورك لك فى العجلة ، وأنا امرؤ بورك لى فى التؤدة ! . . »

ثم أفصح يقول :

« إن رأيى غير هذا . . أرى أن نكاتب من كان بها من شيعتنا ، ومن كان بها من عدونا . فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم ، ونمنيهم قدومنا عليهم . وأما عدونا فندعوهم إلى صلحنا ، ونمنيهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا . . فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربهم من وراء ذلك . . »

فلم يزد عمرو على أن قال :

« فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير الا إلى حرب ! . . »

وكذلك فضح معاوية معدنه — ذلك المعدن الذى يبديه دائما صاحب ترفق ولين ، لا يعنف بالناس ، ولا يقتحم الأحداث ، وإنما يصابر ويداور ، ويلتوى ويلتف ، شأن الثعبان ! . .

على هذه الجادة سار العاهل أشواط كفاحه ، منذ حدثه طموحه أن يضع خيوط سياسة الدولة فى أصابعه ، يرخيها إذا شاء ، ويشدها إذا شاء . . من يوم توليه الشام ، كان يعمل على جمع هذه الخيوط . وفى محنة عثمان أعد ليبدو وهو وحده المناضل عن الخليفة المظلوم . وحين اندلعت الثورة ودفع بجيشه إلى مشارف المدينة لم يكن يعنيه أن يكف الثوار بقدر ما عناه أن يظهر للناس كأنه على أهبة لمناصرة أمير المؤمنين لو دعاه ! . . ولما أفضت الإمرة إلى على ، برغبة الكافة ، لم يحاول قط مخالفة هذه الرغبة العامة لا بفعل سافر ولا بعبارة صريحة ، وإنما تستر بدعوة القصاص . وعندما وقعت صفين ، وأخذت حربها تلتهم الناس ، ثم رأى أمرها قد أعضل به ، لبس مسوح الإصلاح وتوارى خلف القرآن ! . .

فى كل مسلك له ، كان يبدو بوجه ، ويعمل بآخر . كان يملأ عينه بدمعة تمساح ! . . كان يبدى الجلد الأملس وهو يخفى السم فى الناب ! . ولقد التزم سياسته هذه بمصر فلم يحاول قط أن يعصف بها وإن دعته دائما مقتضيات الحرب أن يوجه إليها أعنف ضرباته ، وأجلد قواته . فقربها من فلسطين ينقض عليه أحلامه ، ولا يكاد يدع له سبيلا إلى الرقاد إلا بعين مغمضة وعين مفتوحة ! . . وخراجها يثرى غريمه بالمال والعتاد . وأهلها الجم الغفير يغذونه بالأجناد . . وهى بهذه الصفات سيف ماضى الشفرة ، حديد السنان ، معلق فوق ناصيته بأوهى من خيط عنكبوت ، وليس يمسكه أن يقع فيفرى ويقطع ، ويسقط ليقد ويقط ، غير كلمة آمرة تند من شفتى الإمام . .

على أن الكلمة الآمرة القاتلة لم يكتب لها قط أن تقطع الخيط ! . . هى فعلا تحلقت على الشفتين ، ولكنها لم تزد على حروف جوفاء ! . . لغط أصداء ! فما لقيت عندئذ السميع المجيب ، حين بلغت قيس بن عبادة ، وهو إذ ذاك عامل على على

مصر ، ورجله بها الذى اختاره لتأمينها له ، والقضاء على من فيها من مشاغبين على أمره ، لتخلص من بعد موحدة الرأى والسلاح ، تطبق من الغرب على معاوية حين يتبين لجيش العراق أن يطبق عليه من الجنوب . .

قيس بن عبادة شاء أن يدع العنف ويعتصم بالدهاء . . هادن من بها من الخارجين على سلطة الدولة ، وأبى أن يحملهم بسيفه على الطاعة . رضى لهم الانحياز عنه ، والاعتزال فى رباطهم بخربتا وغيرها من ريف مصر ، ما هدأوا لا يناوئونه ولا يشغبون عليه . .

وأعطاهم عهده :-

« .. لا أكرهكم على البيعة . ولكنى أدعكم وأكف عنكم .. »

ويوشك امرؤ أن يرى الحكمة فى هذه السياسة المهادنة ، التى تصطنع الرفق بالغريم المنابذ ، عسى الله أن يتألفهم بهذه الهوادة ، ويردهم إلى الجماعة والطاعة .. لكنها ، فى حقيقتها ، لا تزيد على أمنية فى ضمير متفائل ، يحسب الظروف مقهورة على السير فى الطريق الذى يرسمه ويرتضيه . وهى — من أساسها — لا تنهض على ظواهر الواقع ، ولا احتمالات المستقبل التى يوشك الغيب أن يطلعها فى مدى قصير أو مدى طويل . . إنما كل قصاراها ، ومنتهى ما تستطيعه هو أن تجمد حركة التاريخ وتقف بأحداثه عند نقطة البداية ، دون تقدم ، إن لم تعد به إلى الوراء خطوة أو بضع خطوات . .

لب السياسة القيسية الرخوة ، فى هذه المرحلة الحاسمة من إمرة على يكاد يفبئنا — من قبل أن تجبهنا نتيجتها المرة — أنها كانت سبيلا إلى تفاقم شأن المعتزلين ، واشتداد أيدهم وشوكتهم ، وإن تواروا فى مرابطهم على سكينة ، لا يبادرون واليهم بفتنة ، ولا يجاهرونه بعداوة . فما كان مثلهم إلا كمثل قوقعة طوت على نفسها صدفتها الصلبة ، فبدت للرائى هامدة جامدة لا تنم عن حياة . ومع ذلك فالخبر يغاير المظهر ، لأن علائم العدم البادية على القوقعة ، لم تكن لتمنع تطور الحياة داخل القشرة أن يسير سيره ، أو تحرم البنية الحية بها قدرتها على النمو والاكتمال والاستفحال .

حتى العهد الذى قطعه لهم قيس إذ ذاك ، كان مغريا أولئك المعتزلة ، أشد

إغراء ، بالإصرار على الخلاف . وكيف لا ، وإنه وهو عاملهم من قبل على ، لا يحاول حملهم على الدخول فى بيعة أميره ، كأنما لا يرى هذه البيعة تلزم الناس ، وإنما يعتبرها رخصة يقبلها من شاء ، ويرفضها من شاء ؟ . . وكيف لا ، وإن خطابه إلى الإمام عنهم ليلقى فى روع الذين قرأوه ، أو عرفوا ما فيه ، أنه هو نفسه — ذلك العامل المهادن — على شبهة من أمر صاحبه ، وحقه فى ولاية المسلمين ؟ . .

والرجل عندنا لا ريب غير متهم فى ولائه لأمير المؤمنين ، ولا نضح قط تاريخه بحرف واحد من حروف الاتهام ، ولكن كلماته هى التى نطقت بغير ما عناه . فلقد كان مما كتبه للإمام :

« .. إن قبلى رجالا معتزلين ، سألونى أن أكف عنهم ، وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرون .. »

فكيف للأمر أن يستقيم والناس على فرقة واختلاف ، لا وحدة تجمعهم ، ولا سلطان يدينون له بالولاء ؟ . . كيف تتفق كلمتهم وقد خلى بينهم وبين الأهواء ، تذهب يمنة بأولئك ، وتذهب يسرة بهؤلاء ؟ . . وهل حق على فى ولاية الدولة ، معلق بتقلبات الظروف والأيام ، فإن غدرت به فهو مبطل ادعى ما لم يكن له ، وإن آزرته فإنه محق منذ البدء وحق الختام ؟ . .

إن الأثر النفسى الذى نحسب موقف قيس بن عبادة قد غرسه فى النفوس ، لهو أنكى على أمره من كل عداوة كان من المحتمل أن يجاهر بها معتزلة مصر ، وأشد وقعا من أية حرب كان فى مقدورهم آنذاك شنها عليه .. فلقد كانوا أهون من المجاهرة بالعداء ، وأدنى إلى الانذحار والبوار لو أخذهم قيس بما كان يجدر أن يؤخذ به أمثالهم من العصاة . ولقد كانت فرصة استقاءتهم للطاعة أو تأديبهم بالسلاح ملء كفيه لو أنه اصطنع الحزم الواجب ولم يلتزم تلك السياسة الرخوة . لكنه آثر أن يلين فى مقام شدة ، وأن يجمد وداوعى المبادرة تدعوه إلى سرعة الحركة .. كانت الظروف عندئذ مواتية كل مواتاة . والأحداث هادئة من حوله تكاد تستجيب له لو أشار . والمعتزلة تساكنه على ذعر وهى مهيضة الجناح لا تستطيع أن تدفع سطوته عليها ببنان . ومعاوية فى الشام لا تخايله بشائر النصر وإنما تؤرقه خيالات الاستسلام .

ومع ذلك فقد فرط الرجل فيما كان بيديه ، وترك الوحش المنجحر فى خربتا حتى استطالت مخالبه ، وبرزت أنيابه . . ولم يكفه هـذا التفريط ، بل أغراه اعتداده برأيه ، بأن يخالف عن رأى أميره ، حين أمره أن يدع خطته التى لا تقرها طبيعة الظرف ، وشواهد الحال ، ويعمد إلى الحل الحاسم الذى لا تصلح الأمور بسواه :

« . . سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فناجزهم . . »

فقد أجاب :

« . . تأمرنى بقتال قوم كافين عنك ، ولم يمدوا يدا للفتنة ، ولا أرصدوا لها ؟ . . أطعنى يا أمير المؤمنين ، وكف عنهم ، فإن الرأى تركهم . . »

لـكن الفتنة كانت تغتذى فى مرابط المعتزلة ، وتنمو ، وتستفحل . وليخرجن وحشها المنهوم ، بعد قليل ! . .

٣

أو كانوا حقا عشرة آلاف ، أم دون ذلك ، أم كانوا أكثر — أولئك العصبة التى انجحرت آنذاك فى خربتا ، تبكى عثمان ، وتتربص من الزمن بسانحة تسنح فى طالع يمن ، لعلها تستطيع تلبية نداء الدم ؟ . .

فى تقدير الأرقام ، قد تعلو بها عدتها ، وقد تقل ، ثم لا تـكون ، آخر الأمر ، ذات خطر له أثره المرجح ، لأن الـكثرة العددية ليست وحدها العامل الفعال فى تصوير النتيجة ورسم العقبى فى ساحة القتال . . وفى تقدير الظروف المحيطة ، قد يكونون هباء أو أوهى منه ، وقد يكونون ذوى شأن حاسم يقلب ميزان القوى ، ويلوى الطريق أمام الأحداث ليسير موكبها الحافل إلى حيثما لم يكن متوقعا له قط أن يسير . .

ولقد رآهم قيس عندئذ كثرة ، بحساب العدد ، ورآهم قوة ، أيضا ، بقياسه للظروف التى عاشها إبان ولايته أمور البلاد . . . ولا عليه — لاريب — إذ فعل ، فله رأيه ، وله ، إلى جوار هذا ، حقه فى أن يسوس إقليمه على النحو الذى يضمن

الأمن ، ويوثق فى ربوعه الولاء له وللإمام فى آن . فإذا تحقق له من وراء سياسته ما طمح إليه ، فإنه إذن الحاكم الذى وزن فأحسن ، وقدر فأصاب . .

فأين يقف حسابه من دقة الحساب ، وينزل تقديره من رحاب الصواب ؟ . .

سؤال لا يسوقه الجدال ، وإنما يفرضه سلوكه بمصر إزاء أولئكم القوم ، منذ دخلها إلى أن غادرها بعد عدة شهور ، ثم لا تجيبنا عنه إلا وقائع الحال . .

فى صفر من سنة ست وثلاثين ، أقبل الرجل على مصر ، واليا من قبل على يجتاز حدودها، ثم يقتحم على المتجحرين وجارهم وهم إذ ذاك على كثرتهم المزعومة ، وما بيمينه سلاح مرهوب غير كتاب توليته، ولا بصحبته جيش كثيف ،أو بطانة عزيزة الجانب تشد أزره غير سبعة نفر من أصحابه أو أهل بيته كانوا وحدهم كل من رافقه من جند وأحراس ! . .

ومع ذلك فقد ارتضاه الناس،واستقبلته البلاد بطاعة ضاعت فى غمارها نقمة الناقمين . . فما أن قرأ عليهم كتاب الإمام بتوليته حتى أقروه . وما أن دعاهم للطاعة لعلى حتى أسرعوا وبايعوه . . أما العصبة الساخطة فبقيت دون بقية المصريين بمعزل ، فى قريتها تلك ، لا تحرك ساكنا أمام هذا الاجماع . فلا هى عاجلته بسلاح ، ولا عارضته بإشارة ... كل ما وسعها ، وكان قصاراها حينذاك ، أن تبعث إليه ، على لسان أحد سادتها : يزيد بن الحارث ، برسالة تقول :

« . . إنا لا نأتيك ، فابعث عمالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس . . »

تمنع كرضاء ، وعداء كولاء ! . .

واستقامت له الأمور .

فهل عن قوة أم عن ضعف كان منهم ذلك الخضوع ؟ . .

إن جماعة هذا شأنها ، وإن كانت عشرة آلاف ، أو دون ذلك ، أو فوق ذلك العدد أضعاف الأضعاف، وما كانت لتخشى قيس بن سعد بن عبادة إلا وهى تدرك تمام الإدراك أنها ليست بإزاء رجل واحد فى سبعة نفر من أهله ، وإنما بإزاء أمة بأسرها خفضت جناحها للوافد الجديد ، لأنه يمثل رأيها ، ويعمل به ، وينشر على أديمها ، بها ولها ، سلطان ذلك الأمير الذى آمنت ، وآمن معها عامة

المسلمين ، أنه أولى الناس بالإمرة وأحقهم بالسلطان . .

هذه حقيقة لا يشغلنا قط عن تقريرها أن فريقا من رعاياه حاولوا فى البدء أن ينثروا الشوك فى طريقه حين تواثب مسلمة بن مخلد الأنصارى ينعى عثمان ويدعو إلى الطلب بدمه وقيس عندئذ لم يكد يقف بقدم واحدة على أرض الإقليم ! . . فدعوة الدم تجمدت وما كادت تغادر الشفاه . وشرارة الفتنة المنبعثة عنها خمدت ولما تلحق بحطب ولا بهشيم ! . . وما جاء خمودها ذاك عن جهد مذكور من قبل الوالى ولا رعاياه بقدر ما كان نتيجة لافتقارها إلى البيئة الصالحة للاشتعال . وبحسبنا أن نعلم أن قيسا لم يكلف نفسه أكثر من كلمة عتاب بعث بها إلى النافخ فى النار فإذا ناره سلام وثورته استسلام . .

بعث قيس إليه :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . والله ما أحب أن لى ملك الشام ومصر وأنى قتلتك ! . . فاحقن دمك . . »

ورد سلمة :

« . . إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر . . »

عتاب فإقرار ، وإعذار فاعتذار ، كأنما لم يكن ثمة خلاف فلا موجب إذن لإضرام النار ! . .

كذلك كان .

ولقد يزعم زاعم ، هنا ، أن الدهاء القيسى المعهود ، الذى بطن ، هذه المرة ، دعوة السلام بالوعيد ، هو الذى وأد الفتنة قبل أن ينجم لها قرن ، وقضى على نطفتها وما تخلقت بعد ثورة مدمرة حربية بأن تجتاح الأرض المصرية وتصبغ ثراها الأخضر بالدم . .

ولقد يزعم آخر أن حكمة الوافد الغريب على بلد غريب طالبته أن يتريث عندئذ بالعثمانية حتى يعرف المشكلة ، ويسبر عمقها وغورها ، ويدرك حجمها وأبعادها ، ليتبين — عن تثبت — أين موقفه من عامة أهل الإقليم ، وأين منهم موقف العصبة المنحازة ، ثم يبرم فيها أمره — حربا أو سلما — على يقين . . .

قد يكون هذا ، وقد يكون ذاك ، ولكننا لا نراهما غير زعمين جدليين ،

إن أباحتهما مقتضيات ترويض الأذهان ، ومساجلات النقاش والحوار ، فإن عناصر الواقع ، وشواهد الأحوال لا تؤيدهما بحال . .

فالثورة — أية ثورة — كيان عنيد متمرد ، بلا مسامع تصغى لوعيد ، وبلا جنان يرضخ لتهديد . بل شأنها — بطبيعتها — شأن السيل ، يعصف بالجبل كما يعصف بالسهل ، ثم لا يكون أعنف ما يكون قوة وبطشا إلا فى مواجهة التحديات ! . .

والتريث — دائما — رهن بأجل موقوت ، وموعد محدود ، ولا ينطلق به عمره سرمدا بلا حدود ! .

فإذا مضى الفكر مع الزعم الأول — تدبرا وتمحيصا — لاح من ثنايا المراجعة والبحث كأنما تلك المعتزلة فئة اشتبه عليها عندئذ الأمر ، وتقسمها حياله اضطراب فكرى حرمها القدرة على تحديد موقفها منه ، وحسمه الحسم الناجز فى لحظة كانت — بلا ريب — أنسب اللحظات للمجاهرة بالعداء . . .

فلأى سبب إذن يعزى تقاعس الفرقة المنحازة عن مبادرة الوافد الغريب عما ينسكث عليه خيوط الحكم ، ويعجل به إلى حيث لا يكون له عليها سلطان يقهرها بالشدة ، أو يداورها باللين ؟ . .

أكانت على ريب — إذ ذاك — من الخلاف الناشب بين على ومعارضيه ، لا تعلم أى الحزبين على حق وأيهما على باطل ، فاستأنت بالعامل الجديد لعل الزمن بعد قليل يضىء لها طريق الصواب ؟ . .

أم رأت أن على لنفسها فى فسحة من الوقت تجس خلالها نبض هذا الوافد — قبل أن تضرب ضربتها — لتعرف مواطن الضعف ومواطن القوة فيه ؟ . .

أم استجابت — رياء وخديعة — لدعوة المهادنة ، ليطمئن إليها الداعى ، وينام عنها ملء جفنيه ، ثم تأخذه بغتة قبل أن يفيق ؟ . .

أم أحست فى نفسها وهنا يرجح كفته فى مجال الصراع لو أنها شغبت عليه ، واستقبلته بما لا يرضاه ؟ .

أم خشيت نقمة أهل مصر وإنهم ، فيا تدرك ، على ولاء لعلى ، وهى فيهم كجزيرة معزولة ، يحيط بها بحر لجى من الإنكار ؟ . .

أم أرجأت اللقاء الفاصل حتى تستكمل عدتها ، وتشد ساعدها ، ويعدها وليها خارج الإقليم ، ثم يؤذنها بساعة القتال ؟ . .

فروض تدور فى فلك الزعم الأول ، عليها المراجعة ، وتبسطها دواعى التمحيص ، ثم لا تأباها وقائع الأحداث ، ولا دوافع النفوس . .

فلأى سبب إن من هذه الأسباب ، قبلت معتزله مصر — صاغرة أو راضية — الهدنة المريبة التى عرضها قيس ، وليس فى عرضها حينذاك ما ينبئ منه بطمأنينة ، ولا يوحى باطمئنان ؟ . .

لا لهذا السبب وحده أو لذاك من الأسباب ، بل لكل هذه الأسباب ! .

ولمن شاء أن ينكر ، ويخالف عن هذا الجواب ، فليستنبط الحقيقة من شواهد الحال ، فى الحاضر والاستقبال ، وإنها لمخبرته أن معتزلة خربتا لم يكونوا الفئة التى تنشد السلام ، بل كانوا الفئة المفتونه — أو المخدوعة — بدعوة القصاص لعثمان ، شأنها فى ذلك شأن طلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وأحزابهم ممن تباكوا أو بكوا على الشيخ ، ونصبوا أنفسهم قوامين على الإمام ! . .

أجل ، لم تكن هذه المعتزلة ساعية لوفاق ، ولا مبتغية لسلام ، بل — كبقية الحزب المنشق على وحدة الشعب الإسلامى — كان هدفها إثارة فتنة تفضى إلى انتزاع السلطان ، حسدا وضغينة ، ممن قلدته الأمة بيعتها العامة إذ هو أحقها بالسلطان . . فلئن آثرت الموادعة ، فلأنها غطاء لما تضمر ، وطريق تحق سرى إلى ما تروم ! . . ولئن قعدت عن إضرام الفتنة ، فكسبا لفسحة من الوقت تستطيل فيها المخالب وتبرز الأنياب !

الفرقة الخارجة فى مصر على سلطة الدولة ، المنحازة عن الإجماع ، رسمت لنفسها أنسب سياسة لظرف الزمان الذى تعيشه ، ولظرف المكان الذى تعيش فيه. فنزعتها الحزبية تريدها على الشغب ، وقوتها الظاهرة تدفعها أن تهم به ، ولكن سياستها الحذرة تحملها على الإرجاء . . . وهل كانت لتقعد عن القتال فى تلك الآونة إلا وقد أيقنت أنها لا تقوى عليه وإن كانت عشرة آلاف أو زادت على هذا العدد أضعاف الأضعاف ؟ . . وهل كانت لتجهل قيسا ساعة من زمان ،

لو أنها آنست في نفسها القدرة ، وندعه يدخل البلاد ، ويأخذ البيعة ، ويبعث العمال ، ويجبى الخراج ، ويوطد سلطانه أميرا من لدن على على مصر وما هو — إذ وفد — غير رجل واحد ، في سبعة نفر من الأعوان لا يمنعونه سطوة المخالفين ؟ . .

هذا منطلق الفكر مع الزعم الأول ، الذى يرتب انطفاء الفتنة الوشيكة على دهاء والى الإقليم ، نضعه في شتى صور الاحتمالات بغير اعتساف . فلأى منطلق لعله يتجه الفكر ، وهو يتقصى الزعم الثانى : تلك الحكمة التى دعت الرجل إلى التريث بالعثمانية ، وإلى استقباله تشرعهم للنزو عليه — غب وفوده — بالملاينة والترويض ؟ . .

في لحظة مروءة وأريحية ، بلا ريب ، وليس في لحظه حزم ، ألقى إليهم الوالى بكلمة أمان . . وما نلومه إذ فعل . فالمروءة محمدة تحسب للمرء ولا تحسب عليه . والأريحية إحسان يصانع الأنفس النافرة ، وقد يجتذبها إلى ساحة الرضا ، إن لم يكن إلى حظيرة الولاء . . وقيس بن سعد ، إذ اختصهم آنذاك بالترفق ، ولان لهم ، إنما كان يرعى فيهم الرحم ، وحق الجوار ، وصحبة الأمس ، ورفقة العيش والسلاح في الجاهلية وفي الإسلام ، لأن رءوسهم وأشياخهم مثله ، من الأنصار — أهل مدينة الرسول — ثم من قومه ورهطه الأدنين . .

لا ننكر لقيس مجاملته هذه سادة المعتزلة المصريين ، ولا ننكر أيضا لهم مجاملتهم إياه . . فهو يتعفف عن مقابلة شغبهم عليه إلا بالكلمة الرقيقة دون الحزم الذى قد لا يتحقق بغير شفرة السلاح . . وهو يأبى على نفسه اجتماع أمر مصر والشام في يديه ، لو دانتا له بدم أحدهم — دع الباقين — وساد فيهما النظام . . وهو يملى لهم في استرسالهم في الخروج على إجماع المسلمين والقعود عن بيعة الإمام ما شاء له الإملاء . . وهو يسجح إلى مدى تنكره عليه مبادئ الحيطة والحذر ، فيسمح لرفاق فكرهم وتآمرهم ، من خارج البلاد ، ومن الشام بالذات ، بالوفود عليهم ، زائرين أو معززين . . وهو يجرى عليهم — في رباطهم المشبوه — ما يجريه من الأعطيات والأرزاق على بقية الناس أصحاب الطاعة والولاء ، دون نقصان . .

مجاملة لا ننكرها لقيس ، ونقره عليها ، حين يستطاع — أو يرتجى — توثيق الصلات ، وتذويب الحزازات بالمجاملات . ولكننا ننكرها عليه ، ونأخذه بها ، حين لا يكون قصاراها غير الإملاء فى العصيان والانتقاص من هيبة السلطان . .

فلأية وجهة تقودنا هذه المجاملة ، أو السياسة التى التزمها قيس منذ دخل الإقليم ؟ . .

إلى الإنكار لا إلى الإقرار ! . .

بدءا ونهاية ، لاح من خربتا أنها لا تعمل على رأب الصدع الحادث فى جدار الوحدة الإسلامية آنذاك ، ولا تنتويه ، ولا ترنو إليه بمجرد رنوة آملة مرتجية فى شطحة حلم أو فى سرحة خيال . كل همها كان الانتظار . التربص بالأحداث . تحين الفرصة التى تعن للوثوب . .

حتى مجاملة قيس لم تزحزحها عن موقفها ، ولم تغير من نظرتها — قيد شعرة — إلى الأمور . الشقة الفاصلة بينها وبين الإجماع ظلت ثابتة ، كحالها عندما أعلنت الانشقاق . والعدوان على النظام القائم كان شاغلها الذى أجمعت الرأى ، وتشرعت له ، وبيتته إلى حين . .

بل بيتته إلى موعد معلوم ! . . إلى أجل مسمى . إلى ساعة مقدورة محدودة ، لم تسرها عن العامل المجامل ، وإنما طالعته بها فى غير مواربة وبلا إخفاء ، كأنما تبيعه وعيده بوعيد ! . فهذا النظام الذى يمثله ، ويرعى دولته ، ووفد عليهم لينشر سلطته ، لن يلقى منهم سوى عدوة مدمرة ، تهد كيانه ، وتتنقض بنيانه ، وتذهب به فى الغابرين . .

كل ما صانعوا به قيسا وجاملوه هو أنهم أمهلوه . أنذروه لأوان . أرجأوا ضربتهم حتى يستوفى مدة ولايته ويغادر مصر إلى حيث جاء . . فالترفق إذن بابن بلدتهم رفيق أمسهم ، لصيق رحمهم ، وليس بالنظام . والوفاء بالإرجاء رهن ببقائه هو على عمله ، طال أو قصر عمر البقاء . وفيما بين النية المضمرة والعدوان الصريح ، متسع لبدوات الأنفس ، أو تطورات الأحداث ، تبرر نقض العهد وامتشاق الحسام ! . .

وكان قيس على بينة من احتمالات الموقف أو يكون إذن فى غفلة تهدر دهاءه وتمتهن ذكاءه ، وتضعه حيثما لا ترضاه له ، ولا يرضاه كل الذين خبروه . . فسير الأحداث فى تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية لم يكن رخاء يجرى على نسق معلوم مرسوم ، وإنما مضى على اضطراب وتقلقل ، يطالع الناس بين الآن والآن بما ليس بحسبان . . ونزعات الطموح أو الطمع كانت تتلمس بالأنفس فتفرق جماعة الأمة ، وتزرع الضغائن ، وتحزب الأحزاب ، أو تجيش الجيوش وإرادة قيس ليست هى الإرادة التى تستديم له ولايته على مصر ، أو تطيل فيها مدته كيف شاء وأنى شاء ، لأن الولاية عليه ، والأمر دونه ، لأمير المؤمنين الذى يثبت ، وينقل ، ويعزل عماله حسبما تدعوه سياسة الحكم ، وغير الظروف ومقتضيات الأحوال ، فى قلب الدولة وفى مختلف الأقاليم .

فإذا نحن ذكرنا أيضا عناصر الدس والتآمر التى كان أعداء على يسربونها إلى الأمصار ، نشرا للفتنة ، وإيقاعا للفرقة بين أهلها وبين عمالهم ، ثم بين أولئك الولاة وبين أمير المؤمنين ، للقضاء على هيبة الحكم ، ونكث خيوطه ، والذهاب بالاستقرار المذهب الذى يضعضع السلطة الشرعية ويدعها فريسة سهلة للعدوان ، إذا نحن ذكرنا هذه العناصر التآمرية فإن العنصر الوحيد الذى يظهر فى الأفق ، بعد هذا كله ، ويضمن بقاء قيس على مصر لا يكون غير الخلود ! . . وما نحسب الرجل إلا آمن أنه — لا محالة — زائل عن مكانه بانقضاء أحد الأجلين : نهاية عمله ، أو نهاية أجله ! . . وما نحسب مصر بعده إلا آئلة لوال سواه ، دون عهد قد يقيها عند ذاك سطوة المعتزلة ، أو يجنبها الخروج — بحد السيف — عن طاعة الإمام .

كل هذه الحقائق والاحتمالات كانت ، بلا ريب ، ماثلة أمام قيس وهو يجنح للسلم ، فيؤثر مهادنة مخالفيه لأنها الوسيلة الوحيدة التى تكفهم عنه ، فى مستهل عمله ، أن يعبثوا بالنظام الذى يمثله ، ويعزقوا الأمن ، حتى يتبين ويتبين الناس . فإذا المعتزلة أقرته على هذه المهادنة ، فإنه لعليم أنها تقره مصانعة له ، وليس مصانعة للدولة ، لأجل موقوت بزوال ولايته إن لم تكن وقتته باكتمال عدتها ، واشتداد أيدها ، وقدرتها المرتقبة على المجاهرة بالثورة التى تكنها فى الصدور . .

إذا هو مضى على سننه هـذا لفترة ، حدسا منه على تجنيب العهد العلوى الناشىء فتنة جديدة ، تزيد من أعبائه ، وترهقه عسرا ، وقدمه لم تثبت بعد على أرض الحـكم . .

سياسة إغضاء ، تؤجل العداء ولا تعجل به، ارتضاها الطرفان ولـكل منهما مأرب من ورائها يأمل أن تحققه الأمام . فخطر خربتا قائم على الدولة ، وإن نام عن قيس ، أو أغفى بعين حذرة ، تتسرب منها النظرة الخالسة من خلل الأهداب . وخطر قيس عليها قائم ، وإن عاهدها على حبسه عنها حتى تتكشف الأحداث ويتبين الناس . واستقامة الوضع بعد هذا ، فى الدولة تحت إمرة أعا امرىء تولاها ، لا تتم إلا بانجلاء أحد الخطرين ، وخضوع فريق للآخر الخضوع الذى يلأم الصدع ، ويحقق الألفه ، ويجمع بالوحدة بين طرفى النزاع . .

هذا هو الوضع الذى يوفر للدولة — أية دولة — مقوماتها ، ويضمن لها السيادة على ما لها من أرض ، ومن بها من أفراد . وكل عامل بها مسئول عنه فى ولايته ، ومسئول عنه أيضا فى نطاق الدولة العا ... ذن الحـكم الأمثل مشاركة عامة ، وليس مشاركة بالاجتزاء ! . . فاستقرار النظام فى إقليم ، يعين على استقراره فى بقية الأقاليم . وانقطاعه فى أحدها يغرى بانقطاعه فى آخر ، والنظام كالانقسام ، لـكليهما عدوى حقيقة بأن تصيب الأمة ، وتترك أثرها فى بنيتها القومية وكيانها السياسى : سقما أو صحة ، ضعفا أو قوة ، كيفما تهيأت لأيهما البيئة الملائمة ، وأسباب النفوذ والتمـكن ، وذرائع الانتشار والاستشراء .

على هذا الوجه يستطاع معايرة الموقف الذى اتخذه قيس تجاه معارضيه فى الإقليم . وبه وحده يستشف المآل الذى تفضى إليه سياسته بمصر : دعما للدولة أو دفعا بها إلى الانهيار . .

فهل وفق الرجل ، وهو يقف موقفه ذاك ، بما عليه ، ونجح فى أداء دوره المفروض قبل الدولة ، التى نصبته ممثلا لسيادتها ، كما ينبغى أن يؤديه عامل يعرف نصيبه من المشاركة العامة فى الحـكم ، فينهض به ، ملتزما فى خطط حكمه الإقليمى تلك السياسة التى لايقوم على غيرها — فى دولة من الدول — حكم ثابت متماسك ، ولا يستقر نظام وطيد ؟ . .

يظلم الرجل من يراه أخفق كل الإخفاق ، ويظلم الحق من يراه نجح كل النجاح ! . . فما ينسى له أنه ، فى داخل حدوده ، سعى سعيه لإقرار النظام وإن سلك إليه سبيل الحسنى ، أو المجاملة ، أو تجميد العصيان ! . . ولكنه ، مع هذا ، النظام الجزئى الذى — إن صلح به حكم ولاية « خاصة » منفردة ، أو باللفظة التقليدية : « إقطاعية » — لا يمكن أن يصلح به حكم دولة موحدة تذوب « فردية » كل ولاية من ولاياتها فى الكيان السياسى العام . .

فإذا دعتنا شرعة الإنصاف إلى الاعتراف بفضله الظاهر فى إرجاء الفتنة لا إطفائها ، وبقدرته على نشر سيادة الدولة على مصر — إلا خربتا — إبان عهده ، فإن حتما علينا أن نذكر أيضا أن هذه الخطوة التى خطاها إنما كان ينبغى أن تتبعها خطوات أو تكون السيادة التى حققها عودا هشا قد تقتلعه خفقة هواء ! .

كان إذن عليه ، وقد أمن عمله بعض أمن ، وبسط ظل الإمام على معظم أرجائه ، أن يمضى قدما وما بدأ ، متابعا سيره إلى الأمام ليستوفى سيادة الدولة على مصر : بكل اجزائها ، وكل أبنائها ، لا بلوغا بهذه السيادة — بهيبة الحكم وليس بنزوة المجاملة ! — إلى الحد الذى يثبت الأرض تماما تحت قدميه وقدمى أى عامل سواه ، بل توكيدا لشخصية الدولة ، ولحقها على كافة مواطنيها ، وتحقيقا لوحدتها وللاستقرار العام على أديمها السياسى كله ، من أدنى إقليم إلى أقصى إقليم . .

لكأنى به قد استيقن وفاء تلك الطائفة من رفاق أمسه الأنصار بعهدهم له ، فأمن منهم الغدر والعصيان . . لكأنى به أيضا استيقن استقامة الأمر ، لا محالة للامام فى كافة أرجاء الأرض الإسلامية ، فى خلال أيام ، فلا حاجة به ها هنا إلى عنف تغنيه عنه الهوادة ، ولا إلى سيف تكفيه عنه بشائر السلام ! . . وهل هى إلا بضعة من الزمن قصيرة يذوب فيها القلق النفسى الذى يصاحب التغيير ثم تثوب القلوب ، وتهدأ الخواطر ، ويألف الناس الأمر فتدخل زمرهم أفواجا فى طاعة الخليفة الجديد ؟ . .

أدنى إلى هذا ومثله كان رأى قيس ، لا ريب ، وهو يترفق ترفقه ذاك يبغى

بلدته ، رفاق أمسه ، الذين شاءوا الانتحاء عنه ، عند وفوده ، وتخلفوا بانتحائهم عن الإجماع . . وما يستطيع أحد أن يأخذ عليه نظرته ، أو يقابلها بتثريب وشواهد الحال عندئذ تقره عليها ، وتكاد توفر لها كل مقومات الصواب . . فلقد شهد بعينيه كيف لاحقت الجماهير عليا غب مقتل عثمان ليتولى الأمر وهو عانع — زهدا فى الإمرة — ويهيب بهم أن يلتمسوا غيره ويدعوه . . ثم شهدهم يتداكون عليه ، تداك الإبل الهيم على الشرب ، ويحملونه حملا على القبول . . ثم شهدهم يدلون إليه بطاعتهم عن رضا وإجماع كلة ، على ملأ ، وفى بيعة شعبية عامة لم تنعقد قبله لأمير . .

ما كان قيس يتوقع قط أن يخرج امرؤ من المسلمين على طاعة على والشعب كله هو الذى ولاه . الشعب كله . بكل فئاته . بكل طبقاته . بكل أجناسه وألوانه . بكل بقاعه وأوطانه . . فلم تكن بيعته بيعة خاصة كالعهد من قبل بغيرها من البيعات التى كان فيها اختيار الخليفة لمجتمع المدينة ثم المتابعة والإقرار لما عداه من مجتمعات . لم تكن بيعة مهاجرين وأنصار كبيعة ابى بكر الصديق . ولا بيعة عهد شخصى ووصية فردية كبيعة عمر بن الخطاب . ولا بيعة بضعة قرشية لقرشى منها كبيعة عثمان بن عفان . إنما كانت بيعة عامة ، توفرت لها كل جوانب « العمومية » وأجمع عليها المهاجرون ، والأنصار ، والقرشيون ، والقبائل الأخر ، والرعاة ، والعبدان ، وأهل الأمصار . بل هى كانت ، فوق هذا كله ، ترجمة صادقة أمينة عن التطور الفكرى والإرادة الشعبية الحرة والتغيرات الاجتماعية فى بنية الوطن الإسلامى على إتساع رقعة أراضيه ، تمثلت فى أهل المدينة ، وعبدانها ، وأهل المياه ، ووفود مصر والكوفة والبصرة الذين أمروا عليهم — بمحض اختيارهم ورغبتهم ، وبغير عهد ، ولا دعوة ولا توجيه — رجلا لم يعرض نفسه ، ولم يسع إليهم ، لأنهم رأوا فيه وحده ، من دون الناس أجمعين ، المثل الكامل للحاكم الذى ترنو إليه مبادئ ثورتهم السياسية النازعة إلى شعبية الحكم بغير تمييز عنصر على عنصر ، وثورتهم الاجتماعية الهادفة إلى وحدة العدل وجماعيته ، بغير تفضيل طبقة على طبقة . .

فلو أنه لحظ قبل مخرجه إلى عمله بادرة خلاف أو انشقاق على إمرة على ،

لما شفع له فى موقفه المهادن من الخارجة المصرية شفيع . ولـكنه خرج فى صفر والرأى العام مع الإمام ، وكلمة الثورة هى العليا ، والناس كلهم لها تبع وظهير . ودخل مصر فى نفس الشهر ، والحال هى الحال : الوضع ثابت والأمر جميع . الريح رخاء . على الأفق هدوء ، وفى الجو سلام، وليس ثمة غيمة تنذر بعاصفة ..

الثابت قطعاً أن بذور الانتقاض على الخلافة الجديدة ظلت مطمورة فى طوايا باعثيه بضعة أشهر بعد البيعة لا تبرز لها أسواق ولا ثمار ! . . يؤكد هذا كل التأكيد أن الأمصار استقبلت عمال على عليها بلا معارضة . . عثمان بن حنيف ارتضته البصرة . وقيس بن سعد ارتضته مصر . وعبيد الله بن عباس ارتضته اليمن . وإذا كان عمارة بن شهاب قد حيل بينه وبين الـكوفة ، فإنها بايعت للإمام على يد واليها قبله أبى موسى ولم تحاول أن تشق الطاعة أو تخرج على دعوة الخضوع

أما الشام فهى وحدها التى ردت عنها عامله سهل بن حنيف ولما يجاوز تبوك ، ثم لم تدل بالبيعة . ومع ذلك فإن ردها إياه ، وتخلفها عن الدخول فى الإجماع كان خليقا بأن يحمل عندئذ على الإرجاء أو التردد قبل أن يحمل على العداء أو التمرد . فما أسفر عاهلها عن نواياه المناهضة لأمير المؤمنين إلا فى ربيع الأول من العام عندما بعث إليه بالطومار . .

وفتنة الجمل لم تبرز أيضاً إلى الوجود إلا فى ربيع الثانى — على الأرجح — بعد مصرع عثمان بأربعة شهور . وإذا كانت دعوة عائشة إلى القود للخليفة الصريع قد سبقتها فى الحرم ، وترددت بمـكة ثم جرت بها إلى ماورائها الأنباء ، فإنها دعوة لم تـكن لتفهم ومثيلاتها من الدعوات آنذاك على أنها نداءات انقسام أو عصيان . بل قد كان لها من ظاهرها البرىء ما يبعث على الاعتقاد أنها غيرة على هيبة السلطان . واستعداء للحاكم على المجرمين . وصيحة تفجع تطالب بإقرار العدل مستعثة ولى الأمر إلى التعجيل بالقصاص للمظلوم دون أن تشى بتمرد أو تنم عن خلاف ظاهر أو خلاف مستور ...

طوال شهرين ، أو ثلاثة ، كانت الظواهر كلها لا تنبو بموقف قيس ولا تجافيه . بل قد كادت تبدى الحـكمة ، كل الحـكمة ، فى مسلـكه تجاه معتزليه . .

ففيم إذن مجاهرته إياهم بالعداء ، ونزوه عليهم بحرب مجلبة ، تقطع الرحم ، وتهد الصحبة ، وتبذر الثأر بينه وبين طائفة عزيزة عليه من مواطنيه ؟ . . ولم التعجل وصبره عليهم ، في هذا الجو المبشر باتساق الأمور ، لا ريب آتيه من لدنهم بالاقتناع والطاعة والأمن المنشود ؟ . .

غير أن الأقدار أبت أن تسبح على ظنه ! . .

بخلاف ما قدر ورجا ، تكدر الأفق الصافي ، وراحت تزحف عليه الظلال . . بدت غيمة هنا ، وبدت غيمة هناك . تجمعت كسفة ظلام إلى كسفة ظلام . ثم تحركت الريح . ثم ولولت . ثم عصفت . ثم عربدت كشيطان ! . .

في أسابيع قليلة ، بل في أيام ، توالت الحوادث سراعا على أديم الدولة ، حتى ليلهث الذهن وهو يتابعها ، وتترجرج العين — من حيرة — إذ تحاول ملاحقتها من مرمى نظرة إلى مرمى نظرة ، ومن مكان إلى مكان . . في البلدة الحرام ، اكتست الدعوة البريئة المتفجعة جلد ثعلب ! . . على الطريق إلى البصرة ، هدرت الكتائب المعبأة تقودها الضغينة ! . . بأرض الشام انحسر مد التريث الأخرس عن ثورة عصيان ! . . وإلى كل هذه الخطوب ، المتفجرة من قاع الغدر ، تناثرت زمر وطوائف ، في شتى الأنحاء ، ترتد ٠مزلة ، أو تخلع البيعة ، أو ترفع ألوية الدماء والدمار ! . .

حتى الإمام بدا كالمحير ، أيسرع بالردع إلى هذه الفرقة الخارجة على سلطان الدولة ، أم يعجل دونها بتلك ويدعها هي إلى حين . . في أول الأمر أوشك أن يسير بجيشه إلى ابن أبي سفيان ، إذ ألب الشام عليه ، وخرج بها ، وبأهلها ، من النظام العام . ثم كبح نفسه وسيفه ، وهم أن يلحق بطلحة والزبير وعائشة ، عسى أن يردهم بالحسنى عما اعتزموه ، وهم ببعض الطريق . ثم عدل خطته ، وحشد لهم حين فاتوه وعصفوا بالبصرة ، وأشاعوا بها القتل ، وأفشوا الجراح . وهل له معدى إذن عن ملاقاة السلاح بالسلاح ؟ . .

دراكا تعاقبت الأحداث على الحكم الناشئ ، وعلى الخليفة الجديد ، وأسهم الناس فيها : كل بنصيب ، يدرأون الخطر ، أو ينفخون في النار ، بحسب ولائهم أو عدائهم ، وبقدر أيدهم وجهدهم ، يدفعهم إلى العمل إيمان بهدف ، وإحساس

بتبعة وتشبع بعاطفة ، ومشايعة واعية أو عشواء لرأى روج له بينهم صاحب السلطة فيهم ، أو حملهم عليه . .

أغاب فى هذه الأونة يا ترى عن قيس الخطر الماثل ، الذى تجمعت نذره فى أفق أمته ، وكاد يصيبها الانقسام ؟ . . أخفيت عنه الأنباء وغاض نبع الأخبار ؟ أكانت التبعة الملقاة على عاتقه — كوال من ولاة الأمصار ، وممثل للدولة — تسمح له بإغضاء طرفه عما يدور ؟ . . أأغفل صاحب الإمرة الشرعية دعوته إلى المشاركة فى الصراع الوشيك ؟ . .

ساعة ساعة ، ويوما يوما ، كان عامل مصر يعيش الخطر ويتنفس الأحداث . وخطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، كان يتنقل بباله وخياله مع الإمام . . فمنذ مولد حركات الخلاف والتمرد ، بعث علىّ إليه ليندب من قبله من الناس لحرب الشام ، حين كان مظنونا أنه سيبدأ بالشام ، وما كان قد ظهر بعد مابيت أصحاب الجمل للبصرة ، ولا ما أكنوه من خلع البيعة وصدع وحدة المسلمين .

ومع ذلك ، فمابان من الخطوب وجزرها ، عاش قيس ثابتا كأثبت ما يكون جأش ، هادئا كأهدأ ما يكون بال ! . . كأنه بلا أعصاب ! . . كأنما الأمر لا يعنيه ! . كأنما النوازل المحيقة ، بعالم ، وهو منها بنجوة ، فى عالم بعيد بعيد . . لقد ندب ، وكان هذا قصاراه ، كأن فى الندب الغناء فى الغناء ! . . وقد توالت عليه الأخبار ، وكان قصاراه أن يتابع من خلالها ، تطور الأمور ! . . أما دلالتها . . وأما ما لعلها تثير من تكهن ، وتشير إليه من توقعات . وأما ما عسى تتمخض عنه من عواقب ونتائج ، فكلها — فيما يلوح — لم تحمله على تعديل أسلوبه . ولا على التكييف المرن الذى يقتضيه تغير الاتجاهات والظروف . . .

آثر التريث . بدا كأن شاء الثبات حيث كان . رأى تجميد موقفه الذى اختاره من اللحظة الأولى ، فلاح كالذى يرى قمة الخير فى التجميد ! . فهدوء مصر ، وسط تواتر القلاقل فى سواها ، يحسب لعلى ويصلح أمره ، وليس يحسب عليه . . وصبره بها على خارجة خربتا إملاء لهذه الطائفة فى الطمأنينة ، وكبح ليلها العدوانى عن المبادرة لسلوك قد يضيف اضطرابا إلى اضطراب ، ويوسع رقعة التمرد المشبوب . . وتخدير الفتنة أفضل من إيقاظها على أى حال ! .

كل ما فعله قيس ، فى هذه الآونة الحرجة ، هو التصبر الحذر . . . الترقب والانتظار . . . الانحياز عن الإسهام الفعال الذى عليه لسان الواقع ، ويرجحه منطق الظروف . . الوقوف بمصر بمبعدة عما يدور خارج الحدود . . المشاركة فى الحكم بالاجتزاء كأنه صاحب « إقطاعية » خاصة ، وليس بعامل على ولاية فى دولة موحدة ، ذات أمن موحد ، قد تؤثر سياسته الإقليمية — الخارجة على الإطار العام — فى وضع الدولة ، كما يتأثر أيضا إقليمه أسوأ تأثر بما قد يصيب غيره من أقاليم . . .

أية نظرة عابرة عجلى يلقيها أمرؤ على الحركات المناوئة للإمام إذ ذاك خليقة بأن نقر خطة الحيطة المحاذرة التى انتهجها قيس ، وشاء بها — إبان تفجر التمرد — تجنيب على شر محنة جديدة . لكن إمعان الفكر فى تلك الحركات ، بوسعه أن يعدل بالمرء عن الإقرار إلى الإنكار . فحين يستقرىء الحوادث ، ويتبين دوافعها ، يود ويود معه منطقها — لو لم يستمسك الرجل تجاهها بمسلكه ، ولو غير أسلوبه . . وحين يغوص إلى جذور بعضها ، يرى فيه ما قد أسفر عن نتائج ترتبت على مقدمات ما كان ليعوز قيسا الوقوع على مثيلاتها فى إقليمه . وحين يستوحى بعضها الآخر دلالاته ، لا يعدم أن يجد بينها ما يحثه على ترك ركوده ، والمضى قدما إلى عمل حاسم بأوسع خطأ وأسرع اندفاع . . ولا نريد بهذا أن ننساق إلى لوم ، أو نتزلق فى مساجلة جدلية وأمامنا ما يغنى عن التأويل . .

أجل . بغير جنوح إلى مجادلة ، ودون اعتساف لتأويل ، يسع المنصف أن يتبين الدوافع الكامنة وراء حركات التمرد كافة ، فى تلك الآونة ، فإذا هى لا تصدر إلا عن حسد للإمام واضطغان عليه . فأسباب التمرد ، فى حقيقة الأمر ، « عاطفية » لا موضوعية . . خروج طلحة والزبير على طاعته باعثه فوزة دونهما بإمرة زهدها ، ولم يطلبها ، بينما قد طالما منيا النفس بها ثم سعيا إليها سعيهما الدائب ، وركبا متن التدبير فخيبت دونها القدم وكبت المطية ! . . ودعوة عائشة إلى مناوأته انبنت على أسس « نفسية » لا على أسس تتصل بسياسة الحكم ، أو قدرة الحاكم ، أو صالح المحكومين . . وعصيان معاوية تفجر ، كما هو معلوم ، من بركان ذلك الحسد الأموى القديم لبنى هاشم ، الذى ظل طويلا يثور ليهدأ ، ويهدأ

ليثور ، عدة أجيال . . فإذا بدا لامرىء من بعد أن يقول إن رغبة الثأر لعثمان هى التى حركت تمرد الناهضين ، فإن ظروف المصرع ذاتها تدحض هذا الادعاء وتنفيه لأن دعوة القصاص ذريعة مفتعلة مصنوعة ، وسبب زائف دخيل وليس بصادق ولا أصيل . . وبحسبنا أن علمنا ، فى هذا المقام ، أن طلحة والزبير وعائشة كانوا رءوس المؤلبين على عثمان ، الداعين الناس — فى حياته — سرا وجهرا ، إلى الثورة عليه وطى سجله أجلا وخلافة ! . . وأن ابن أبى سفيان لم يحاول عندئذ — وقد كان بمقدوره — أن يحرك جيشه المتربص على مشارف المدينة ، ليدفع عن الشيخ ، المحصور فيها ، مصيره ، ثم ساوم الإمام ، بعد المصرع على البيعة لقاء جباية مصر فوق ولاية الشام ! . .

ولم تعدم الدعوة من رجالها أناسا نبا زيفها بهم ففارقوها ، أو نقدوها ولحوا دعاتها على ما ادعوه ، وإن كان صلاح أمرهم فى نجاحها وبلوغها الشأو الذى تريد . . وليس سعيد بن العاص ، والى الكوفة من قبل عثمان بالوحيد الذى جرى ذكره فى هذا المقام . ولا محمد بن طلحة بن عبيد الله ، الذى ألقى على ابيه — زعيم الدعاة للثأر ! — ثلث دم الخليفة المقتول ! . فدعوة القصاص إذن لم تكن لتنجم ويرتفع لها صوت لو أن البيعة قد أفضت إلى غير على بعد عثمان . . ولم تكن أيضا سوى ذريعة ، مفتعلة ومصنوعة ، حاول أصحابها — خداعا وتمويها — أن يرفعوها شعارا عاليا أمام أعين الأمة ، انتقالا بحركاتهم المنتقضة الحاقدة من نطاق الهوى الخاص إلى حيز قضية عامة . . .

ولقد أطلق رجال الفتنة النيران من عقالها ، وأججوها فى أرجاء الوطن العربى بدعوتهم هذه التى مست مكمن الأسف والتفجع فى قلوب الناس ، ثم راحت تستثير التعطش للانتقام من عاد ظالم لقتيل مظلوم . ولا ينفع هنا أن يقال إن الجرم قد ألقى على غير مقترفيه ، لأن الجماهير ، فى مثل هذه الحالة ، يصدرون فى انقيادهم العاطفى عن غريزة القطيع ! . .

ومع ذلك فإن الخطر فى الدعوة التى ذاعت ، وتوالى موجها العاتى كالطوفان ، لم يكن فيما حركت من غريزة الوحش القابع فى جوف الإنسان ! . . . ولا فيما أيقظت بنفوس بضعة حاسدة من حقد ، أو جشعة من نهم بالسطوة والجاه ! . .

ولا فيما ابتدعت من عوامل الشقاق والانقسام . فالتنافس على السلطان — أى تنافس — يحمل دائما فى طواياه بذور خلاف تنبت العداوة وتزكى الصراع ، وتثمر الفرقة . وهو عادة يقترن بالشغف بالدم ! . . إنما الخطر ، كل الخطر ، كان فى استغلال الدين ، وتسخيره لخدمة الشعار الخداع . ومن ذا يستطيع أن يقول إن القصاص لا يدعم الحياة وأنه ليس بعض شريعة الله ؟ . .

الذى لا جدال فيه أن شعوب المجتمع الإسلامى عندئذ — على امتداد الدولة الجديدة — كانت حديثة العهد بالإسلام . وأن أبناءها كانوا لا يزالون قريبين ، قربا زمنيا ، من الرسول . وهم بهذا وذاك أحرى بالاهتمام بالدين الجديد الذى اعتنقوه ، وأدنى إلى الغيرة عليه أن يخرق فعل فاعل ، أو جماعة ، أحد مبادئه ، أو يخرج على بعض أحكامه . وليس يجدى أن يقال إن الفترة الزمنية القصيرة المنقضية على انبثاق فجره ، لم تكن كافية للتمكين لهذا الدين فى قلوب الكافة على نحو يحقق توثق التفاهم به ، ويمضى بجموعهم فى مظاهرته إلى أبعد الأشواط . . فمن آمن به حق الإيمان فإيمانه الصادق يكفيه . ومن اعتنقه متابعة فالحياة الجديدة التى نقله إليها الإسلام — بكل مزاياها المادية التى أثرت الشعب ، وبكل مزاياها المعنوية التى رفعته فوق الشعوب المعاصرة وسودته على أعظم الحضارات — تعده بمثل قوة الإيمان الخالص العميق . .

عن هذا الخطر المنذر بأفدح النتائج ، تكشفت حركة التمرد ، فى عدة أرجاء ، وتبلور حولها ، هنا وهناك ، تأييد مؤمن بدعوتها عن اقتناع ، أو تأييد قطيعى مخدوع . . وبهذا الخطر قوبل على ولما يكد يخطو أولى خطواته إلى الانتقال بالدولة من قلق الثورة إلى هدوء الاستقرار . والسماح لهذه الدعوة بالذيوع ، أو الإفساح لها فى الانتشار ، هو فى حقيقة الأمر صب للزيت على النار . وهو سلاح حاد بتار يسهل أن يجد طريقه إلى قلب الأمن القومى للبلاد ليصميه ، ويهدد وحدة الأمة بالانهيار وما لا يمكن أن يقال فى موطن صواب إن ثمة حاكما مسئولا ، أو مواطنا عاديا من عامة الجمهور يستشعر حق أمته عليه ، والغيرة على مصيرها وإن لم يكن له دور مقرر فى الحكم ، يستطيع وهو آمن من اللوم أن يستبيح لنفسه الإغضاء عن شبح هذا التهديد . . .

من هذه الوجهة وحدها — دع ما سواها من الوجهات ! — يكفى معايرة المسلك الذى سلكه عامل مصر حيال جماعة خربتا المعتزلين ، فإذا هو بعيد غاية البعد عن مسلك الحاكم المسئول ، ومسلك المواطن الغيور ! . . فلقد أمن هذه الطائفة الخارجة على البيعة ، وعلى النظام العام ، وجعل منها — بفعله — لافتة منشورة أمام الناس ، تعلن بجلاء مشروعية تلك الدعوة الخداعة إلى القصاص . ولقد يسر لها — أو لم يمنع — اتصالها بأمثالها من الوافدين عليها من خارج الإقليم . . ولقد وفر أيضا لأفرادها رزقهم كاملا من الفيء توفيره لمن عداهم من الموالين . . فإذا لم يكن فى مسلكه ما ينم عن رضائه عنهم ، ثم يروج الانتقاض — مبرقعا بدعوة القصاص ، فأى مسلك يا ترى سواه يمكن أن يحبو الخارجين على الإمام ، وسلطة الدولة ، ووحدة الشعب ، بالتأييد ؟ . .

ونكرر أن هذا لا يطعن على الرجل ، ولا يتهمه فى ولائه ، لأن تاريخه ، ونقاء نيته ، ينزهانه عن الاتهام . ولكنه زلة بدرت ، وفى مقدورها أن تطغو على كل ما نحله ، أو عرف عنه ، من دهاء ! . . وهى زلة عصية أمامنا على التبرير . وهى حلقة فى سلسلة طويلة من الزلات . ويحسبها هنا أن أضفت على الخارجة صفة الغيرة على الدين لتلف حولهم السذج من العامة وعرض الناس الذين يستهويهم بريق القشور ولا تسعفهم عقولهم المحدودة بتعمق ما تحت هذا البريق ! . .

ومع هذا كله ، فلم يكن عصيا على قيس أن يتدارك الأمر والأحداث تلتوى أمام عينيه ، وتنحت لها فى الصخر مجرى آخر ، يصل بها إلى غير ما حدس ، ودله عليه الاستقراء . لكنه — فيما بدا — تركها تسير . وآثر أن يمضى دونها فى طريق مسدود ، أو فى دائرة التيه التى لا يجديه سعيه على محيطها — ولو بالخطا السراع — ولا يزيده شيئا على البقاء حيث كان ! . . وعندما ندع قصة المجاملة ، أو — بأسلوب تفكيره — واقعة تأمين مصر بالكف عن خارجتها ، فإننا لا نراه إلا عاش فى قوقعة هذا التفكير ولم يحاول أن يطل من الصدفة برأسه ، ليرى ما يدور خارج مكمنه ، أو يستشف نذر العاصفة من معالم الأفق الممدود . .

لقد كانت النذر الحاضرة أوضح من أن تجاوزها عين ، وكانت النذر الغائبة أدنى إلى نطاق الاحتمال . ولكننا ندعها جميعا وما تسفر عنه إلى أوانها القدر ،

ثم نتابع الأحداث الجارية بالنظرة العابرة ، لا بالنظرة الثاقبة التى تتعمق الأمور إلى الأصول والجذور .. ندع رباط خربتا بما فيه ومن فيه .. وندع مخرج عائشة وحزبها المتستر بالإصلاح . . وندع « تردد » معاويه عن الدخول فى الإجماع ولا نقول « تمرده » على الإجماع . . وندع الدعوة « الدينية » إلى القصاص . ندع هذا كله ولا نحاول أن نحمل قبسا على استكناه دلالاته وما يسر من أخطار ، ثم نمضى وإياه مع الأحداث متابعين متابعة المواطن العادى لا متابعة السياسى المسئول . .

فلأى سلوك لعلها تهدينا هذه المتابعة التى لا تقتضينا قط عناء تعمق الشواهد الماثلة استخلاصا للنتائج ، أو تنبؤا بمستقبل الاتجاهات ، واستقراء للامنظور والمستور من خلال المنظور ؟ . .

سلوك الرجل العادى ، ولا جدال ! . .

السلوك الذى يصدر عن الموقف ، ويعمل بوحيه ويتبع المتابعة بالاتباع . .

وإذا نحن عرضنا لصور التصرف « الشعبى » فى كافة مراحل الزمن ، ومختلف المواطن ، إزاء الأحداث والأزمات التى تعترض مجرى التاريخ ، لما وجدناها إلا أشبه شىء بالتقليد الغريزى لسلوك القادة ، وذوى الرأى ، الذين اجتبتهم شعوبهم ، ووضعتهم على قمة المسئولية ، لا لمجرد إيمانها بقدرتهم ، بل لحاجتها الطبيعية إلى من يسير أمامها ويهديها الطريق . فللأزمات والمحن نواقيس تحتشد الجماعات البشرية — نفسانيا — على جرسها المنذر ، وتكون بنية متماسكة ، كأنها النهر الدافق ، القطرة الأولى فى مقدمته هى التى تقود انطلاقه ! . .

على هذا النحو صحت الأمة الإسلامية فى تلك الفترة ونواقيس الخطر المتمثل فى حركات الانتكاس والتمرد تملأ بجرسها الأسماع . وبطبيعة الجماعات البشرية تجمعت نفسانيا ، ثم تجمعت عضويا ، كبنية النهر الدافق ، وراء الإمام وهو يمضى فى مقدمتها إلى مكامن الخطر لقصف عناصره التى تهدد وحدة البلاد .

ولم يكن الخطر ، فى شتى صوره إذ ذاك ، إلا فروعا عدة لشجرة واحدة هى الثأر لعثمان . فكذلك كانت الدعوة العائشية ، فى نسختها « المدنية » المنادية بالإصلاح ، وفى نسختها «العسكرية» التى زحفت على البصرة ، وترجمت إصلاحها إلى دمار وأشلاء ! . . وكذلك كان التمرد الأموى ، منذ بدأ « مساومة » تاجر ماكر ، حتى شب « سلطانا » لولى دم المظلوم ! . . وكذلك كان شعار خربتا

وهى تماوت — أول الأمر — كالثعالب ، ثم تنتفض من بعد لالتهام الفريسة !

فإن يعجب امرؤ من الناس لسلوك قيس إزاء الخطر الذى تنطوى عليه حركات الانتكاس فلا لوم عليه إذ يراه لا يصدر فى سلوكه عندئذ عن دهاء داهية ، ولا عن تبعة حاكم ، ولا عن حنكة سياسى ، ولا عن انفعال رجل عادى من عرض الجمهور ! . .

إن الأفق حواله فوق الدولة الجديدة ليظلم . وإن سحائب الأحداث لتزحف من كل ناحية . وإن النفوس لتنفعل وتشتعل . وإن الجماعات لتحتشد على رنة النذير . ولكنه ، مع هذا ، يظل بمعزل ، داخل قوقعته الفكرية . . حتى النكسة المصرية التى عايشته وهى على قيد خطاه ، لم تكد تلقى من اهتمامه ، فيما تحدث عواقبها ، ما هى جديرة به ، وما هو مفترض فيه . .

لقد كانت لقيس — على أهون الفروض ، ومن أيسر السبل — أسوة حسنة فى الإمام لو أنه شاء أن يجد ، فى موطن لا بديل فيه للجد ، ويستقبل الأمور بالاكتراث الذى يقدم الحسم على ما عداه . فالإمام قضى برأيه فى ادعاء القصاص ، بما لا سبيل بعده لإعمال فكر ولا اجتهاد . وقوله حين سمع بالدعوة العائشية ، وما حركت ، وأوشكت أن تذهب إليه ، تدينها كفتنة لا بد للناس من وأدها قبل أن تستفحل ، ومن قمعها إذا ما شاء مروجوها أن يطلقوا لها العنان . وما نحسب عامل مصر قد غاب عنه أن أمير المؤمنين أخذه الغضب أى مأخذ ، عندما تناثرت الشائعات عن مخرج عائشة وحزبها من مكة بحجة الإصلاح ، وقال : « لو فعلوا لانقطع نظام المسلمين » .

هذه أسوة الرأى لكل من اشتبهت عليه الآراء وشاء الوصول من أقصر طريق بغير حاجة إلى عناء التعمق والاستقراء . . وهذا هو الرأى من لسان الرجل الذى تمكنه طبيعة وضعه على قمة السلطة من الإحاطة بكل ما يجرى تحته على أديم دولته ، وبكل ما قد يجد من احتمالات ، لأنه ينظر إلى الظروف والمواقع ، وإلى العلل والنتائج ، نظرة شمول وعموم ، لا نظرة اجتزاء عليها رغبة عارضة أو تحبسها حدود إقليم . . وهو أيضا رأى « المسئول الأول » الذى يرسم سياسة الدولة ، وتحتم قواعد الولاء للنظام أن يلتزم بها المواطنون فضلا عن الولاة . .

فإذا انتهج الإمام أسلوب المقاومة والردع حيال حزب القصاص من أصحاب الجمل ، وقعد قيس عن اتباع نفس الأسلوب بإقليمه ، فإنه إذن خالف أصول الالتزام وأخل بمفهوم الولاء السياسى للإمام . وإذا اعتل له بظروف وضع خارجة مصر وإيمانه بأن كفه عنهم أجدى على أمير المؤمنين ، وأولى بتجنيبه شر اندلاع فتنتهم النائمة وهو آنذاك مشغول بفتنة الجمل فى البصرة ، فإن دحرة الحزب بهـذه البلدة ، ودخول فلوله فى سلطان الدولة — أو نهاية المغلول بانتهاء العـلة ! — كانت أدعى إلى استغلال ذلك النصر بإخضاع بقية الحزب فى مصر ، واستخلاصها صافية الولاء للإمام . . وإذا قيل ، مع هذا ، إنه خشى منهم قوة تنقض عليه أمنه ، وتهدد الوضع العام ، فإن قوتهم الذاتية ، التى لم تستطع مواجهته فى بدء عهده وهو أعزل ، وأنصارها خارج البـلاد فى تلك الآونة أعزة ، خليقة بأن تصبح أخشى له ، وأهون عليه بعد الهزيمة المنكرة التى مزقت جيش عائشة ، وقضت على من فيـه من رءوس الدعاة للقصاص ، وزعماء الانتـكاس .

شجرة الثأر قد اجتز — فى الجمل — فرعها البصرى ، وغدت دانية أقرب دنو من شفرات النفوس الـكفيلة بتقويضها ، جذعا وفرعا ، لو اجتمع الجهد إلى الجهد وتضافرت عليها الضربات . . لـكن قيسا لم يعمل فأسه . . لأمر ما حملها معطلة بيمينه ، يلوح بها من بعيد ، مكتفيا عن الجهد بالتهديد ! .. لأمر ما لم ينتفع بأسـوة الرأى التى أفصحت عن خطر دعوة القود المنطلقة من أفواه المبطلين نشرا للموت باسم الحياة ، وطلبا للدنيا باسم الدين ! . . لأمر ما لم ينتفع بأسوة السلوك التى ضربها له الإمام ، ولم يلتزم خطوط سياسته العامة التى رسمها نهجا للمواطنين وخطة للولاة والحـكام . .

وما يتبدى هنا من مخالفة الرجل فى هذا المقام ، لا يقتصر على مجافاة العرف والأصول ، بل يباين أيضا المنطق السوى ، ومقتضيات الظروف الماثلة ، وطبيعة البشر الجامحة دائما بهم إلى التطلع للأفضل ، وتغذية المزيد بمزيد .. فلا مراء قط فى أن القوى الخارجة على الإمام ، كانت تصدر جميعها ، فى قولها وفعلها ، عن واقع واحد هو سخط إمرته ، وتعمل جميعها ، بكافة وسائلها ، لهدف واحد هو

ابتزاز السلطان . وهى بهذا أشبه بجيش ، إن لم يكن موحد القيادة ، فإنه موحد المبدأ ، موحد الغاية ، موحد الأسلوب ، يتهيأ للزحف على سلطة الدولة فى ثلاثة ميادين . بل لكأنه ـ بلغة الجيوش والحروب ـ قلب وجناحان : الشام القلب ، والبصرة جناح ، وخربتا جناح . . فإذا أسفرت أول حركة مضادة تشنها الدولة عن إخضاع بعض أولئك الخارجين على سلطانها ، فإن « منطق » الأمور يقضى بعاجلة بقيـة عناصر الشغب والعداء بما يكرهها على الإذعان والولاء . . وإذا ضربت البصرة ، وهى أحـد جناحى جيش العصاة ، فإن ضرب خربتا بعدها ، وهى ثانيهما ، ضرورة « حربية » كفيلة بأن تـكشف القلب وتنتهى بالجيش كله إلى البوار . . وإذا حيز النصر فى موقع ، فإن إتباعه على الأثر بنصر آخر ، هو من شيمة الطبائع « البشرية » المجبولة على إشباع غريزة التفوق والظهور . .

مقدمات تقع فى حيز السمع والبصر وتنطق بما كان ، ونتائج تقع فى حيز المضاهاة والقياس وتعلق ما يجب أن يكون ، ليس من بينها جميعا — سببا ونتيجة — مايحتاج إلى إمعان فـكر ولاجهد اجتهاد . . حوادث واقعة ، ووقائع ماثلة ، وحقائق مشهودة ، تـكشف العلة ، وترسم الوسيلة ، وتحدد العلاج ، حين نحاول استنباءها نـكاد نسمع لسان حالها يتساءل : كيف غاب مشهدها عن عينى قيس ؟ . . كيف خفى جرسها عن أذنيه ؟ . . كيف أفلتت تترى وتزأر تحت حسه وإدراكه دون أن يبذل فى تطويعها وتطويرها لصالح دولته — وفى نطاق المرسوم والمعلوم — شيئا من مكر الداهية الأريب ، أو حنـكة السياسى الماهر ، أو دربة المحارب المتمرس الذين كأنهم الرجل جميعا فى آن ؟ . .

ثم ندع ما وجب أن يكون إلى ما كان فى الإمكان ، فنرجع إلى العهد الذى عاهد عليه خارجة خربتا وعاهدته هى عليه . . لقد كف عنها ولا يكرهها على البيعة ، وكفت عنه لا تناوئه ولا تشغب عليه أمره حتى يتبين الناس . . فإذا لم يكن فى رجوع البصرة — بعد الجمل — عن الخلاف ، ودخول أعوان عائشة وطلحة والزبير فى طاعة الإمام ، بيان كاف يؤكد أبلغ تأكيد اتساع من التأييد الشعبى للنظام الجديد ، فأى بيان بعده ينتظر قيس ليطالب خارجة مصر بامتثال

هذا الاتجاه العام ، وفاء بعهدهم ، وترجمة له من لفظ جامد إلى واقع ملموس ؟

أغضى إذن قيس عن الأخذ بما وجب أن يكون . . وأغضى كذلك عن اتباع ما كان فى الإمكان ، فإذا هو ، فى كلا حالى سلوكه ، قد عزل نفسه عن الأحداث الجارية من حوله حين لا مناص عن مشاركته فى هذه الأحداث . . وفصل مصر عن الدولة وإنها — بكيانها الإقليمى — لإحدى ولايات تؤلف ، مجتمعة ، وحدة الأديم ، وبمشاركتها الوجدانية تستكمل الوحدة القومية ، وبإسهامها السلوكى فى الأحوال العامة ، تتم وحدة السياسة . . . وإذا كان لنا أن نعرض بشىء للأثر النفسى الذى تركه موقفه هذا فى أبناء إقليمه : الموالين والخارجين على السواء ، فإنه إذن تقاص ظل هيبته كحاكم فى نظرة كلا الطائفتين من مواطنيه . . . أم لا ، فكيف عسى يراه أعوانه ، والقدرة عندئذ حاضرة بيمينه ، والفرصة قد سعت إليه ، ثم لا يقدم على جمع كلمة الإقليم كأنه ضالع مع العصاة ؟ . . وكيف تراه الطائفة المحتجرة وإنهم ليرجعون فى الظرف القائم ، بطبيعة الحال ، أنه حاملهم — طوعا أو كرها — على الوفاء بعهدهم له ، أو التزام رأى الجماعة بعد أن وضحت دواعى الالتزام ، فإذا هو لا يبادر إلى إنفاذ ما يرجعون ، كأنما يقصر عنه باعه لأنه يخشاهم ويحسب حسابهم حيث لا موجب لخشية ولا حساب ؟ . .

إغضاء يختلط على المرء تبين حقيقته . .

يشابه التهاون ، ويماثل الاستخذاء حين تتوفر القدرة ، وتتهيأ الفرص لعمل سلمى أو حربى ، يروع الخارجة ، تمكينا لسلطة الدولة ، وتحقيقا لوحدة الولاء . .

ويدانى الميل إلى جانب العصاة ، كما يضارع تشجيع العصيان وإغراء المحكوم بالحاكم ، فى رقعة إقليمية محدودة ، وعلى امتداد أديم الدولة سواء بسواء . .

ومغبة الأمر فى الحالين غير مأمونة مع توقع أضعف النتائج وأهون الاحتمالات ، لأنها عندئذ هوان السلطة ، وزوال الهيبة ، وانفراط عقد النظام فى دولة تتحطم فيها مقومات الطاعة والولاء عند رعاياها ، وحقوق القيادة والولاية فى أيدى الحكام . .

لكنها أخطر وأشد وخامة ، بلا جدال ، حين تجمع الدلالات على أن أثر هذا الإغضاء ، بما يضم من تهاون ، لا يقتصر على الانتقاص من هيبة الدولة ، ولا على إغراء عناصر الشغب والمروق بها وبمن يمثلون سيادتها ، وإنما يمتد إلى النيل من «عمل عام» يرى لدعم سلطتها ، وضمان وحدتها ، وقمع عصابات الخروج والتمرد التي ما فتئت تصطنع من الذرائع ، وتستحدث من الأساليب ، ما يؤدى بالحكم القائم إلى الانهيار . .

فلا مراء في أنه كان ثمة « عمل عام » يرمى إلى توطيد السلطة ، أخذت تلتئم جزئياته ، وتنسق أساليبه ، وتتفق غاياته حتى ليبدو كأنه « خطة » موضوعة ، واضحة المعالم ، محددة الاتجاهات .. وماظهر خلال هذه الفترة من قرائن ، وأذيع من رسائل وأنباء ، يوشك أن يقطع بأن شيئاً على هذه الشاكلة هو الذى كان يحرك الأحداث — أو أريد له أن يحركها — في البصرة ومصر والشام ، بلوغا إلى غاية موحدة ، ووصولا إلى هدف مرسوم . . ولعل من ملامح تلك الخطة اهتمام الدولة بتوجيه قواتها المحاربة لضرب مراكز التمرد ، مركزاً بعد آخر ، في مواقيت قصد — في حدود الزمن والمسافة — أن تتلاحق لكيلا تدع فرصة لالتقاط الأنفاس أو تفسح سبيلا لمركز منها لتعزيز سواه حتى لا يفسد هذا التعزيز على « العمل العام » تقديره ، ويؤثر في النتيجة النهائية للقتال ، ثم في الخاتمة المقدرة للنزاع . . ولعل أيضا من ملامحها أن يعلن الإمام ، في ربيع الأول ، سيره إلى معاوية ، ليشغله بالإعداء لحماية الشام ، ويحبسه وجنوده مرابطين فيها ، أو على مشارفها ، خشية هذا الغزو المرتقب ، بينما ينفلت هو بأغلب جيش المسلمين إلى البصرة ، ليقضى على من غزوها من العصاة . . ولعل منها ما بدا من تباين الروايات عن موعد التقاء جند على بجند معاوية في شمال الأرض السورية ، ومناوشاتهم هناك على الماء ، بعضها يحدده في ربيع الآخر ، وبعضها يحدده في ذى القعدة وإن انتفى هذا التباين حين نرجح أن الامام قد سرح بعض فصائله إلى تلك الحدود الشمالية ليشغل بها أهل الشام في نفس الوقت الذى اتجه فيه بقواته الرئيسية لخوض معركة الجمل . . ولعل منها إلحاحه المتوالى على قيس — في جمادى الآخرة ورجب وشعبان ، على الأرجح — أن يمضى إلى من قبله من خارجة خربتا فيطهر منهم مصر ، أو يستفيئهم للطاعة ، إذ هم في حقيقة الأمر من أنصار

معاوية أو بمألوف العبارة التقليدية «طابورخامس» وفرقة غير رسمية من جيوشه يدخرها لوقت موقوت . . ولعل منها تريث على عن محاربة الشام ، وتراسله ومعاوية ربيع الآخر والجماديين ، فى بعض الروايات ، وتحمله اتهام أصحابه له بخشية اللقاء لأنه كان عندئذ ، فيما بدا ، يعلى تقيس فى الفرصة كما يعلى أصاحب الشام فى الرجوع عن غيه ، والدخول فى إجماع المسلمين . . ولعل منها ما كان ذائعا فى تلك الآونة بين حزب معاوية أن يقبل على عليه بجيش من أهل العراق ، ويقبل عليه قيس بجيش من أهل مصر ، فيقع بينهما ، وتطحنه الرحى وتقضى عليه . . .

هذه كلها ملامح ، إن لم تصور لنا خطة موضوعة ، فإنها توشك أن تشير إلى ما يقرب من مفهوم الخطط الحربية ، وما تتضمن من إعداد وحشد ، وتستند إليه من توقيت وتمويه ، وتتطلب من تنسيق العمل وتضافر الجهود فى مختلف الجبهات . فإذا غم على قيس أن له فيها دورا ، فليس لاحيه بالملوم ! . وإذا ثبت أنه دعى لدور معلوم ، ثم لم يلب الدعاء ... ى أن تختلط فى موقفه الآراء ! . .

ولقد كان له حقا دور ، ما نظن لو أنه أداه فى أوانه ، إلا مجنبا الدولة والشعب والإسلام ذلك المصير الحزين الذى انتهى إليه عهد الإمام . وسلوكه عندئذ لا يحتمل التبرير ، أى تبرير ! . . كما أن لومه عليه يؤخذ بالقول الفصل ولا يحمل على الترجيح والتقدير ! . . وكيف لا وقد سطر بيمينه كتابا إلى الإمام يرفض أمره حين استحثه على قتال تلك العصابة المعادية بمصر ، ويقول فيه :

« ... ... إنهم وجوه أهل مصر ، وأشرافهم ، وأن الحفاظ منهم . وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، ولست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ! . . . . . فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم . . . » .

أمان ما بعده أمان ، وإن قيل مكايدة ! . .

وتهاون ما بعده تهاون ، وإن قيل دهاء ! . .

٤

جاوز الاعتداد العناد !

أبى قيس بن سعد أن يرضخ لرأى على ، ويعمل به . . ثم اندفع — عن غضب — يرى فى إلحاحه عليه بلزومه ، نوعا من التشكك والاتهام لا يحمد معه بقاؤه على عمله إلا إذا رضى كريم لنفسه أن يدع ذكره لقى فى يدى شائعات مسعورة تنعم بالولوغ فيه ! . .

وما كان قيس غير كريم . ولا كان بالذى يسعه أن يصبر على سبة تنال من قدره ، عن جور أو عن ريبة . .

بميزان كبريائه وزن الأمر لا بميزان المراجعة والترجيح بين رأى ورأى ، وفكرة وفكرة ، فى إطار من ظروف وأوضاع قد تهبط بكفة ، وتعلو بالأخرى فيتبين المرء قدر الموزون محسوبا — على التحقيق بالحساب الدقيق . .

إنه ليزن بميزان الانفعال . . يحس بالثقة بينه وبين الإمام تتهاوى وتميد كأرض رخوة يعابثها زلزال ! . . تغيم وتظلم كأفق تلاحقت عليه كسف السحب السحماء ذات أمسية غائرة الأنجم ! . . تتقاص وتذوب كظل راحت تلتهمه وقدة الظهيرة . . . !

ولم يكن مسرفا فى إحساسه وهو يعتزم أن يهجر مصر إلى حيث ينأى بنفسه بعيدا عن الشبهة . . فالهمس فى هذه الفترة الأخيرة من عهده لا يكف عنه . واللغط يتناثر حوله ويعلق بثوبه . والأصابع لا تنى تشير إليه ، بالإيماء أو بالادعاء ! . .

هنا ، فى هذه الأرض التى سعى فيها سعيه ليسكن ثائرات الخصام ويوقظ بارقات السلام . . هناك ، فى قلب الدولة التى أخلص لها ، ولأميرها الولاء ، عملا ورأيا ونصيحة . . بعيدا ، فى مواقع عدوه الذين حيرهم بهدوئه وأكدهم بدهائه . . .

فى مصر ، والعراق ، والشام . . فى الحجاز أيضا . . فى كل مكان على الرقعة الإسلامية ، إلى هذه وتلك من مصر ، وغير هذا وذاك من إقليم ، تحركت عليه الشبهات ، وتداولته الريب والظنون . . . حتى بعد أن نفض يده من عمله ،

وأوى إلى ملاذ يلعق فيه جرح كرامته ، وينشد بعض راحة البال ، لم يعدم عبارة لوم ، أو نظرة زراية ، أو بسمة شماتة وسخرية تحرك عليه آلامه ، وتجزيه عن وفائه أسوأ الجزاء . . .

علاذه فى المدينة ، جرحته ألسنة ، واقتحمته أعين ، وتناولته ألفاظ شوارد رعناء بالوعيد . . مروان بن الحكم صوره على حافة هاوية من الضياع والأسر ثم خايله بالصورة . . والأسود بن أبى البخترى هول له فى مصير تحمله إليه راحلة تشق الفيافى إلى الشام . . وحسان بن ثابت أثاره نظرة جوفاء من ثقبى عينيه اللتين مات فيهما الحس ، وغاض اللمح ، وانطفأ البريق حتى غدتا حفرتين من رماد ، ثم راح يلوك فى فمه لسانا كالثعبان ، فى طرفه المندلع سم ، ولحركته الأفعوانية فحيح ! . .

ولم يأبه الرجل للتهديد ، ولا خشى شيئا من تنكيل معد ، وعذاب حاضر أو موعود . إنما آذاه أن يشمت فيه ذلك الشاعر الضرير ، ابن قومه ورفيقه القديم ، الذى طالما — فى مدى الإسلام الأولى — قد جلى الكرب ، بنظيمه الأنور عن وجه رسول الله ، وقذ عاديات الكفر والظلام ، فإذا هو اليوم أعنف ما يكون حقدا ، وأشد ضغينة على ابن عم رسول الله والذين تابعوه من رواد الإيمان ، وأحنى قلبا ولسانا على عدوهم من المتخلفين وبقية الأحزاب الذين أكرهوا — بآخرة — على الدخول فى الدين . .

وألقى بسمعه ، فى تصبر ، إلى حديث حسان ، فإذا الشماتة تدفق من فيه كأنما راح يلفظ قلبه الأسود مع لعابه الكريه :

« نزعك على بن أبى طالب ، وقد قتلت عثمان . . فبقى عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! . . »

وبدا كمن يحسن الرثاء لحال صديق مظلوم ، وإن كان قد استذله حقا شيطانه ، تلك اللحظة ، كما استذله يوم أزرى بعائشة ، وولغ فى حديث الإفك المسموم مع الوالغين من رءوس المنافقين ! . .

وثار قيس بالشاعر الظنين :

« يا أعمى القلب والبصر ! . . والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا ، لضربت عنقك ! . . »

وطرده من مجلسه . .

لكن لات حين رجعة إلى ما كان . ولا عن عزم أبرمه وقضى به ، بنفسه ، على نفسه ، وعلى مصر ، وعلى الدولة كلها بالمصير الذى كان يخشاه . وهل عزله على ، أو هو الذى شاء هذا العزل ، وجرى فيه ، حتى استوفاه ؟ . .

بل قد أعجلته كبرياؤه . . مالت به عن الطريق الذى كان أولى به سلوكه ، وأجدى على الناس والبلاد فى فترة حازبة تتطلب اجتماع الجهود ، واصطناع الصبر ، ومعالجة الأمور بروية تزن مختلف الاحتمالات بميزان المراجعة والترجيح لا بميزان الانفعال . . .

لكنه شاء أن يحتكم إلى ظنه ولا يحتكم لعقله ، فرأى فيما ارتآه الإمام تهمة تنتقص من ولائه ، وتحط من كرامته ولم ير فيه ضرورة حتمها تطور الظروف ، واقتضاها منطق السياسة فى تلك المرحلة إزاء معتزلة مصر وإزاء غيرهم من المتمردين والعصاة على امتداد أديم الدولة الاسلامية ، وأينما كان وكر للتمرد وبؤرة للعصيان . . وإذا كان اقتناع قيس عندئذ بسياسة المهادنة هو الذى دفعه إلى الإصرار عليها ورفض القتال ، فإن غضبته لمبدئه هذا ليست هى التى حملته على اعتزال منصبه ابتعادا بنفسه عن المشاركة فى حكم يتناول الأمور بغير الأسلوب الذى يرتضى هو تحمل تبعة الأخذ به إذ يأمن مغبته ، ويضمن نتيجته ، ويوقن بنفعه وجدواه . . لا عن تمسك بمبدئه قد استقال ، ولا عن تملك من التبعة اعتزل ، ما دام قد عاود الالتحاق بالإمام بعد قليل وراح يسهم فى تنفيذ سياسة الردع التى أباها من قبل . إنما الأدنى إلى الصواب أن يكون ما حمله على الاعتزال هو خشيته أن يقترن بقاؤه على عمله بالريبة فيه ، لأنه عندئذ البقاء الذى يؤمن العدو ويحميه ! . .

بهذا الشعور ، فيما نحسب ، كتب إلى أمير المؤمنين يرفض أمره له بالقتال ، ويقول :

« . . إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك . . وابعث إليه غيرى . . »

ولم تكن للإمام حيلة تجاه العناد ، فأبرم العزل وإنه — كما نرى — لأكره شىء على نفسه ، لأنه يعرف ولاء قيس ، ويؤمن إيمانا عميقا بإخلاصه وإنه

حالفته فى هذا ظنون بعض خاصته ومشيريه . . فما نظن قرار العزل جاء عن ريبة فى نفس على ، ولا استند إلى شبهة ظاهرة أو خفية قدر استناده إلى مقتضيات المرحلة ، وتطورات الظروف . . ولعل كلمة عبدالله بن جعفر ، قبيل هذا القرار ، تغنينا عن كل تعليق . .

قال عبد الله ، وهو ينقد الإمام مسلك قيس تجاه معتزلة إقليمه ، وإصراره على سياسته السليمة . .

« يا أمير المؤمنين . . إنك إن أطمته فى تركهم واعتزالهم ، استشرى الأمر ، وتفاقمت الفتنة ، وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ... ... » .

وتحاول طائفة هنا أن ينسبوا تنصيب محمدبن أبي بكر خلفا لقيس على مصر ، لمحبة على له إذ هو ربيبه ، ولهوى أخيه لأمه — عبد الله بن جعفر — فيه ، ثم يجعلوا من هذه القرينة وحدها أساس توليته . .

ومع أننا لا ننكر هذه العاطفة ولا نردها ، فإن منطق الواقع يأبى الإباء كله أن يراها فيصل الاختيار والأخبار تنبئنا من قبل أن محمدا أوشك أن يصبح عاملا لمصر من قبل عثمان ، لا بهوى على وذويه بطبيعة الحال ، بل برغبة أهل مصر أنفسهم ، الذين أقبلت وفودهم عندئذ إلى المدينة ، تطالب الخليفة الراحل بعزل ابن أبى سرح ، وإقامة وال غيره يرضاه الناس . .

وأبرم العهد فى غرة رمضان لمحمد ، فدخل مصر بسياسة تغاير ما اختطه قيس ، وتنبع من دواعى الظروف التى تحيط بالأمة كلها ، وتدعو إلى مخاشنة جماعات الانقسام ، حماية لوحدة الشعب ، واستعادة لهيبة الدولة . . .

ولم يكن الفتى بالصلف المستعلى ، فلم يخدش شعور سلفه ، ولا جبهه بما يؤذيه ، وإن كانت الكياسة فى مثل هذا المقام تعجز عن تذويب غضاضة الواقع المرير . . لكنه أخذ نفسه بالتلطف مع الرجل ، إكبارا لشأنه ، وتهوينا عليه ، حتى إذا بدا الغضب من قيس ، وصاح بالعامل الجديد :

« ما بال أمير المؤمنين ؟ . . ما غيره ؟ . أدخل أحد بينى وبينه ؟ . . »

كان الجواب الرقيق :

« لا . . وهذا السلطان سلطانك . . »

ولم يكن أيضا بالذى يزهى بصولة النفوذ ، وأبهة المنصب ، فأعاد ثانية إلى الأذهان تواضع أبى بكر حين تولى إمرة المؤمنين ، وكاد يكرر على منبر مصر ، وهو يتقدم إلى أهلها بخطة عمله ، نفس ما قاله أبوه على منبر الرسول . . .

كان من بين ما خطب به الناس ، بعد أن تلا عليهم كتاب تنصيبه :

« . . . إن أمير المؤمنين ولانى أموركم ، وعهد إلى بما سمعتم . . ولن آلوكم خيرا ما استطعت . . فإن يكن ما ترون من آثارى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى إليه . وإن رأيتم منى عملا بغير الحق ، فارفعوه إلى وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم به جديرون . . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته . . . »

وما نريد أن نفيض فيما عهد إليه أمير المؤمنين سياسة جديدة يسوس بها أبناء إقليمه ، فذلك يدلنا عليه استعماله خلفاً لسلف ، ويغنينا فيه هذا التغيير عن أى تغيير . . . ولكننا نجتزئ من عهد على — وما جرى جريه من كتبه — بما يرسم النهج ، ويحدد المعالم ، ثم لا يفتح السبيل للتأويل . . .

أمره :

« . . أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ، ولا يعرف كنهه . . . . »

وقال له :

« . . قد وليتك أعظم أجنادى : أهل مصر ، ووليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك ، وتحذر فيه على دينك ، ولو كان ساعة من نهار . . . . . . »

وخاطب المصريين :

« . . فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم ، فافعلوا . . . . . . »

وحذرهم الفرقة ودعاتها ، وفرق الحق من الباطل فرقاً لا يفسح لهم فى التردد عن اختيار الطريق القويم :

« . . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند ! . . واعلموا أنه لا سوى إمام الهدى

وإمام الردى ، ورضى النبي وعدو النبي . . ولقد سمعت رسول الله يقول : إنى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا . أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه ، ولكنى أخاف عليهم كل منافق اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون ... ... »

ولقد كان لهذا التغيير أثره فى نفوس معتزلة خربتا المتشيعين لعثمان ، المتحقين — ولاء وخطة — بابن أبى سفيان ، فإذا هم عندئذ يديرون أمرهم بينهم خوفا وهيبة من هذا العامل الجديد الذى يوشك أن يخرق عليهم ما كان سلفه قد أفاء من طمأنينة ، وأن يعجلهم عما بيتوا من تربص وتدبر ولما يظاهرهم بعد الزمن والحليف . . فالأمور الآن تنطلق على غير ما يشتهون ، الزمن يتسرب من بين أصابعهم ليعزز من شأن على والذين معه لأن ساعاته تدعم طاعته ، وتضيف إلى نصره . . والحليف يضطرب ويكاد ينشغل بنفسه ، وفى قلب أرضه ، عما عداها من دفيق وإقليم . . ها هى الثورة العائشية همدت ، وذهبت — إلا أصداء — مع الريح ! . . ها هو الجمل وحزبه التهمتهم المصارع ! . . ها هم أولاء فلوله يؤوبون — كرها أو طوعا — إلى رحاب الولاء ! . . هاهى البصرة خرجت من نطاق الارتداد وغدت عونا على العصاة من بعد عصيان ! . . ها هو معاوية وحدة يواجه الطوفان ! . .

شهراً قضوه فى وجل . صحوهم قلق ، ونومهم أرق ، والوساوس والظنون تتبدل عليهم وتتقلب وهى تخايلهم بصور شتى من المصير ليس أشقها على نفوسهم بغتة تصبحهم أو تمسيهم لأن غضاضة الهوان أشد مرارة من مذاق الحتوف . . ولقد لاح لهم ، مع كل صباح ، وهم فى حيرة الترقب ، كأنما العامل الجديد أراد أن يستأخر بحملته ، يومه ذاك ، إلى غد بعده أفسح للإعداد ، وأنسب للتدمير . . أو كأنما شاء أن يعلى لقلقهم فى الاستفحال ليحطم العزم ويوهن الروح . . أو كأنما قد أحب أن يظنوا ركونه لرأى قيس وقد نصحه ، غب مقدمه ، باتباع نفس أسلوبه فى « المكايدة » حتى إذا أمنوا أخذهم على غرة . .

كيفما كان ما خامر منهم الأخلاد فإن محمدا لم يفاجئهم بما صورته الوساوس ، وشردت إليه الأحداس . إنما آثر الإعذار فكتب إليهم يخيرهم بين أمرين :

أن يدخلوا فى الطاعة ويلتحقوا بجماعة المسلمين ، أو يخرجوا من مصر إلى حيثما يبتغون . وفى نطاق هذين المرضين تتحقق لهم السلامة ويتق وإياهم القتال .

ولا حاجة بنا لتحليل فكرة الخروج لأن ارتحالهم عن مصر إلى غيرها من الأقاليم — كبقائهم بها وهم على خلاف — لايفل من حدهم ، ولا يمنع خطرهم إن لم يكن سبيلا إلى نشر دعوتهم المناهضة أينما يحلون وإعداء سواهم من المواطنين بعدوى العصيان ... فالفكرة يعوزها التبرير . والحكمة منها خافية ، إلا أن يكون ابن أبى بكر قد أراد بعرضه أن يظهر فى عين الرأى العام كمن لايدخر وسعا فى التساهل إلى أبعد الحدود وهو موثق أنه العرض المعصى على القبول لان الارتحال مستحيل . . .

على أى حال أبت الخارجة أن تستجيب . وكمألوف عهدها لم تجاهر برفض سافر ، وإنما تسترت بالمطال ، وكرت مرة أخرى إلى التمحل بنفس عذرها القديم ، الذى قدمته من قبل لسلفه ، فكان ردها عليه :

« دعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ... » .

وما نظنهم كانوا يجهلون ما بلغه أمر الناس حينذاك . فها هى الدوله كلها — إلا الشام — قد أطاعت الإمام . وها هو الشعب كله — إلا معاوية والذين ظاهروه — قد فاء للوحدة ، تقديما لصالح الجماعة الإسلامية على صوالح نفر موغرة صدورهم بالحسد ، مشغوفة نفوسهم بالسلطان . .

لكنها الذريعة الوحيدة التى يرونها قد تكف عنهم نقمة الخصم وتستصفى رضاء الخليف . وهى ترجىء ساعة الفصل ما كانت فرصة لإرجاء . وهى تفسح أمامهم المجال للتدبر ، وربما للإعداد . وهى تداور الظروف ، وتتربص بالزمن وتفتح ثغرة للأمل فى جدار المجهول ! .

مخاتلة لم يكن والبهم يتبين أنها لا تقوده إلا لسراب حتى كان موكب الحوادث قد حث خطاه — سريعة واسعة — إلى القصد المقدور ! . . فشوال تقلصت عن الأرض ظلاله . . وذو القعدة تسربت أيامه ولياليه ، كقطر الندى فى الرمل الظمآن ، لتغيض فى جوف الذكرى وتؤلف قطعة بالية من الأمس الدابر . . والعام كله انفض سامره وإن الأخبار لتتوالى دراكا على مصر ، فى صحبة الزمن

السيار ، من وادى دجله ، وسهل الفرات ، وبادية الجزيرة ، ومشارف الشام كأنها تطير بجناح ! . .

على أديم هذه المناطق انطلقت أقدام الكتائب تخط أسطرا بعد أسطر فى كتاب الصراع يوشك أن ينقضى بها أجله ثم يطبق الغلاف ! خلال شهرين أو ثلاثة كان مد ، وكان جزر ، وكان تداوب وتراوح بين أقاصى النصر وأقاصى الهزيمه انتقل بكلا فريق القوى المتصارعة من وهدة القاع إلى ذروة القمة ، ومن ذروة القمة إلى وهدة القاع ! وبتواتر المراحل فى حلبة اللقاء الدموى ، وفى ساحة الحرب النفسية والنزاع الفكرى ، غدت وجوه خارجة خربتا — وهم فى وجارهم يلهثون لاستنشاق الأنباء — أشبه بمرايا مصقوله ، يتعاقب على صفحاتها المجلوة سير الأحداث صورا شتى من الأحاسيس والمشاعر : هلما وخشية .. قلقا وحيرة .. تطلعا وأمنية . . أمنا وثقة . . زهوا وخيلاء ! . .

ولا عجب ! . .

فالكتاب قد أطبق غلافه . .

الستار أسدل . .

صفين قد انكشف غطاؤها عن محنة « الحكومة » . . خفت بها صليل السلاح . ذاب وقع الأقدام والحوافر . انطفأت النار ثم تطاير الرماد وتبدد الدخان . . أفما يحق إذن للثعالب المذعورة أن تغادر وجارها مستفزة ، وتبرز الظفر والناب ؟ .

٥

مرة أخرى يثور التساؤل وهذا محمد بن أبى بكر قد سار على خطة سلفه ، ولم يلاق العثمانية بمصر بغير ما لاقاهم به قيس كأنما جاء لإقرار ذلك الوضع القديم لا لتبديله ، ولتأجيل حسم موقفهم المشبوه لا لتعجيله والفراغ منه . .

فما فعل العامل الجديد ؟ . . كيف كان مسلكه إزاءهم طوال تلك الفترة التى قضاها بين ظهرانيهم ، منذ مبعثه إلى تنمرهم ، وقد استطالت إلى نحو نصف عام ؟ . . لأية غاية عساه وجه حشدها الزمنى وسخر ما احتوى من شهور وشهور ؟ . . ماذا دعاه للتريث ، وما حكمة انتظاره ؟ ..

ويحار المرء وهو يتنقل بين مختلف الاحتمالات . .

لـكأنما الزمن فر خلسة من وراء ظهر العامل وهومشغول عنه ، وعن العصبة المعادية ، بغير ما كان ينبغى أن يكون همه العاجل ، وشغله الشاغل ! . . بانتظار سانحة ؟ . . بالموازنة بين ما هو خطأ وما هو صواب ؟ . . بمبادلة المنحرفين رسولا برسول ، ورسالة برسالة ؟ . . بجس نبضهم ، وسبر غورهم إلى مهوى القاع ؟ . . بالطمع فى استفاءتهم إلى الحق بعد باطل ، وإلى الطاعة بعد عصيان ، وإنه لحقيق بأن يعلم أنه طامع فى محال ؟ . .

كيفما كانت التعلات والأسباب ، فإنه لم يبادر القوم بما نهض فيه ، واختير له خلفاً يقاوم ويقاتل لسلف يداور ويطاول . . لم يعاجلهم بالخطوة المقررة التى حان أن ينفض عنها غبار الانتظار . . بالضربة الحاسمة القاصمة ، الـكفيلة بأن تـكفيه ، وتـكفى أمير المؤمنين ، والبلاد شر ما يبيتون . .

إلى صفر ظل يحاول ، فيما يلوح ، معالجة خطر الخارجة بالبعوث والرسل لا بالخيل والرجل ، وبالـكلام لا بالحسام . . أملى لنفسه فى المحاورة فأملى لهم فى المداورة والإرجاء . حتى إذا استطاعت خدعة المصاحف أن تهدر نتيجة صفين ، وعاد الإمام إلى العراق بحسرة نصر مسلوب فى هيئة مغلوب خاسر ، وقفل معاوية إلى الشام بفرحة هزيمة متقاة فى هيئة منتصر ظافر ، نفضت خربتا تناومها ، وكشفت — مطمئنة — عن وجهها القبيح ! . .

لا شىء الآن يمنع عثمانية مصر عن مجاهرته بالعداء . . أملها أخيرا أضاء . يومها الذى واعدها به القدر قد أقبل . خصمها الذى كانت تخشاه وتتقى سطواته قد تهاوى إلا جمعا هو التجمع العشوائى الأجوف ، وفرقا هى التفرق المغلول . ورأيا هو الرياء والتنازع . . . ووليها الذى تسانده وتستصفى وده قد أفلح كيده ، واشتد أيده ، وثبت أمره ، وعز قدره ، وتهيأت له مقومات الإمرة والسلطان إلا لقبا يوشك الزمن أن يحيك طيلسانه ! . .

حتى هنا ، فى مصر ، لا يعدم المرء أن يجد أناسا — خارج وجار خربتا نفسه — قد أثرت فيهم النتيجة المفاجئة ، وعبثت بعيولهم المعروفة . . بعضهم ملـكته الحسرة . بعضهم أكلته الحيرة . بعضهم اشتبه عليه الطريق . بعضهم

اهتزت ثقته فى قدرة حزبه على توجيه الأمور إلى حيث ينبغى أن تسير . بعضهم آثر السلامة فنأى عن النزاع . بعضهم وهنت روحه فمال مع الريح ! . .

كثيرون لا ريب من أهل الإقليم فتر عزمهم — فى تلك الآونة — عن نصرة وال توحى ظواهر الحال وبوارد الظروف أنه لا يقف على أرض صلبة . فنجم معاوية فى ارتفاع . عاقبة صفين له . رجاله الآن أنوى روحا وأصلب عزيمة . رأيه بينهم هو الرأى وكلمته الكلمة . والأحاديث تملأ الأسماع ، فى كل مكان ، بأنهم نصبوه للإمرة العامة ، وراحوا يدعونه بلقب الخلافة .. وضوء على يخبو . الخلاف المشبوب بين أصحابه ليس بخرافة . تصدع صفوفه يشيع فى الهواء . تفرق جنده عليه يشى بزوال هيبته ، وتهافت كلمته ، إن لم يكن هو النذير بتفكك سلطانه ، وتصدع دولته ثم انزلاقها فى القريب إلى حضيض الانهيار . .

ولا حيلة لابن أبى بكر الآن فيما وقع وكان ! . . فقد ترك الفرصة تتسرب كالماء من بين أصابعه والقوة عندئذ معه ، والدنيا مقبلة عليه . ونهض — كأنما من غفوة ! — ليرى تلك الفرصة المولية أبعد من متناول بصره ومرمى ظنه وتفكيره ، والشقة إليها تعيي عزمه وتدرته ، وتتقطع عليها أنفاسه ! . .

أما معاوية فقد سبق الزمن إلى ما أراد ، فأحسن التقدير كما أحسن الإعداد . ولئن بدا كالمشغول بنفسه وإقليمه إلى تلك اللحظة ، فإن واقع الأمر ينطق بأن مصر لم تغب قط عن فكره حتى وهو فى غمرة محن أوشكت أن عزق أحلامه وتقضى عليه .. فكم حاول أن يستميل قيسا إلى جانبه ويدخله فى حظيرة ولائه . وكم جهد فدس — حين تأبى عليه وأعضلت به استمالته — ليبعده عن عمله خلاصا منه ، وطمعا فى بديل أهون شأنا عليه إن لم يكن أسلس قيادا له . وكم تغذت — فيما جرى على لسانه — عناصر الفتنة بخربتا بعدد من عنده من العثمانية يشد أزرها ، ويقوى عزمها ، ويشمرها دائما — وهى برباطها البعيد عنه — أنها محور اهتمامه وليست معزولة عن الحليف والنصير . بل قد بلغ من طول ذراعه أن تمتد من دمشق إلى مدينة القلزم — باب مصر الشرقى — فتبلغ عامل خراجها ، وتحتضنه ، وتحيله عميلا خائنا يغتال الأشتر درءاً لخطره ، وهو فى طريقه إلى مصر إذ ذاك ليخلف ابن أبى بكر ، ويصلح ما فسد من أمرها على الإمام .

ما غفل معاوية ولا تهاون ، وإنما فكر ودبر . عمل وثابر على العمل حتى أثمر . تآمر واحتال وكاد . ألقى بثقله فى الميزان . سبق الحوادث ولم يترك الأمر فى يد الصدف والاحتمالات ... وعندما وسعه أن يقدم ، طفر ووثب بالخطا الواسعة ، وبادر على الفور يستعدى أعوانه المتنمين فى رباطهم من سطوة واليهم الشاب ، ويحركهم لإشعال النار ...

وكتب عندئذ إلى زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد الأنصارى ومعاوية بن حديج السكندى ، يقول :

« .. طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله ..... فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصرة أولياء الله ، والمواساة لكما فى دار الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى ذلك إلى ما يرضيكما ، ويؤدى به حقكما . . . غالزما أمركما ، وجاهدا عدوكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ، فكأن الجيش قد أظل عليكما ، فاندفع كل ما تكرهان ، ودام كل ما تهويان ... »

للنهى لا لدنياه ولا ماله نهضا فى الأمر ، بل ابتغاء ثواب الآخرة ومرضاة الله ، فيما يقولان ! ...

رداً عليه :

« ... نحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغى ، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت مؤازرتك فى سطانك وذات يدك ، وبالله إنه لامن أجل مال نهضنا ، ولا إياه أردنا . . فإن الدنيا والآخرة لله ... عجل لنا بخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد كان علينا جريئا وكنا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ...... » .

ولقد لهث محمد وانبهر نفسه وهو يحاول أن يستعيد من الزمن ماولى منه ، ويفرض على المتزلة هيبة قد ظنوها بدء الأمر بعض قدرته ، ثم أيقنوا الآن أنها مجرد طلاء ! .. فقد أبوا أن يصغوا له . لا حاجة بهم إلى مهادنته . أولى بهم منابذته ، وأجدى عليهم مجاهرته بالعداء . فالقوة لهم . والزمن معهم . والمبادرة فى أيديهم ، وليس حائل يحول بينهم وبين اختيار المكان والزمان : أرض الموقعة وساعة اللقاء ! . .

وكانوا من وضعهم على ثقة ، ومن تقديرهم على صواب . فسرعان ما طحنوا بقواتهم بعوثه التى أوفدها لتحملهم — طوعا أو كرها — على الخضوع . . بعثة بعد بعثة مزقوا ، وفرقة بعد فرقة ألحقوا بها البوار . قضوا على ابن جهمان البلدى ، وعلى يزيد بن الحارث الكندى ، وعلى ابن مضاهم الكلبي ومن سار معهم فى بعثات الدعوة أو حملات التأديب التى أريد بها تسكين الفتنة أو ردع العصيان : . وعندما تشمر هذا الاحتكاك عن العامل طلاءه ، واستيقنوا منه غير ظنهم به ، خرج معاوية بن حديج يطلب بدم عثمان ، ويدعو أهل مصر جهرة إلى مناصرته والالتفاف حوله انتقاما للخليفة القتيل . . .

ولم يكن محمد كما حب أصحابه . ولا كان أيضا كما حسب هو نفسه يوم انطلق إلى مصر ، وصدره تملؤه الثقة فى غد مظفر . فالأيام تخلف ظنه والأمور تجرى على غير تقديره ، إذ هو الذى شاء أن يتركها بغير عنان فراحت تضرب كالعشواء إلى حيث تشاء . . لا إلى حيث يشاء . . ونيته تفوق همته . . ومن يستشرف اليوم قدرة الشاب يكاد يجده أوهن قدما أن يسير على شوك ، وأقصر قامة أن ترتفع هامته فلا يغمرها موج الأحداث . . .

وكذلك اجترأت عليه الخارجة . فهان أمره . واختل الأمن . واضطرب الناس . وفسد الإقليم . . وعندما علم على أن باع الفتى يقصر عن معالجة الداء ، لم يعد له معدى عن التغيير . فآخر الدواء الكى . وآخر العلاج البتر ، كما تقول الأمثال ! . .

وعلى الأثر كتب إلى الأشتر :

« . . إنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأسد الثغر المخوف . وقد كنت وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج ، وهو غلام حدث السن ، ليس بذى تجربة للحروب . . فأقدم على . . . . »

واستخلفه على مصر :

« . . ليس لها غيرك ، فاخرج إليها رحمك الله . . ولا أوصيك ، اكتفاء برأيك . . »

وكتب معه إلى الناس :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بمصر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عصى فى الأرض . . . .

أما بعد :

فإنى قد بعثت إليكم عبدا من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر . . . . أضر على الفجار من حريق النار . . . . فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا نابى الضريبة ، ولا كليل الحد . . . . فإن أمركم أن تنفروا فانفروا . وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا ، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى . وقد آثرتكم به على نفسى ، نصيحة لكم ، وشدة شكيمة على عدوكم . .

والسلام . »

وانطلق الأشتر من الكوفة ، بعد مقدمه عليها من نصيبين ، يطبع معالم قدميه على أديم الصحراء ، فى طريقه إلى مصر ، ليلتحق فيها بعمله الجديد . لكن الرمل لم يحفظ سره ، ولا امتص من وقع خطاه ! . . بل كان يسرى ولسراه دوى مجلجل فى الآفاق كأنما الأرض تحت ضربات نعلية تنتفض بزلزلة عنيفة انبعث عنها انفجار بركان ! . .

بمصر اضطراب تحت ابن أبى بكر مقعده ، ورج ذاك الاضطراب نفسه فإذا هى تشرق بغصة ألم كالعلقم وهى تستشعر هوانا مدمرا من خلال التغيير . . .

وبدمشق ترنحت أريكة عاهل الشام ، وكاد يميد معها أمله المتوثب إلى سلطان شامل ، وملك مؤثل عريض . .

وبخربتا زاغت الأعين ، وجفت الحلوق ، ووجفت القلوب بين علو وهبوط ، تارة تضرب إلى الحناجر ، وتارة تغوص فى الأقدام ! . .

فأما محمد فقد ركن فى هذا الجزاء الذى أصابه إلى ما يركن إليه أى امرىء على مثاله يحس أن طالعه تعثر بخاصمه زمنه ، وتنكرت له الأيام ثم لا يستطيع أن يدافع عن نفسه بما قد يعطف الناس عليه ما دامت عواقب الأمور قد خانته ، وجرت ريحها على خلاف مشتهاه . . فإذا هو لا يملك إلا أن يحرك قلمه بكتاب يخطه إلى الإمام ، ويبثه فيه ما يعانى من ألم ذلك الجرح الذى شقه فى فؤادة قرار عزله عن الإقليم . . .

وأما معاوية فقد اكتسى ثوب المستيئس ، الذى تقطعت به الحيل وسدت السبل فى وجهه ، فلا محيص له عن التزام أسلوب العاجز الذى لا يذكر ربه إلا إبان الملمات . . فإذا هو يقول لأهل الشام :

« إن عليا قد وجه الأشتر إلى مصر ، فادعوا الله أن يكفيكموه . . »

فكان يدعو ، ويدعون معه ، على الأشتر ، بعد كل صلاة . .

وأما خربتا فخبيسة هم لا تبارحه . لكأنه سياج من حديد أصم قد أطبق عليها من كل ناحية . وكأنما تدور فيه حيرى ، تذرع فراغه بغير تدم ، وتتحسس جدرانه بغير أصبع ، بحثا فيه عن ثغرة إلى الطمأنينة . . لكنها لاتنى تدور وتدور حتى تدوخ ولا خمر ، وتلهث ولا جهد ، وهى تحاول أن تفر — بالحدس والتصور — من ذلك القلق الذى يطاردها شبحه ولا يهدأ عنها لحظة من نهار أو ليل ، فى يقظة الحواس والجوارح كما فى خدر الأحلام . .

غير أن المكتسى ثياب المستيئس لم يكن ممن يلزمون أسلوب العاجز فيركن إلى الاستسلام . . معاوية لم يدع مكره . لم يذر حيله وأحاديه ، لم يضع سلاح كيده . . ولئن تظاهر أمام أبناء إقليمه بأنه لا يلوذ من المحنة النازلة إلا بالله ، ورفع كفيه ضراعة إليه سبحانه أن يكفيه خطر الأشتر ، فلقد تضرع ودعا مخاتلة وتمويها ، وهو موقن اليقين كله — قبل الضراعة ودونها — أنه سيكفاه . . وما يضيره أن يغوى ، سرا صاحب الخراج فى القلزم ليغتال الأشتر ، فيبلغ هو أربه ، ثم يبدو فى أعين أهل الشام صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله ؟ . .

وكذلك مضى وفعلته . .

بعث إلى صاحب الخراج :

« . . إن الأشتر قد ولى مصر . . فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت ، وما بقيت . . »

وترك — كدأبه — الذهب يتولى عنه تسيير الأحداث ! . .

٦

هزت الفرحة قلب معاوية وجوارحه ، وشاع لونها المشرق فى محياه ، حين بلغ ذلك الرسول الوافد عليه من حدود مصر خاتمة المطاف فى حديثه . . والتفت دونه إلى من حوله من بطانته وصحبه يزف النبأ السار :

« إن لله جنوداً من العسل » ! . . »

وبدا كأنما قسوة الشماتة تزاحم فى عبارته سكينة الارتياح ، وهو يتنفس الزهو والخيلاء . .

ولم لا ، وقد ذهب الأشتر ولن يعود ؟ . . أفل من أفق حياته . وقد يضجع تحت أطباق الرمل ، على باب مصر ، لا يقظة منه حتى النشور ! . .

إن للذهب لفتنة . وإن للجشع لسطوة . وإن للكيد لبطشا يهون أمامه بطش السلاح . . .

ما كاد الأشتر يبلغ القلزم ، ويحط فيها رحاله استرواحا من وعثاء سفره الشاق من العراق ، وتهيئوا لمرحلته المقبلة إلى الفسطاط ، حتى أسرع إليه عامل الخراج يستقبله كأحسن ما يكون الاستقبال . .

وسخا بقراه :

« أيها الأمير . . هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج . فأقم واسترح . . »

ولم تراود الأشتر فى الرجل شبهة . . وأنى له ، وحديثه ولاء ، وسيماه صفاء ، وكل حركة بدرت منه تضيف إلى الثقة فيه . إنه ليفنى لضيفه . يتبعه كظله . يسير بين يديه ككلاب القطيع . يتمسح به كهرة . يلبى ولا نداء ، ويعمل ولا مطلب . يطيعه كبنانه ، وينطق كلسانه . . .

وكان حديثه كله حمداً لعلى ، وثناء على بنى هاشم ، وذكرا لأمجاد أنصارهم وشيعتهم الذين أخذوا أنفسهم بإقامة الدين صرحا شامخا بعد أن كاد أعداؤهم يقوضون بنيانه . .

ثم أفرغت خيانته شربة عسل مزجها بسم زعاف . . .

هنا تنفس معاوية زهوه ! . .

وعلى منبر دمشق ، وقف يعلن النبأ للناس ، مدلا بكيده ، مبطنا جديته بما يوحى إليهم أنه صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله :

« ... ألا ترون كيف استجيب لكم ؟ . . لقد كان لعلى بن أبى طالب يدان يمينان : عمار بن ياسر ومالك الأشتر ، فقطعت إحداهما يوم صفين ، وقد قطعت الأخرى اليوم ... ... » .

وفى الجانب الآخر ، بالكوفة ، عصف الأسى بعلى ، فسال قلبه فى عبارته وعبراته :

« ... اللهم إنى أحتسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ... ومع أننا قد وطنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ، فإنها من أعظم المصيبات ... .. » .

وظل طويلا يتلهف ويتأسف حتى ظن أصحابه أنه المصاب به دونهم . فراجعوه وقد هده الحزن :

« بعض هذا يا أمير المؤمنين ! .. »

فقال :

« وهل موجود كمالك ؟ . . أما والله ليهدن موته عالما ، وليفرحن عالما . على مثل مالك فلتبك البواكى ! .. » .

لكن الحياة لا تتوقف فالزمن يسير . والليالى تلدن الأحداث . والكفاح المر من أجل تسويد المبادىء — كريمة أو خسيسة — يجرف الناس فى تياره . .

وكأن للظروف عندئذ ضغطا شديدا على الامام لامعدى له حياله من الإفادة — وسعه — من الموقف الراهن حتى يتيسر له تناوله بتغيير أمثل أسلوبا ، وأسلم نتيجة . فعزم أصحابه خور . وحثه إياهم على المبادرة لايصادف أذنا سميعة . وجنده ، بعد النهر ، ركنوا للدعة . وإذا كان القدر قد شاء لمصر أن تدفع بنفسها عن نفسها أى عدوان أموى ، من الداخل أو الخارج ، فإن كبرياء عاملها الجريحة لابد أن تبرأ من جرحها الغائر ، فيستطيع ابن أبى بكر لقاء أعدائه وهو

أوثق ثقة فى نفسه ، وأقوى إحساسا بقدرته على الاضطلاع بما أوشك أن ينزع منه . .

لذلك كتب أمير المؤمنين إليه :

« .. بلغنى موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك ، ولم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد .. ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك ، لوليتك ما هو أيسر مؤنة عليك ، وأعجب ولاية لك ... ... فاصمد لعدوك ، وشمر للحرب . وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به يكفيك ماهمك ، ويعينك على ماولاك ... ... » .

وكأنما أفاء الكتاب على الفتى طمأنينة ردت عليه بعض ثقته فى اقتداره على مواجهة الأزمة التى نصبها له الخارجون ، فبعث إلى الإمام ردا يقول فيه :

« ... ... وليس أحد من الناس أشد على عدو أمير المؤمنين ، ولا أرأف وأرق لوليه منى . . وقد خرجت فعسكرت ، وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا ، وأظهر خلافا ... ... »

لكن هذه الثقة التى تجددت فى قلب الشاب ، وهم عودها الطرى أن يفرع ، ما لبثت الحوادث — فى حلفها الدنس مع الترهيب — أن راحت تعصف بها ، لتقصفها ، ثم تدفنها عنبتها الندى وهى بعد خضراء ! . .

ما بلغ محمد هذا المبلغ من الاعتداد الذى استشعره ، ومن الإعداد الذى كتب عنه ، وما وصل جوابه مقصده ، حتى كان معاوية قد أبرم رأيه ، فلبى مطلب زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج ، وأمر عمرو بن العاص بتجهيز جيش لغزو مصر ، وسلخها من إمرة الإمام . . .

حسم ليس يفسده تردد ، ومعاجلة لا تبارى فحسب انطلاق الحوادث بل برق الظنون فى الأخلاد . .

ومن مشارف تلال فلسطين ، وربا الصحراء الشرقية ، يوشك المرء أن يطل على القوة المغيرة ، المقبلة عبر تيه الرمال ، فلا يراها تكاد تغنى عن نفسها شيئا ، فى حساب الفتوح والغزوات ، أمام شعب ثرى بأهله ، قوى بماله ، قد عرف له ولاؤه الخالص لعلى ، وسخطه مناوئيه وشدته عليهم من بضعة شهور . فما كان

جيش ابن العاص غير آلاف قليلة قد تصلح طليعة ثم تقصر عن التوغل والانتشار . وما كان يسعه ، بالقياس العددى ، إلا أن يشن غارة على الأطراف يركن بعدها إلى الارتداد . وما كان مزودا من العتاد بما هو أقطع حدا أو أوفر عددا من عتاد المدافعين . . .

غير أن الجيوش — فيما سمعنا على لسان الحروب — لا تقاس عادة بكثرة الأفراد أو بوفرة العتاد ، وإنما بالخطة المحكمة ، وحنكة القيادة ، وحسن التنظيم والنصر دائما ، بعد هذا ، رهن العزم والثبات والإصرار . . .

وندع الخطة والحنكة والتنظيم إلى ساعة اللقاء ، ثم نستقصى عوامل النصر فإذا مصر منها خواء ! . . بها وهى العزم أنذاك ، وتهاوى الثبات ، وذاب الإصرار . . قبل أن يطأ عمرو منها موضعا على أديمها الأصفر أو رقعتها الخضراء كانت رحى الزمن قد طحنتها ، فى مدى قصير ، وذرتها مع الريح . . النكسات التى توالت على دولة على ، حطمتها روحا ومادة ، شعبا وحكومة ، فكرة تجمع عزائم المواطنين وغاية تشمل حماسة الجند . . .

ولا جدال .

فصدمة الخديعة فى صفين أعقبت الحسرة . ونتيجة التحكيم الضال أثارت التنازع . و « خلافة » معاوية المدعاة غرست فى النفوس بذور الاستسلام . وثورة خارجة النهر على الإمام شجت وحدة صفوفه ، وأغرت به صنائع التمرد والعصيان . وتخاذل العراق عن العودة إلى غزو الشام أخلى لماهلها الميدان . . .

وعرف معاوية طريقه . .

حرش بمصر أعوانه ، ومنى مخالفيه ما فى يديه من عروض وسلطان . ألهب بها دعوة الثأر للخليفة القتيل . حالف تنمر خربتا وخور أهل الإقليم . أدار ظهره ، وهو آمن ، للعراق الوسنان ، ثم سير ابن العاص . .

وكما أحكم الرجل التدبير أحكم التوقيت للغزوة المنتظرة . ثم انثنى يبعث الترهيب طليعة لجنوده المغيرة يخايل الوالى الشاب بمصير قاتم ، ليهدم ما أبقت المحن له من خرائب اعتداده ! . .

من الشام أرسل يذكره عدوته ، قبل نحو عامين ، على عثمان يوم الدار ،

ويحمله دمه ، وينذره نقمة عاجلة تنزل به وقد انفض عنه أهل إقليمه ، ثم لا يبخل عليه ، مع هذا كله — تفضلا وأريحية — بفرصة للنجاة ! . .

كتب إليه :

« . . . ان سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ، والتبعة الموبقة فى الآخرة وما نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا منك . . . . ثم تظن أنى نائم عنك ؟ . . فتتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجل أهلها أنصارى ، يرون رأيى ويستصرخونى عليك ؟ . . . قد بعثت إليك قوما حناقا عليك ، يستسقون دمك !.. ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهدا ليمثلن بك !.. فلو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك .. ولكنى أكره أن أمثل بقرشى . . . فتنح وانج بنفسك . . . »

ومن مشارف مصر ، أرسل إليه عمرو :

« . . . . تنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فأنى أكره أن يصيبك منى ظفر ! . . . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك إذا التقت حلقتا البطان . . . . فاخرج منها ، فإنى لك من الناصحين . . . »

فلو تأثر محمد — وهو يعيش محنته ومحنة أميره تلك — بهذا التهويل ، لقل أن يجد من يلومه . . فالجو حوله خانق عبوس . وشعاع الرجاء ابتلعته الظلمة ، والعبارات فى كتابها غريبه قاطعة حادة كأنها الحراب ، والمصير الذى يطل عليه من سطورها ، ومن ثنايا الظروف المحيطة . مثلة أو فرار !.. ولم لا يتأثر ونقمة عثمان تطارده فوق صهوة جواد ، وعلى شفرة سيف ، وبكمين مجهول ؟.. والجنود المغيرة الظمآنة ، تشم ريحه ، وتتعقبه ، لتروى عطشها من دمائه ؟ . وثعالب خربتا تخاتله لتنقض عليه فى لحظة غفلة ؟ . . وأهل مصر — إلا قلة — إذا ما خاصموه قتلوه ، وإذا ما سالموه أسلموه ؟ . .

قل من عسى قد يلوم الفتى لو تأثر والبلاد حوله غدت مثل غاب تعيث فيه الذئاب ! . . فلا مثابة لأمن . ولا رجاء فى أمل . ولكنه ، على ما يعانى ، يستنهض جأشه ليثبت معه فى وجه الإعصار الأهوج لعله يهدأ ، أو يميل عنه ، ثم يكتب إلى أمير المؤمنين :

« ... ... إن العاصى ابن العاص قد نزل أوانى مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم . وقد جاء فى جيش لجب جرار . وقد رأيت ممن قبلى بعض الفشل ... فإن كان لك فى أرض مصر حاجة ، فأمدنى بالرجال والأموال . . »

وكانت للإمام فى مصر حاجة ، أى حاجة ، بلا مراء . . فما أن يصله كتاب محمد حتى يدعو الناس للتجهز ، والسير لمصر مددا ونجدة ، ثم يبادر فيثبت الفتى ويهون عليه حتى يفى له بما يريد . . .

يبعث إليه :

« ... ... لا تفشل وإن فشلوا . . حصن قريتك ، واضمم إليك شيعتك ، وأذك الحرس فى عسكرك . واندب إلى القدم كنانة بن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربه والبأس . . وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول ... ... »

وتفعل الرسالة فعلها فى محمد فيستشعر شيئا من ثقة يدفعه إلى الرد على غريميه بما يبعد عنه مظنة الخضوع للتهديد . . .

يكتب لأحدهما :

« ... ... تأمرني بالتنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى بالحرب كأنك على شفيق ؟ . . أنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم .. .. وأن تولوا الدبر ... ... »

ويكتب للآخر :

« .. ... زعمت أنك ناصح لى ، وأقسم أنك عندى ظنين . . وزعمت أن أهل البلد رفضونى ، وندموا على اتباعى . . فأولئك حزبك وحزب الشيطان .. . »

ويقوم فى الناس :

... ... يا معاشر المؤمنين . . إن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ، ويفشون الضلالة قد نصبوا إليكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ... فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم فى الله .. انتدبوا ، رحمكم الله ، مع كنانة بن بشر ... ... »

أما دعوة الإمام فقد حصدت الهشيم !.. قبضت الريح !.. تبددت فى فراغ !..

يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، كان يستحث المسلمين عنده أن يخفوا لنصرة أخيهم بمصر ، وينهضوا لنجدته ، فيسخون عليه بالوعد كل السخاء ، ثم يبخلون بالوفاء !.. مرارا دعا ، ومرارا أمر ، فما أيقظتهم دعوة ، ولا حركهم أمر . كانوا عيونا تشخص ولا ترى . وآذانا تبلع ولا تسمع . وعقولا قدت من صخر .. حالهم الآن كحالهم عند رفع المصاحف ، وغب خدعة التحكيم ، ويوم التنادى للزحف الأكبر لغزو الشام لم يعودوا أولئك الفئة الصافية الأنفس ، المجلوة الأرواح ، التى يشوقها خوض الغمرات جهادا فى الله : نشرا للحق ، ودفعا للباطل ، وسحقا لأهل الضلال والطغيان ...

بل قد غدوا أشد جحودا وعصيانا له ، وغدا أشد بعدا عن مشاعرهم كأنه وإياهم على طرفى نقيض . فلم يغن عنه منطقه . ولا غيرتهم الكارثة التى أقبلت معالم خطرها ونذرها تترى عليهم من ساحة الوقعة المنتظرة فعمرو يتقدم . وقواته المغيرة تعز نفرا وعتادا بمن على رأيها من أهل الإقليم . وأنصار محمد بمصر ينتقص منهم التخاذل ، ويوهنهم — عددا وعزيمة — توالى الأيام وجبهة الدفاع تميد تحت أقدامهم وتشفى على الانهيار ..

ثم جاءت القارعة !..

إنه ليجتر ألمه ، ذات يوم ، فى صحبة يأسه ، فإذا رسولان يفدان عليه ، يسبقهما إليه نفس مبهور !.. من حدود مصر ، عبر الصحراء ، قطعا مراحل برت الأقدام . بالعين لهفة ، فى الحلق غصة ، على الملامح وجوم ..

وانتفض ووقدة الحر عندئذ لا تبعث رعدة ، بل تعين على هدوء الاسترخاء . ولكن البغتة وخزته . والنكبة التى أقبلا بنبئها كانت كلسع النار ..

وخرج فنادى فى الناس :

« الصلاة جامعة !.. الصلاة جامعة !.. »

ثم ارتقى المنبر عندما احتشدت الجموع ، تتدفق المرارة من فيه :

« ... هذا صريخ محمد بن أبى بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله

ولقف نفسه هنيهة ، انبرى بعدها يقول :

« .. ... لا يكونن أهل الضلال . . أشد اجتماعا على باطلهم . . منكم على حقكم ... قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر ، عباد الله .. إن مصر أعظم من الشام ، وخير أهلا ، فلا تغلبوا على مصر إن بقاء مصر فى أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم »

وتفرس فيهم مليا ، حتى إذا وجد منهم الإقبال بالسمع ، دعاهم إلى الإقبال على التجهيز ، وهو يرجو هذه المرة منهم أن يلبوا النداء :

« ... ... اخرجوا إلى الجرعة . . لتوافى هناك كلنا غدا ، إن شاء الله ... ... »

٧

هبط « الجرعة » على أول شعاع ! . .

بين قطر الندى العالق بجو الصباح بلغ وجهته . . سكون الوجود حوله يبث السكينة . خفة النسمة ترطب التوتر . نضرة الشروق تبعث التفاؤل . ومن خلال هذا الصفاء الوديع سرى إليه أثر من أمل ، يهمس فى روعه ، ويمسح على قلقه بيده الرحيمة . . .

* * *

عندما بدأ رحلته ، لمس السواد فى السكون والخاطر . . .

فى الكوفة ، حين مخرجه ، كان الظلام يطبق على الأرض بقتامه . على الطريق ، خارجها ، رافق الظل والوجوم والتوجس . فى منطلقه الطويل منها ، كان يمشى على شوك ذكرياته الحزينة . . .

كالضباب بدا الفضاء الفسيح على مدى رؤيته . الأرض والأفق كتلة من الفراغ . الدنيا محيط من التيه ماله ساحل . . لا معالم ولا حدود ، أينما سبحت عينه ، بل شهبة عميقة تذوب فيها المسافة . .

كالسر تجسد الصمت المخيم على الوجود . لا نأمة . لا همسة ولا حفيف .

لا رجع صدى من قريب ولا من بعيد . حتى خطاه الحثيثة بدت بلا وقع ، وكأنما يمتصها الرمل الصديان . . .

الغموض يغلف الخلق والأمر ، كما غلف أمسه ويومه ، والجمود يحكم الصوت والحركة ، كما حكم فكره وقدرته .

فلعلها صورة شعوره ، بريشة الطبيعة ، هذه اللوحة التي يرسمها الضياع والإبهام . . بكل يأسه ، بكل ضيقه ، بكل حيرته التي يبثها أمامه تردد صحابه . . .

ولعلها حياته ، في مختتم عمره ، مثلت له وقد تقسمها في الشهور الأخيرة المريرة ذلك التوجس في نفسه ، والتهاون في قلوب رجاله ، والحقد الأسود في صدور شانئيه . . .

* * *

لكن الرقة الوديعة لونت الصورة . .

من جانب الأفق ، شق السواد المحيط ، سيف النهار . . في الثرى المعتم ، راحت خطاه ، مع الفجر المسفر ، تغرس النور . . على لين النسمة ، ونضرة الشروق ، ورفق السكينة ، تفتح الأمل . . .

وبدت له الجرعة ، من بعيد ، كواحة . بعد طوال السرى ، في وادي الظلمة لمعت كشعاع . ومن مشارفها أخذت ترحب به البكرة الوليدة . .

هو الآن ينساب كطيف . يترحل في الزمن بأسرع من ترحله على المسافة . كل خطوة يخطوها ، كانت صفحة يطويها من سجل الغابر . كل نظرة يلقيها ، كانت تكشف بسمة على ثغره . فالأمل معه . الظلمة خلفه ومن أمامه بدأت تقبل طلائع الضياء . .

وهان عندئذ أمسه . .

الهدوء في صدره ، والرضا على جبينه . .

ولم يعد يحس ثقلا في قلبه ، ولا تفترا في أوصاله . لا عبسة فكر ولا تجهم خاطر . لا فتور ولا رهق من سرى أو سير . لا ضيق بوحشة لغياب رفيق . . والوقت أيضاً يمر به في هوادة يخالسه ، فلا يستشعر تقربه وهو مشغول عنه برجائه . . .

ثم أقبل الدفء يتهادى على ضوء النهار الجديد . . .

رويداً رويداً راحت الشمس تنسج خيوطها لتكسو الأرجاء الأفق الباهت طلته الأشعة بلاء براق . الفراغ الممدود كالتيه ، فى غبش الليل ، انقشع غموضه وتخلقت له خطوط وحدود تحت أفياض النور . . هنا ظهرت وهدة ، وهنالك بدا كثيب . هنا بان قاع ، وهنالك يفاع . هنا وعى الرمل بعض الأثر ، وهنالك محته يد الريح . . البصر الآن يستطيع أن يحيط بالمعالم ، ويدركها ، ويترحل معها عبر الأبعاد . .

لكن السمع ظل محصوراً فى سياج محكم من السكون الكثيف . . المكان يبدو كلوحة مرسومة ، لها قسمات وملامح ، بها أشكال وألوان ، فيها ظلال وأضواء . المنظر ينطق ، أما الحركة فخرساء ! . .

حتى الهواء لم يعد له حسيس فالهدوء الذى غمر الوجود أعداه . وحر الصحراء خدره ولفه بالوسن . ورشاش الضباب ، السابح فى الجو ساعة البكرة ، همد سبحا وفنى فى أشعة الضحوة . والظلال أيضاً هواجع ، لا تتقلص ولا تطول ، لأنها تنعكس عن جمود ! . .

غير أن الرمال مالبثت أن وشت بوقع خافت كأنه الهمس فى أذن صماء ! . . على مدى البصر اقتحم اللوحة ، عند حد الفضاء الفسيح ، هيكل قادم من صوب الكوفة ، لاح فى وهج الضوء المتألق ، كخيال . وقيد خطوة منه ، أو خطوات إلى الوراء ، ظهر آخر يسعى فى أثره كأنه ظله . ومن خلف هذا وذاك بدا ثالث ينساب كفورة غبار . .

ثم تتابعت ، مع الزمن الوانى ، ومن خلال غلالة الرهج الشفاف ، عدة أشباح . . .

بضعة خيالات . .

حفنة من رجال . . .

نفر تناثروا هنا وهناك ، على منبسط الرمل ، وفى سطعة الضحى ، كنفثات دخان . . كنقط شهباء . . كروق فى ثوب الصحراء الأصفر ! . .

ولم يغيروا شيئا من رتابة الهدوء . ولا من سطوة الجمود المهيمن على

المكان . . كادوا — من قلة — لا يضيفون إلا فراغا إلى الفراغ ، وإلا عدما إلى همود الأرض الجرداء . .

وطاف بخلدهم ، وجمعهم يلتئم بجانب من المكان ، أنهم أعصى على التحيز وشغل المعسكر الشاغر ، وأهون من أن يحسبوا بالأرقام ! . . وبدوا فى عيون أنفسهم خطوطا من الظلال لاصفوف مقاتلة ولا شخوص رجال . . ثم خالوا — من هوانهم — ذلك القادم قبلهم على أول شعاع ، قد ملأ بسمته الفضاء الرحب ، وأوصد دونهم منافذ الحركة والتفكير ... فنظرته لوم . وإعاؤه استهانة وازدراء . وهيئته ، التى أحاطت بها هالة من ضوء الشمس ، ألقت بينه وبينهم برزخا من الهيبة ، يمنعهم الإقدام أو الاعتذار . .

غير أنهم ، حين حاولوا الدنو منه ، ساروا إليه كالمسحورين . . خطاهم واهنة لاتوقظ ضوضاء . أقدامهم ثقيلة كأنما تتحرك ولا انتقال . جسومهم خدرة كسائرة فى نوم . وعلى وجوههم الغبرة وجوم محا معالم الملامح فستر التعبير ، وجمد الأنفاس ...

وأخذتهم غشية من الشعور بالإثم وعيونهم تدور قلقة بين نفرهم المعدود ، ثم تتطلع نهمة إلى حدود الفضاء . لكن الفضاء زم شفتيه ، ولم يسعفهم بجواب . فما أسفر عن حركة ، ولا أطلع هيكل إنسان . .

وتصارع ، على ملامحهم الباهتة ، الهوان والندم . وتبلور فوق جباههم الخشنة عرق كالندى ، مادروا أقطرته الأشعة القائظة ، أم أفرزه الخزى المكنون . وآدهم من ذلك الركود الرتيب المريب أنهم لا يحسونه وإنما يتنفسونه ملء الرئات حتى لتشرق به الحلوق ويضغط على الصدور ويكتم الأنفاس ! . فلو خف عنهم ضغطه ؟ لو انجاب بعض ثقله ؟ لو قطع صاحبهم رتابته البغيضة ولو بغضبة جارحة ولوم مهين ...

لكن الإمام لم ينبس . وهل الموقف يدعو لحديث ؟ . . إنما الصمت أجدى عليه ، وأقسى عليهم . حسبه ما يرى . وحسبهم ما يحسون . فخزيهم عذاب ، ومشهدهم يغنى عن العتاب . . .

وعندما انتصف النهار ، وارتفعت الظهيرة ، وأخذت الشمس تلسع الوجود

بسياط من نار ، مد إلى طرف الأفق سمعه وناظريه كأنما يحاول أن يستشفه سره . . مليا أرهف السمع . ومليا سدد النظر، ولكنه لم يعد من رحلة الرؤية والإصغاء بجديد . لم يفز بغير الغموض . ولم يحظ بالرجاء الأخير . . لكأنما الأفق قد أغلق بباب ورتاج ، فلا وقع قدم ، ولا هيئة قادم . ولا ضبابة غبار . . .

وارتسمت على فمه بسمة ، وهو يسترد من الأفق بصره ويحول إليهم نظرة نافذة تخترق منهم الجلود والأخلاد . . من مرارة كانت البسمة . ومن كآبة كان الشعاع الذى أرسلته عيناه . فالأمل الذى أحياه فى قلبه صفاء الطبيعة ، ساعة البكرة ، قد محاه مشهدهم الآن كما يمحو الليل الأسحم آية النهار . والماضى المرير الذى ظن عند إشراقة الصبح النضرة ، أنه انطوى إلى غير رجوع ، قد ارتد أعتى وأعتم . والغد المأمول الظافر ، الذى خايلته به لحظة رجاء ، لم يكن سوى سراب . .

وعاد مقهورا لأمسه البغيض : لليأس والأسى والسأم . . وما قصاراه وهاهم أولاء ما زالوا على تراخيهم ، لا تنهضهم محنة ، ولا تهزهم جلجلة الأحداث ؟ . لكأنما آثروا الغفلة البليدة ! . لكأنما أنسوا للضيم ! . . لكأنما استمرأوا العدم فعاشوه فى الجمود لأنه راحة ودعة ، ونبوا بالحياة لأنها حركة وجهد وتغيير ! . .

ثم تحرك على طريق العودة . بلا كلمة مضى ، وتركهم خلفه غائصين من خزيهم فى الرمال . وما عساه يقول لطغمة مثلهم ، أرادوا للحياة ألا تسير ، وللواقع أن يظل بركة آسنة ، وللزمن أن يثبت فلا يطلع « غدا » وإن تبدل نهار بنهار ؟ . .

وأوى لداره لائذا بهمه . فى قلبه كآبة ، وفى عينه سهوم ، وفى فمه علقم ... وكانت البقية الباقية من النهار أشد عليه من وصبه . جاثمة على صدره كجبل ، ثابتة كسد حجب المستقبل ، عالقة فى الجو كقطرات بخار فى يوم مرطوب . وما أبطأ الزمن على قلب مثقل يقيس الثوانى بخفقاته التى يخالها كفت عن الوجيب ! . .

أعوام عديدة من الأسى عاشها فى تلك الساعات الطويلة كالدهر ، الهامدة كالموت ، الجوفاء كالفراغ .. فما حدها بعد زمنى ، ولا هزتها حركة ، ولا شغلها وجود . هو نفسه كان يؤلف من كيانها قطعة من اليأس الصامت الذى يضيف إلى كتلتها السلبية رصيدا ضخما من الضياع . .

ولم يدر كيف أوفت ساعاتها على النهاية . ولكن عتمة الغسق آذنته بالتغير . وضوضاء وقع وهمسات ، ردته ثانية من مجاهل سهومه . .

والتفت إلى الجمع الذى تحلق به ، يستشرف فيه وجود طائفة من الأشراف والسادة ، الذين لهم فى أقوامهم أقدار . . ولم يبال بما حاولت أفواههم أن تلوكه كلفظة ولاء أو عبارة اعتذار . فلا ولاء من ناكث ، ولا اعتذار من مدمن عصيان . . إنما كان همه أن يدع ذلك المرجل الغالى فى صدره ، ينفس عن البخار المكتوم . .

ورفع إليهم عينا تلتهب بما فى قلبه من غيظ ، ألزمتهم نظراتها الملتهبة الإصغاء ، وهتف يخاطبهم فى هدوء مرير :

« الحمد لله .. الذى ابتلانى بكم ، أيها الفرقة التى لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تجيب إذا دعوتها .. .. »

وتمهل على لهم فى الجواب ، ولكن حسرهم كم الأفواه .. وما عساهم يقولون وقد كان قصاراهم ، حين واعدوه الاجتماع فى الجرعة هذا الصباح فى جيش لجب يرد عادية معاوية عن مصر ، أن وافوه بمائة رجل هم كل الجيش الموعود ! . .

وصخب صوته لعله يهز بجرسه العنيف همتهم الراكدة ، ويرد من غفلتهم إلى تفهم حقيقة الأمور :

« أين جمعكم ! .. ألا تغضبكم ! .. ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ! .. أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام الظلمة فيتبعونه . ثم أنا أدعوكم ، وأنتم أولو النهى وبقية الناس ، فتتخلفون وتفترقون عنى ، وتعصوننى ، وتخالفون على ! .. »

وألجم منطقه . وحلق عليهم من الوجوم ما حسبوا معه من الأموات ،

كما ملكه من اليأس ما جعل الموت أهون عليه وأحب من حياة هم فيها عذابه الذى يتجدد فى كل لحظة على صحوات حواسه وتردد أنفاسه . . وهل أخفى عنهم شعوره وقد قرأوه فى محياه أكثر من مرة ، ثم جابههم به بالعبارة الصريحة ، وهو ينعى عليهم الهوان ؟ . .

بل قد خرقت أسماعهم كلماته ونفذت فيها كما ينفذ السهم فى الرمية إذ قال :

« . . لا أبا لغيركم ! . . ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم ؟ . . الموت خير من الذل فى هـذه الدنيا لغير الحق . . والله إن جاءنى الموت — وليأتينى — لتجدنى لصحبتكم جد قال ! . . »

وأثار حديثه حمية بعضهم فدفعتهم نخوتهم إلى الانتصار له ، والإزراء بما أسرفوا من التراخى والتبوط ، فنهض منهم مالك بن كعب الأرحبي يقول :

« يا أمير المؤمنين ، اندب الناس معى، فإنه لاعطر بعد عروس وإن الأجر لا يأتى إلا بالكره . . . »

ثم التفت إلى الجمع يحثهم :

« اتقوا الله ، وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوكم . . »

وانثنى بعد الإمام ، بلهجة الواثق الذى لا يستريب :

« . . إنا نسير إليهم ، يا أمير المؤمنين . . »

وكأنما شاء أن يملى لهم ، هذه المرة أيضاً ، فى مراجعة أنفسهم ، إعذارا وإبراء لذمته أمام الله ، فأمر سعداً مولاه أن ينادى فى الجمهور :

« . . ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر . . أيها الناس . . »

فهل يسيرون ؟ . .



مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠